بنـــت وولـــد

ياسمين خليفة

اسم الكتاب: بنت وولد

اسم الكاتب: ياسين خليفة

تصميم الغلاف: إيمان صلاح

مراجعة لغوية وتنسيق داخلي: سارة صلاح

رقم الإيداع: 2013/20327

الترقيم الدولي: 4 - 39 - 6447 - 977 - 978

رقم الطبعة: الطبعة الثانية/ 2015

الإشراف العام ومدير قسم النشر	مـــــدير التـوزيع
فـتحي الـمزين	منال المزين
01282288058	01270982908

لبان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية

يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والأراء والمادة الواردة

العنوان: 6شارع التحرير بالدقي، بجوار محطة مترو البحوث، الدور 19، شقة رقم2002.

البريدالإلكتروني:

layanpub@gmail.coml-layanpub@yahoo.com

بنـــت وولــد

رواية

ياسمين خليفة

إهداء

إلى أبي فلولاه لما خرجت هذه الرواية للنور..

وإلى أمي فلولا القصص التي كانت تقرأها لي في الطفولة لما أحببت القراءة والكتابة.

-1-

دقَّ الجرس في مدرسة "السلام الثانوية للبنات" في سموحة بالأسكندرية في الساعة السابعة والنصف صباحًا، معلنًا عن بِدء طابور الصباح. ظهرت مدرّسات التربية الرياضية في الفناء بأجسامهن المشدودة ووجوههن المتحفزة وبدأن في إطلاق الصفارات والصراخ والتلويح بالعصا للطالبات كأنهن قطيع من الغنم، حتى تجمعن ووقفن في صفوفٍ متراصة.

تطلعت الطالبات للدور الأول من مبنى المدرسة حيث وقفتْ إحدى طالبات الإذاعة المدرسية وأمسكتْ بالميكروفون، وبدأت تتلو بصوتٍ عذب ما تيسَّر من سورة المائدة. وبعد انتهاءها من التلاوة، أمسكت طالبة آخرى بجريدة الأهرام، وأخذت تقرأ عناوين الأخبار، فبدا الضجر على وجوه الطالبات، وسرعان ما اقتربت كل فتاة من أذن صديقتها وبدأت الثرثرة الصباحية اليومية عن مسلسلات التليفزيون والأولاد ومشاكل الدروس الخصوصية .

‹‹سها محمود العيسوى›› هي الوحيدة التي ظلت واقفة في مؤخرة الطابور في صمتٍ، ليس لأنها لا تريد أن تتحدث، ولكن لأنها لا تجد من تشاركها الحديث بسبب غياب صديقتها‹‹سارة الشناوي›› بعد أن استطاعت الحصول على إجازة مرضيَّة لمدة أسبوع .

كانت سها هي أطول فتاة في المدرسة وقد أعطتها نحافتها طولاً وهميًا زائدًا منحها لقب "زرافة المدرسة "، وجعل السؤال المعتاد الذي يُطرَح عليها دائمًا من زميلاتها هو "إزي الجو عندك فوق؟ " .

كانت سها بارعة في التظاهر بعدم الانزعاج من سخرية زميلاتها، رغم أنها كثيرًا ما تمنَّت لو لم ترث طول والدها ونظره الضعيف. فنظارتها الطبية تضع حاجزًا زجاجيًا على عينيها الخضراوتين الواسعتين الجميلتين لتبدوا كأنهما نقطتان ملونتان تحت زجاج النظارة السميك. كما أن حجم النظارة الكبير وإطارها الأسود قلل من جمال وجه سها الأبيض المستدير وأنفها المستقيم وفمها الصغير الذي ورثته عن أمها.

* * *

بعد أن ملَّت سها من الاستماع لأخبار آخر المباحاثات التي جرت بين الرئيس المِصري ونظيره الروسي، أخذت تعبث بأطراف شعرها الكستنائي الناعم المربوط بمشبك أسود على شكل ذيل حصان، ثم رفعت رأسها لأعلى وأخذت تتأمل زُرقة السماء والسحب الصغيرة المتناثرة فوقها التي اتخذت أشكالاً هلامية جميلة .

انشرح قلبها عندما رأت سِربًا من العصافير يطير فوق مدرستها ويبهج أذنيها بالموسيقى الصباحية المرتجلة التي ينشدها.

تطلعتْ للعصافير وهي تمضي بعيدًا، متجهة نحو الأفق البعيد بنظرة يملأها الشجن، وتجددت أمنيتها أن يحولها الله لعصفورٍ أو أي نوع آخر من الطيور حتى تترك تلك الأرض الضيقة للأبد وتعيش في السماء الواسعة. كانت ترى أن الطيور هي أكثر الكائنات تحرُّرا لأن أجنحتها تتيح لها السفر والتنقل من مكان لأخر بدون جواز سفر ولا مطار. السماء ملعبها وأشجار وغصون العالم بيوتها وطعامهامتوافر دائمًا. فلايمكن أن ترى طيرًا يمنع الطعام عن طير آخر أو يحبسه أو يتحكم فيه، وهذا ينطبق على باقي الكائنات التي تعيش في انسجام تام مع الطبيعة، ما عدا الإنسان.

بعد أن ملَّت سها من انتظار ظهور سِرب آخر من الطيور، حاولت أن تشغل عقلها بشيءٍ يرفع معنوياتها، فقامت بحساب الأيام المتبقية لها في المدرسة .

اليوم هو (الأحد 21 فبراير 2004) وامتحانات المرحلة الثانية من الثانوية العامة ستنتهي في(22 يوليو). إذن، باق من الزمن خمسة شهور بالتمام والكمال.

بعد خمسة شهور فقط لن تقف في هذا الطابور الممل، ولن تجلس في الفصل لتتلقى فاصل الإهانة والصراخ والتهديد من تلك الكائنات المريضة نفسيًا الذين يقال عنهم مدرسين. ولن تمشي في ذلك الفناء الضيق المتّسخ، ولن تتصارع مع عشرات البنات أمام شبَّاك(الكانتين) من أجل شراء كيس شبيسي، ولن تضطر لحفظ كل هذا الكم من المعلومات الذي لا يمكن أن يسعه عقل إنسان طبيعي .

الغريب أن الكراهية الشديدة التي تكنّها سها للمدرسة كانت المحفز الأول لها كي تذاكر وتنجح، لأنها كانت تعلم أن تكاسلها سيؤدي إلى رسوبها وبالتالي إلى زيادة المُدة التي ستقضيها في المدرسة.

كانت في البداية تنجح خوفًا من عقاب والديها، ولكن بعد أن وقعت في حُبِّ اللغة الإنجليزية وحلمت بأن تكون مترجمة. دفعتها رغبتها في الالتحاق بكلية الألسن إلى المذاكرة باستماتة حتى حصلت(96%) في المرحلة الأولى من الثانوية العامة.

لقد أخفت رغبتها عن أسرتها حتى الآن لأنها تعلم أن الحصول على موافقة والدها على إقامتها في القاهرة سيكون أمرًا صعبًا. لذلك قرَّرت ألا تسبق الأحداث وتؤجِّل التفكير في كيفية إقناعه حتى تظهر النتيجة وتطمئن أنها حصلت على الدرجات التي تؤهلها لدخول كلية الألسن .

* * *

مرَّ اليوم الدراسي بطيئًا ومملًّا كالعادة، تخلله القليل من الشرح والكثير من الحصص الخالية. نظرت سها لمقعد صديقتها سارة الفارغ وقالت لنفسها: لو كنت أمتلك موهبة التمثيل مثل سارة لاستطعت أن أتصنع المرض وأحصل على إجازة وأوفِّر وقتي الثمين في المذاكرة.

حاولتْ استغلال الحصص الخالية في عمل واجبات الدروس الخصوصية، ولكن ضجيج زميلاتها اللواتي يعشقن الثرثرة والمزاح والضحك، أحال بينها وبين التركيز فقررت اللجوء لوسيلة أكثر إمتاعا لقضاء وقتها .

فتحت حقيبتها وأخرجت منها مجموعة متنوعة من الصور لعدة مزارات سياحية؛ تمثال الحرية في نيوريوك، برج بيزا المائل في إيطاليا، برج الإيفيل وشواطىء هاواي.

بعد أن متّعت نظرها وروحها بالصور، أخذت تتطلع للسماء من الشبَّاك المجاور لمقعدها ثم أغمضت عينيها وابتسمت وأطلقت العنان لخيالها حتى يتحرك ويطير. رأت نفسها تقف في شرفة تطل مباشرة على برج ايفيل في وقت متأخر من الليل، وتتابع بانبهار الأضواء المتراقصة المشعة من البرج وتراقب النجوم الصغيرة التي تتلألأ في ليل باريس الساحر.

كانت سها تعشق أحلام اليقظة وتراها الوسيلة الوحيدة للهروب من عالمها الضيق المحدود إلى عالم آخر خارج حدود الزمان والمكان. . عالم تخترع تفاصيله وأبطاله وترسم نهايته كما تشاء .

لقد رافقتها أحلام اليقظة منذ أن كانت طفلة وتطورت وتغيَّر محتواها مع تغيُّر المرحلة العمرية التي تمر بها.. شخصيات مجلة ميكي كانوا أبطال أحلامها في الطفولة. حلُمَتْ كثيرًا أنها دخلت في صحفات المجلة وأصبحت من سكان مدينة البط وشاركت بطوط وزيزي وعم دهب مغامراتهم الشيّقة .

وبعد أن وصلت لمرحلة المراهقة، عشقَتْ الأفلام الرومانسية القديمة، وكانت تبكي عندما تشاهد المشاكل والظروف تفرّق بين الحبيبين ثم ينتشي قلبها فرحًا وهي تشاهد النهاية السعيدة للفيلم.

وكلما شاهدت فيلمًا، كانت تحلم في اليوم التالي بأنها بطلته. كانت تتخيَّل أنها سعاد حسني أو فاتن حمامة، وأن عمر الشريف أو رشدي أباظة وقع في غرامها من أول نظرة. ولكن لأنها لا تريد أن تكون سهلة المنال ترفض أن تكلمه وتهرب منه

وتجعله يطاردها حتى تتأكد من حُبُّه لها. ثم تحدث بينهما مشاكل بسبب غيرته الشديدة عليها، فيتخاصمان وبعد أن يكتشفا كم يحبان بعضهما يتزوجان ويعيشان في سعادة للأبد .

بعد أن كبرت قليلاً وشاهدت أفلامًا وبرامج وثائقية عن الطبيعة وبرامج سياحية عن دول العالم، انبهرت بما رأته من جبال وهضاب ووديان وغابات وبحار ومحيطات وشواطىء، ونما لديها الحُلم، أن تسافر للخارج وترى كل المعالم السياحية الجميلة التي تشاهدها في التليفزيون بعينها وتكتشف عجائب الطبيعة وأسرار الكون. وباتت تتخيل نفسها كل يوم تخوض مغامرة اسكتشافية ممتعة في دولة جديدة .

كلما كبرت مشاكلها وتضخّمَت وكلما زادت وطأة معاناتها، كلما جمحت في أحلامها. فجنون أحلامها هو السبيل الوحيد بالنسبة لها للمحافظة على سلامة قواها العقلية .

* * *

رنَّ جرس الانصراف بصوته المُحبَّب لكل طالب في الدنيا، فنزلت سها على السلالم بخطواتٍ سريعة مع باقي الطالبات وتنفست الصعداء بعد أن خرجت من باب المدرسة. يومٌ آخر مضي. يومٌ آخر يبعدها عن أسوار المدرسة ويقربها من أحلامها.

داهمها الكسل عندما فكّرَت في المهام الكثيرة التي يتعين عليها القيام بها اليوم.. مشت بخطوات بطيئة حتى وصلت للشارع الذي تقع فيه حضانة أحباب الله .

رأت«روان» تخرج من باب الحضانة جريًا وهي تصيح وتحاول الهرب من زملائها الذين حاولوا مجاراتها في السرعة من أجل الإمساك بها. وقبل أن يتمكَّن أحد الأولاد من الاقتراب منها، وقعت بين يدي سها فأمرتها بالتوقف عن الجري لأن موعد العودة للمنزل قد حان .

ضيقت روان من نظرة عينيها وعقدت حاجبيها الصغيرين، وأخذت تترجى سها كي تتركها تكمل اللعب ولو لخمس دقائق، كأن مستقبلها يتوقف على فوزها في لعبة (المسَّاكة). هزَّت سها رأسها بالرفض، فصاحت روان بأعلى صوتها "أرجوكي يا ماما".

صوَّبت أمهات الأطفال الأخرين عيونهن على سها في ذهول، وتساءلن هل من المعقول أن تكون هذه التلميذة هي والدة هذه الطفلة؟ وكيف ومتى أنجبتها؟!

* * *

- 2 -

أفرغت سها شعورها بالإحراج على روان فصاحت فيها "أنا مش ماما كفاية استهبال بقى"، ثم شرحت للسيدات أن أختها الصغيرة أحيانًا تقول لها "يا ماما" لكي تغيظها. أمسكت بزمام أعصابها سريعًا، واستطاعت منع نفسها من الانفعال وهي تشاهد روان تعوي وتصيح وتدب قدميها في الأرض وتحاول التملص من يديها.

لقد اعتادت على رؤية هذا الاستعراض اليومي من روان منذ أن دخلت الحضانة السنة الماضية، وكانت تعرف أنَّ الصمت والتجاهل هو الطريقة المثلي لإيقاف مفعول الحيل التي تقوم بها. سحبتها من يديها كأنها حيوان أليف خرج عن طاعة صاحبه بدون أن تنظر لها. فتوقفت روان عن الصراخ أخيرًا، ومشيت مطأطأة الرأس مستسلمة لإرادة أختها الكبيرة .

من ينظر لوجه روان وسها لن يصدق أبدًا أنهما شقيقتان، لأن روان تشبه والدها وجدتها، على عكس سها التي تشبه والدتها. لقد ورثتْ روان عن والدها بشرته الخمرية وأنفه الكبير، وورثت عن جدتها عينيها السوداوين الضيقتين وشعرها الأسود المموج. ولم ترث من والدتها سوى فمها الصغير لذلك كانت تبدو شبيهة بأختها سها عندما تضحك فقط.

لم يقتصر الاختلاف بين سها وروان على الملامح وتقاسيم الوجه، وإنما امتد للطبع والتصرفات. عندما كانت سها في سِن روان كانت مثال للطفلة المطيعة الهادئة ولم تجرؤ أبدًا على تحدي أوامر أمها أو التململ من أي شيء، على عكس روان التي تعشق كلمة لا ولا تطيع سوى عقلها العنيد، وتستغل ضعف الكبار أمام بكائها حتى تجبرهم على الإذعان لإرادتها. وقد دفعت سها ثمن خضوعها لرغبات روان غاليا. ولكنها بعد أن تألمت وتعلمت عرفت كيف تكون حازمة معها حتى تُجبرها على

طاعتها. ورغم كل هذه الاختلافات بين الأختين، لم يكن غريبًا أن تخطىء روان أحيانًا وتنادي سها بكلمة ماما، لأن سها تعتبَر أمها الثانية. إنها لا تقبل أن تأكل إلا لو أطعمتها سها، ولا تنام إلا لو جلست سها معها في الفراش وحكت لها حدوتة.

ولا تفتح كتبها إلا لو جلست سها معها وساعدتها في القراءة والكتابة. فصوت سها الرقيق كان المهدِّىء الوحيد لها عندما كانت رضيعة، ويدها الحانية هي اليد الوحيدة التي كانت تمتد وتغير لها حفاضاتها وتحممها وتلاعبها .

لقد اضطرَّت سها أن تنضج بسرعة وتصبح أمًّا لروان عندما أصيبت والدتها سلوى بالأنيميا بعد أن خسرت كمية كبيرة من الدم وهي تلد روان عن طريق عملية قيصرية. تمكنت سلوى بصعوبة من إرضاع روان، ولكنها لم تملك الطاقة لرعايتها وتلبية احتياجاتها. ولم تجد في أفراد أسرتها من تساعدها لأن أمها توفت قبل ولادة روان بشهور قليلة، أما أختها الوحيدة تعيش في بورسعيد.

لذلك تطوعت سها لمساعدة والدتها المريضة ليس في الاهتمام بروان فقط، ولكن في القيام بكل أعمال المنزل من تنظيف وطبخ وغسيل.

ظنَّت سها أن قيامها بدور ربة البيت انتهى بعد أن استردت والدتها صحتها وعادت لممارسة عملها كمدرسة لغة فرنسية في إحدى المدارس الحكومية. ولكن بعد أن قرَّرت سلوى أن تدخل مضمار الدروس الخصوصية لم يعد لديها وقت ولا طاقة للاهتمام بشئون المنزل، فعادت تتؤكأ على سها مجددا.

كانت سها أحيانًا ترى نفسها مثل الحاوي في السيرك الذي يقذف ويتلقف عشرات الكرات بين يديه في وقت واحد بدون أن يوقع أي منها على الأرض، حتى أن زميلاتها اندهشن من قدرتها على التفوق رغم المسئوليات الكثيرة الملقاة على عاتقها. ورغم معاناتها اليومية من الإرهاق والتعب، إلا أنها كانت تلمتس لوالدتها العذر وتعلم أن لجوئها لإعطاء الدروس الخصوصية أمرًا اضطراريًا لم تكن ستفعله لولا استبداد جدتها .

* * *

استطاعت سها وروان بصعوبة اختراق أجساد الراكبات من أجل الصعود لعربة السيدات في الترام التي امتلأت على أخرها في ثوان .

سار الترام بسرعة لدقيقة واحدة، ثم توقف في محطة مصطفى كامل وطالت وقفته لعشرين دقيقة. بدا الغضب والضيق على وجوه الراكبات ثم سألن محصل التذاكر عن سر توقف الترام كل هذه المدة. نزل الرجل من العربة ثم صعد بعد دقائق ليخبرهن أن هناك عطلا في الترام وأن عليهن النزول وانتظار ترام آخر ولن يدفعن ثمن التذكرة مرة أخرى. نزلت سها وروان مع باقي الركاب وشاركتهم التأفف والشكوى أثناء الانتظار حتى جاء الترام بعد ربع ساعة.

شعرت سها بالخوف عندما نظرت للساعة فوجدتها تشير للثانية إلا الربع.. أخرجت تليفونها المحمول من حقيبتها واتصلت بجدتها عنايات. أخبرتها أن الترام تأخر بلهجة معتذرة كأنها التي تسببت في تعطله وهي تخاف ألا تصدقها، ولكنها فوجئت بجدتها ترد بلطف شديد:

-انتي مش ملزمة إنك تشرحي لي سبب تأخيرك. انتي خلاص كبرتي وبقيتي مسئولة عن نفسك وعن أختك. عموما إن شاء الله توصلي بالسلامة .

أنهت سها المكالمة مع جدتها وهي تشعر بذهول. إنها لا تستطيع أن تصدق أنها تغيرت وباتت تثق فيها.. لولا عدم مناسبة المكان وضيق الوقت لذكرتها بالمشكلة التي صنعتها لها العام الماضي بعد أن تأخرت عدة مرَّات في العودة للمنزل .

فوجئت عند دخولها الشقة بوالدها يقف في الصالة وينظر لها بشراسة.

سألها بغيظ عن سبب عودتها للبيت في الثانية والنصف ظهرا رغم أن دراستها تنتهي في الواحدة والنصف ظهرًا. ولم يصدقها عندما أقسمت له أن رغبة روان في اللعب هي السبب الوحيد في تأخرها. هددها قائلاً:

-اوعي تكوني فاكرة نفسك تقدري تستغفليني وتعملي حاجة غلط من ورايا. لو رجعتي بعد الساعة اتنين مش هخيلكي تروحي المدرسة تاني .

لم تسأله مَن أخبره بمواعيد عودتها للمنزل لأنها كانت تعرف أنها لا يمكن أن تكون إلا جدتها. كانت كل يوم تراها جالسة في الشرفة تنتظر عودتها وعندما تقترب من المنزل تحدجها بنظرات لائمة. ولكنها لم تتصور أن هذا اللوم يخفي ورائه شكًّا في أخلاقها وسلوكها استطاعت بسهولة أن تزرعه في قلب والدها مستغلة ثقته العمياء فيها. إنها لم تكتف بإفساد علاقة والديها والتسبب في طلاقهما مرتين بل أردات أن تزيد علاقتها بوالدها توترا. وهي اليوم تبرىء نفسها بكل سهولة مما فعلته وتفعله بعد أطمأنت أن السجينة باتت تعود لزنزانتها في الموعد المحدد .

* * *

وصل(الترام) أخيرًا إلى محطة "جانكليس"، فنزلتْ منه سها وروان. مشتا في شارع طويل ثم دلفا لشوارع جانبية آخرى حتى وصلا لشارع عمر المختار في حي الرمل الميري. عبرا بجوار باعة الفواكة والخضروات الذين تنافسوا في المناداة على بضاعتهم بأصوات تنافس الحمير في قبحها .

وعندما اقتربت الفتاتان من محطة القطار التي يقع منزلهما أمامها، أخرجت سها منديلاً من حقيبتها وغطت به أنفها لكي تحميها من الرائحة الكريهة المنبعثة من أكوام القمامة الملقاة بجوار شريط القطار. تخيّلَت وهي تعبر فوق المطبات والحفر والبرك الطينية التي يكتظ بها الشارع أنها انتقلت مع أسرتها إلى حيٍّ راقٍ، شوارعه تضاهي في نظافتها بيوت سكَّانه، يبدو كقطعة صغيرة من الجنة بفضل خُضرة أشجاره وتنوع الأزهار في حدائقه وفخامة تصميم القصور والفيلل التي تتناثر على جانبيه. سكانه مهذبين لا يتدخلون فيما لا يعنيهم وأولادهم لا يزعجون بنات الحي ولا يتحرشون بهن .

ظلت سها محتفظة بحُلمها الجميل داخل مخيلتها، رغم أنها تعلم أن الأحياء الراقية في الإسكندرية ليست بهذه المثالية والجمال. كما تعلم أن والدها من المستحيل أن يوافق على ترك العمارة التي يملكها والده .

لقد بنا جد سها الحاج ‹‹العيسوي عبد الستار›› رحمه الله هذه العمارة المكوَّنة من أربعة أدوار، من ثلاثين عامًا، كي يسكن فيها مع أولاده (محمود وعبير وجمال) وإخوته.

كل طابق يحتوي على شقتين. تقع في الطابق الأول شقة المرحوم جدها وتسكنها الآن جدتها‹‹عنايات›› مع عمها‹‹ جمال››. والشقة المقابلة اشتراها‹‹بهاء›› زوج عمتها ‹‹عبير›› وأصبحا يسكنان فيها مع أبنائهم الثلاثة. الطابق الثاني تحتله الشقة التي تسكن فيها سها مع والديها وأخويها والشقة المقابلة لهم محجوزة من أجل عمها جمال لكي يقيم فيها عندما يتزوج، أما آخر طابقين يسكنهما أعمام والدها الأربعة مع زوجاتهم وأولادهم.

* * *

صعدت سها على سلالم العمارة بخطوات بطيئة متثاقلة وهي تحمل حقيبتها فوق كتفها الأيمن وتمسك بحقيبة روان الصغيرة بيدها اليسرى .

وثَبَتْ روان فوق السلالم كالأرنب الشقي، وخلال دقيقة وقفت أمام باب الشقة في انتظار سها وهي تشعر بالفخر لأنها تمكنت من الوصول للشقة قبلها، وعندما رأتها تقترب من الباب قالت لها:

-أنا سبقتك يا سها أنا أشطر منك يا سها .

ضحكت سها على محاولة روان إغاظتها ومازحتها قائلة:

-لو مكنتش شايلة الشنطتين دول كنت سبقتك

ظنت روان أن سها تتحداها في الجري، فأعلنت عن قبول التحدي بحماسٍ:

-طب حطي الشنط وتعالي نعمل سبق ونشوف مين اللي يوصل لباب العمارة الأول.

استرسلت سها في الضحك عندما تخيلت نفسها تدخل سباقًا مع البنت التي قالت لها منذ قليل "يا ماما" .

وضعت سها المفتاح في كالون الباب، ثم دفعته بهدوء فأحدثت الأجراس المعدنية المُعلّقة وراءه رنينًا جميلاً كصوت الكناري، رسم ابتسامة واهنة على شفتيها.. اصطدمت عيناها بصورة جدها الحاج العيسوي عبد الستار، المُعلّقة على الحائط في مدخل المنزل، فأشاحت بوجهها بعيدًا عن الصورة. لقد علق والدها هذه الصورة القديمة لجدها في شبابه بعد أن توفي مباشرة حتى تستقبله صورة والده الحبيب كلما دخل الشقة .

ورغم أن سها لم ترَ أي شيء سيء من جدها الذي توفي وهي طفلة، إلا أنها تشعر كلما نظرت لتلك الصورة أن جدها يلومها بنظرته الصارمة الحادة التي تشبه نظرة أبيها على شيء لا تعرف ماهيته، ولذلك كانت تتجنب التطلع لها.

بعد أن خلعت حذائها وتوجهت لحجرة نومها. وضعت حقيبتها فوق سطح مكتبها ووضعت حقيبة روان في الأرض، ثم جلست على طرف السرير لكي تلتقط بضع ثوان من الراحة قبل أن تبدأ في إعداد طعام الغداء .

لم يتغير حُبّ سها لحجرة نومها حتى بعد أن أصبحت روان تشاركها فيها منذ أن جاءت للعالم من أربع سنوات.

موقع الحجرة في آخر المنزل جعلها أكثر حجرات الشقة هدوءًا، وأبعدها عن ضجيج الشارع وصوت القطار. كما أن كل شيء في الحجرة من اختيارها. هي التي طلبت أن يكون لون طلاء الحائط ورديًا، وهي التي وضعت سريرها الصغير بجوار الشبَّاك الحديدي حتى تكون قريبة من تيار الهواء.

وهي التي اختارت مكتبها الخشبي الصغير الذي يقع في يمين الحجرة والذي اشترته لها أمها كهدية في عيد ميلادها بعد أن دخلت الصف الأول الابتدائي، وكدست فوق سطحه الكتب المدرسية والكراسات وملأت أدراجه بالأعداد القديمة لمجلة

ميكي ومجلات الفن والموضة وبعض روايات نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس. وهي التي اختارت أماكن الصور والبراويز التي تزين الحائط، فعلّقَت صورة لأسماء الله الحسني منقوشة بالذهب تجاروها صورة كبيرة للكعبة المشرفة وتعلوها صورة لكورنيش الإسكندرية على الحائط المواجه لسريرها.

كما علقت صور لعمرو دياب وجاستن تمبرليك وبراد بيت فوق دولابها الأبيض الملتصق بالكنبة التي وضعت فوقها ألعابها القديمة بجوار ألعاب أختها.. ورغم أن سرير روان ضيق من مساحة الحجرة، إلا أن سها لم تشعر بأن وجود روان قلَّل من حريتها في الغرفة لأنها تقضي كل وقتها في حجرة المعيشة تلعب أمام جهاز الكمبيوتر وتشاهد أفلام الكارتون في التليفزيون .

* * *

دخلت سها المطبخ، ثم وضعت المريلة فوق قميص نومها. أخرجت إناء الفاصوليا الخضراء التي طهتها بالأمس من الثلاجة، ثم وضعتها فوق الرف. قامت بإخراج كيسين من الأرز من درج المطبخ وقامت بوضع الأرز في صحن كبير ثم وضعته في الحوض وفتحت عليه الصنبور. وبينما كانت تفرك الأرز بأصابعها سمعت صوت ارتطام الباب بعنف فأدركت أن شقيقها«تامر» وصلَ.

* * *

- 3 -

دخلَ تامر الشقة وهو في حالة مزاجية سيئة بسبب الجوع الذي قرص معدته وحوَّله إلى كائن هائج عدواني. توجه إلى المطبخ وهو يصدر همهمات عالية، ثم جرى على طبق السلطة الذي أعدته سها والتقط منه قطعة طماطم ثم ألقاها في جوفه.

حدجته سها بنظرة مستنكرة فاعترض "إيه أنا هموت من الجوع أنا مأكلتش حاجة من الصبح غير باكو بسكويت"، ثم سألها بلهجة متذمرة "معقول انتي لسه مخلصتيش الأكل لغاية دلوقتي؟ "

ردت عليه بانفعال:

-ماتتكلمش بالطريقة دي معايا أنا مش شغالة عندك. احمد ربنا إني بحضر لك الأكل مع إني تعبانة وجعانة أكتر منك، ده غير إني فضلت واقفة على رجلي نص ساعة في الشارع لأن الترام اتأخر.

لم يعبأ تامر باحتجاجها واقترب من البوتاجاز، ثم رفع الإناء لكي يطمئن على غدائه. عقد حاجبيه في ضيق وبدا عليه الغضب عندما وجد داخله الفاصوليا الخضراء محاطة بصلصة الطماطم وقِطَع اللحم. كانت الفاصوليا هي أكثر أكلة يكرهها تامر بعد الكوسة.

-أنا مش قلت لكم إمبارح إني النهاردة عايز أتغدى مكرونة اسباجتي وكفتة، هو انتم طرش ولا إيه؟.

-ماما مكانش عندها وقت تطبخ لك الأكل اللي إنت عايزه، وأنا كان عندي دروس كتير امبارح ومذاكرة .

-طب وأنا ذنبي إيه إن مفيش حد عنده وقت يطبخ في البيت ده؟

-طب بدل ما تقطمني ما تحاول تساعد في البيت واطبخ لنفسك الأكل اللي إنت عايزه.

-إنتي بتهزري مش كده؟

لم يكن كلام سها من قبيل المزاح. كانت تتمنى فعلا أن يتناسب نمو تامر العقلي مع نموه الجسدي ويبدأ في الاعتماد على نفسه في أبسط الأشياء .

فكيف يمكن بعد أن يبلغ الخامسة عشر من عمره يستمر في إلقاء ملابسه على الفراش وعلى الأرض ولا يضع الأطباق والأكواب التي يستعملها في حوض المطبخ وينسى شد السيفون وإغلاق نور حجرته بعد أن يخرج منها؟

لم تتوقف سها عن تأنيبه على تشبهه بتصرفات حيوانات الغابة والإلحاح عليه لكي يغير من نفسه ويصبح عضوا فاعلا في المنزل. وكان رد فعله المعتاد هو التظاهر بعدم الاستماع لها أو تحريك رأسه باستهانة، ولكنه هذه المرَّة لم يتجاهلها وإنما ردَّ عليها بغضب:

-إنتي بتساعدي ماما وبتعملي الأكل ده لنفسك وللبيت فبلاش كل شوية تتفضلي عليا مع إن إنتي لازم تحمدي ربنا لأني باكل طبيخك اللي مالوش طعم. أنا هستنى ماما وبابا لما يجييوا وهاخد منهم فلوس وهانزل أتغدي كفتة وكباب بره .

غادر تامر المطبخ بعد أن أخذ بضع أوراق من الخس الذي غسلته سها، ثم توجه لحجرة المعيشة وفتح التليفزيون ثم جلس أمامه وأخذ يلقى بالخس في جوفه ليسد به جوعه مؤقتا.

شعرت سها بعد مغادرة تامر للمطبخ برغبة في البكاء. قالت لنفسها هذا الولد لا يمكن أن يكون أخي الصغير تامر. هذا ليس تامر الذي كان يملأ البيت صراخًا ونحبيًا عندما كنت أتركه وأذهب للمدرسة. هذا ليس تامر الذي كان يفضِّل أن يبقى معي في الحجرة لنلعب الكوتشينة وبنك الحظ على اللعب في الشارع مع أصدقائه.

هذا ليس تامر الذي ادعى كثيرًا أنه كسر الأطباق الصيني بدلاً منّي، خوفًا عليَّ من عقاب والدي؟ ما الذي غيَّره بهذا الشكل العنيف؟ وهل ماتت شخصيته القديمة تمامًا؟ أم أنها مدفونة وتنتظر من يهيل عنها الأتربة ويعيد لها الحياة؟

بدأ تامر في التغير بعد دخوله المرحلة الإعدادية، حيث ازداد وزنه وامتلأ وجهه ونبت شاربه وتغلظ صوته، فأصبح يبدو أكبر من سها رغم أنه أصغر منها بعامين. وبالتدريج زحف التغيير على طريقته في الحركة التي اكتسبها من والده، فأخذ يقلد جديته في الكلام ونظرته الصارمة ومشيته البطيئة الواثقة.

ثم امتد التغيير لطباعه وبات يتصرف مثل أصدقائه الذين يحبون الاستهانة والاستخفاف بكل شيء حولهم، ولكي يثبت انتمائه لهم، أخذ يقلدهم في تدخين السجائر وإلقاء النكات السخيفة والجلوس بالساعات أمام ألعاب الفيديو والاستهانة بالدراسة. وازدادت طباعه سوءًا عندما دخل المرحلة الثانوية وانضم لمجموعة من الأولاد همهم الوحيد هو الهروب من المدرسة والتحرش بالبنات والوقوف على النواصي. ومع تولي سها مسئوليات المنزل، نسى تامر أنها أخته وأصبح ينظر لها على أنها خادمة مهمتها في الحياة هي توفير الطعام والملابس النظيفة له .

ولكنها مازلت تراه أخيها الصغير ومن الواجب عليه احترامها. ولذلك عندما دخل ليسألها عن سبب عدم ردّ أمه على التليفون ردَّت عليه بحدة:

-أنا مش هتكلم معاك تاني إلا لما تحسن أخلاقك .

ردّ عليها باستهانة:

-وأنا كمان مش عايز أتكلم معاكي.

ثم ترك المطبخ، وقبل أن يفكر في الاتصال بوالده رأى والدته تدخل عليه فاستجمع أفكاره وأعد نفسه للشكوى .

* * *

- 4 -

دخلت سلوى الشقة بخطوات بطيئة وهي تلهث بينما لمعت جبهتها البيضاء العريضة بحبات العرق التي تساقطت من رأسها المغطاة بطرحة مشجرة باللون الأزرق. كانت ترتدي(بلوفر) أبيض وجيبة سوداء واسعة غطت جسدها البدين المترهل .

كانت سلوى تكره النظر لنفسها في المرأة حتى لا تتطلع لملامحها التي ترك الإجهاد أثره عليها، وحتى لا تأكل قلبها الحسرة على الأيام التي كانت فيها مثالاً للجمال والرشاقة والجاذبية. لقد صارت بشرتها البيضاء باهتة، وعيناها الخضروان تحجرتا وفقدتا بريقهما القديم، حتى شفتيها الصغيرتين غزاهما التشقق والجفاف.

أكبر خطأ ارتكبته هو أنها استمعت لنصيحة أمها وحماتها وأفرطت في تناول الطعام عندما كانت حاملا في سها، اعتقادًا منها أنها تأكل لشخصين، وأنها ستعود لقوامها الرشيق بسهولة بعد الولادة، ولكن الدهون التي غزت جسدها أبت أن تتركه بل دعت المزيد من الدهون بعد أن حملت في تامر وروان.

بعد أن فشلت كل أنظمة التخسيس في إعادتها لجسدها القديم الجذاب، اضطرَّت أن تتقبل جسدها الجديد الثقيل، وأقنعت نفسها أن السمنة من العواقب الحتمية للحمل والولادة ورعاية الأطفال .

عندما قامت بحساب عدد الدروس الذي ستعطيها اليوم أزداد شعورها بالتعب .

لو كان الأمر بيدها لما حولت منزلها لمركز تعليمي، ولكن زوجها وحماتها لم يتركا لها اختيارًا آخر. لقد ظنت سلوى عندما تمَّ خطبتها لمحمود أنه صاحب شخصية قوية

مستقلة، ولكنها بعد أن تزوجته اكتشفت أن زوجته الحقيقية أمه عنايات. أما محمود فما هو إلا عروس ماريونيت تحركه عنايات كيفما تشاء وتجعله يتحدث بلسانها ويفكر بعقلها. ولذلك لم يكن غريبًا أن يعطيها إيرادات محل الأجهزة الكهربائية الذي يديره منذ أن توفى والده، ظنًا منه أن هذا التصرف نوعًا من البر والطاعة لها.

كانت سلوى ستتقبل أن تأخذ حماتها الإيرادات لو كانت تقسمها بصورة عادلة، ولكنها تصر على تقسيم الإيرادات بالتساوي بينه وبين شقيقه جمال مهندس الديكور الأعزب وشقيقته عبير التي لديها زوج ينفق عليها.

صُعقت سلوى عندما رأت حماتها تدخل عليها غاضبة وتتهمها بالسعي للإيقاع بين أولادها لأنها طلبت من محمود أن يتوقف عن إعطاء الإيرادات لها، وأن يقسمها بنفسه وأن يزيد من نسبته. حذرتها أنها لو تحدثت في موضوع الإيرادات مرَّة آخرى ستأمر محمود أن يطلقها ويرميها في الشارع .

وقد نفَّذ بالفعل محمود تهديد أمه ورمى على سلوى يمين الطلاق بعد أن رأها مصرة على الدفاع عن موقفها. ولم يعيدها لعصمته إلا بعد أن تدخل والدها للمصالحة بينهما وأمرها أن تقبل بالمصروف الذي يعطيه لها زوجها وألا تتدخل بينه وبين والدته.

نفذت سلوى أوامر والدها واستطاعت أن تدبر أمورها لفترة طويلة، ولكن مصاريف الأسرة زادت بعد أن أنجبت روان وكبرت سها وتامر وأصبحا في احتياج للدروس الخصوصية. ولم يعد نصيب محمود من الإيرادات ومرتب سلوى يكفي الأسرة حتى آخر الشهر. كان محمود يطلب منها أن تأخذ من أمه ما تريده من نقود إذا احتاجت لشراء أي شيء، ولكن سلوى لم تستطع أن تتحمل أن تمد يدها لحماتها فتجدها تنظر لها باستعلاء وتتهمها بالإسراف والبذخ.

و بعد أن تسبب شجارها مع محمود حول المصروف في طلاقهما للمرَّة الثانية اضطرت أن تلجأ للدروس الخصوصية التي حفظت كرامتها ولبَّت احتياجات

أولادها، ولكنها في نفس الوقت جعلت حماتها أكثر تربصا وشراسة في التعامل معها بعد أن لم تعد محتاجة لها. لذلك أصبحت تفكر ألف مرَّة قبل أن تنطق بأي كلمة أو تقوم بأي تصرُّف لأنها تعلم أن حماتها تريد استغلال أي خطأ تقع فيه حتى تشعل شجارًا بينها وبين محمود وتجعله يطلقها للمرَّة الأخيرة .

إنها تحارب بكل قوتها حتى تحافظ على منزلها من الانهيار ليس من أجل محمود ولكن من أجل أولادها .

* * *

دخلت سلوى حجرة المعيشة، فوجدت تامر يقف أمامها وعلى وجهه علامات الضيق ويهتف:

-كام مرة أقولكم إني بكره الفاصوليا وبرضه مصرّين تظبخوها وتقرفوني بيها.

أشارت سلوى له بسبابتها وهي تصيح مستنكرة:

-مش لازم كل الأكل اللي بعمله يجي على مزاجك. اتعلم إنك تاكل كل حاجة.

-لا أنا مش عايز أكل كل حاجة، أنا عايز الأكل اللي على مزاجي بس. اديني فلوس علشان أروح أشتري كباب وكفتة .

نظرت له سلوى بذهول:

-ايه ده؟ أنت بتستهبل؟ كباب وكفتة إيه، بلاش دلع لو عايز تاكل الفاصوليا أهلا وسهلا مش عايز روح أقلي لنفسك بيض بالبسطرمة.

-بس أنا معرفش أقلي بيض.

-اتعلم بدل لما تفضل قاعد على طول زي تنابلة السلطان، حاول مرة واحدة في حياتك تعتمد على نفسك .

اشتعل تامر غضبًا عندما رأى سها تطل من المطبخ وهي تبتسم وتهز رأسها مؤيدة لكلام والدته. كور قبضة يديه ثم نظر لها بشراسة، ثم مسح ذقنه بأصابعه وهو يتوعدها:

-بكرة أدفعك تمن الضحكة دي غالي قوي، وعلى فكرة أنا مش هعمل أكل لنفسي ولا هاكل فاصوليا، ولما بابا هييجي هاخد منه فلوس وهانزل اشتري الأكل على اللي مزاجي.

شعرت سلوى أن ابنها يهينها بإصراره على الاستخفاف بأوامرها، فاقتربت منه وأمسكت بقميصه وصاحت فيه:

-إنت باين عليك عايز تتربى من أول وجديد، بس كلامي برضه هو اللي هيمشي.

ردَّ عليها بوقاحة:

-لما بابا يجي هنشوف مين اللي كلامه هيمشي .

بعد أن تلفظ تامر بتلك الجملة، فُتِح باب الشقة ودخل والده فتهلل وجرى عليه مرحِّبًا بوصوله.

* * *

- 5 -

دخل محمود حجرة المعيشة بخطوات بطيئة هادئة. كان يرتدي معطفا بنيا وتحته قميص أبيض تقطعه خطوط رمادية طويلة، وبنطلون صار أسوده باهتا من فرط الغسيل. كانت تحيط بمحمود هيبة استمدها من طوله الفارع وجسده الضخم ونظرته الحادة الثاقبة التي تطل من وراء زجاج نظارته السميك. وكانت تلك الهيبة تجعله يتعامل بثقة وحزم مع كل الناس باستثناء أمه التي عندما يقف أمامها ينكمش ويرتجف ويعود طفلاً .

قضى محمود معظم حياته مساعدًا لوالده الحاج العيسوي عبد الستار في إدارة محل الأجهزة الكهربائية الذي يملكه في المنشية وتشرَّب منه أسرار المهنة وأسلوب العمل. وبعد أن تخرج في كلية التجارة لم يبحث عن عمل مكتبي، وظلَّ الذارع الأيمن لوالده في إدارة المحل حتى توفى، فتولى محمود الإدارة وكان يساعده ثلاثة بائعين. كانت الساعة الثالثة هي موعد راحته حيث يترك البائعين ويأتي لتناول الغداء في المنزل ثم يعود للمحل ويبقى فيه حتى الحادية عشر مساءً.

سرت رعدة في جسد سها وهي تسمع والدها يلقي عليهم السلام بصوته الأجش الرخيم. ردَّت عليه بصوت واهن مرتجف على عكس تامر الذي ردَّ عليه بحماس، ثم جرى عليه بلهفة، وترجاه أن يرحمه من الفاصوليا التي تريد والدته إجباره على تناولها .

نظر محمود لسلوى باستغراب وسألها:

-انتي ليه عايزاه ياكل على مزاجك، ما تسيبه ياكل اللي يعجبه؟

تركت سلوى العنان لغضبها وأخذت تشتكي من سوء أدب تامر وقله احترامه لها واستخفافه بأوامرها .

مط محمود شفتيه متظاهرا بأنه تأثر بكلامها. ثم دس يده في جيبه وأخرج منه سبعين جنيها وأعطاهم لتامر في صمت.

أجبرت شرارت الغضب التي خرجت من عيني سلوى تامر على الامتناع عن إبداء فرحه بحصوله على مبتغاه. فبعد أن أعطاه والده النقود وجَّه له نظرة تحذيرية ثم قال له بجدية مصطنعة وهو يشير لسلوى:

-لازم تحترم ماما، وإوعي تتحداها ولا تستهزئ بيها تاني، فاهم؟

أومأ برأسه في خضوع موافقًا على كلام والده.

ارتسمت على وجه سلوى ابتسامة ساخرة وقالت لمحمود:

-ياااه. ليه جيت على نفسك وطلبت منه يحترمني ما تسيبه يديني قلمين.

-يعني علشان أربيه صح يبقى لازم أجبره ياكل طبيخك وطبيخ بنتك الوحِش.

أخذ تامر يقهقه فرحًا بكلام والده وازداد ابتهاجه عندما رأى الإحباط يغطي وجه سها، وقام بصب غيظه على إحباطها بأن أخرج لها لسانه، فجزَّت على أسنانها ووقفت تنتظر رد فعل أمها التي صاحت في أبيها:

-بدل لما تأدب الولد بتهزأني قدامه. والله ونعم التربية.

-أنا مش بهزأك أنا بقول الحقيقة، انتي وبنتك مش بتعرفوا تطبخوا.

اصيبت سها بالذهول عندما رأت والدتها تقول لوالدها بصوت مختنق:

-متشكرة قوي على أدبك وذوقك.

ثم تركته وتوجهت لحجرة نومها .

انتهز تامر فرصة انتهاء الشجار بين والديه وفرَّ من المنزل بسرعة.

* * *

من المحبط أن تتابع مباراة وأنت تعلم مسبقًا أن الفريق الذي تشجعه سيخسرها.

وهذا كان حال سها وهي تشاهد المشادة بين أمها وأبيها. لقد كانت تعلم أن تامر سيتغدى اليوم ما يشتهيه لأن والدها لا يمكن أن يرفض طلبًا لقرة عينيه، ورغم ذلك ظلت تقنع نفسها أن والدتها قادرة على إيقاف تامر عند حده، ولكن رد فعلها المنهزم قتل ما تبقى من أمل لديها في عودة تامر الذي تعرفه وتحبه .

دخلت سها على أمها غرفة النوم وأخبرتها أنها غاضبة منها لأنها انسحبت مبكرًا، ولم تستكمل المعركة حتى النهاية. لقد كان بإمكانها أن تقف أمام الباب وتُصِرُّ على منع تامر من الخروج. وكان بإمكانها أن تأخذ منه النقود وتضربه. وكان بإمكانها أن تقول لوالدها الحقيقة .

أطرقت سلوى برأسها في يأس وقالت:

-ما أنا اتكلمت كتير والكلام مش بيجيب إلا الخناق وفي النهاية كلام أبوكي بيمشي.

-يعني خلاص استسلمتي.

ارتسمت على وجه سلوى ابتسامة مريرة وهمست:

-لازم استسلم علشان المركب تمشي .

سمعت سها والدها يصيح في الشقة " فين الاكل؟ "

فخرجت من الحجرة لكي تحضر له الغداء. وضعت له الطعام فوق مائدة السفرة فنظر لطبق الأرز الأبيض بضيق ثم تطلع إليها بغضب وصاح فيها:

-انتي مخك تخين ولا طرشة؟ مش قلت لك متعمليش رز. أنا عايز أغمس الفاصوليا بالعيش .

احتقن وجه سها وطأطأت رأسها في الأرض ثم انطلقت من عينيها شرارات قوية جعلت والدها يتنفض ويقول لها:

-اوعي تبصيلي كده تاني، عنيكي عاملة زي عينين البومة.

* * *

– 6 –

عندما كانت سها طفلة عمرها سبع سنوات، ذهبت لوالدتها في إحدى المرَّات وأخبرتها بلهجة جادة أنها تريد أن تسألها عن شيء مهم. بدا على والدتها الاهتمام وشجعتها أن تسأل عن ما تريده .

ارتعشت شفتيها واختلج وجهها ثم أخبرتها أنها تشك أن والدها ليس والدها الحقيقي. انطلقت سلوى في الضحك وهي تقول لـ سها "بطلي تتفرجي على أفلام قديمة ". ولم تفكِّر في السبب الذي جعل سها تشك في نسبها لأسرتها .

ورغم أن سها كبرت وأدركت أن شكوكها بلا سند منطقي إلا أن هناك جزء منها ظل غير مقتنع أنها ابنة محمود العيسوي. إنها ابنة سلوى عبد الفتاح، ولكنها بالتأكيد ليست ابنة محمود العيسوي لأنها لو كانت ابنته لما عاملها بهذه الطريقة.

لم تجد تفسيرًا لاستخدامه صيغة الأمر والنهي في الحديث معها طول الوقت ولتعمده مناداتها بكلمة " يا بت " طول الوقت. ولم تجد تفسيرًا للنشوة التي تبدو على وجهه وهو يشتمها ويضربها على أتفه خطأ يصدر منها .

إنها لا تستطيع أن تحذف من ذاكرتها تفاصيل أول مرَّة تعرضت فيها للضرب منه. كانت في ذلك الوقت مثل أي طفلة صغيرة لا تتحمل الابتعاد عن أمها، لذلك أخذت تبكي وتتوسل إليها لكي تتركها تذهب معها لابنه خالتها ولكن سلوى رفضت أن تأخذها معها وأصرت على أن تتركها في المنزل مع والدها وجدتها.

لم تعبأ سها بأوامر والدتها وظلت تجري ورائها وتهتف "خوديني معاكي يا ماما"، لم والدتها تسمع صوت صياحها وابتعدت عنها حتى ركبت التاكسي فعادت سها أدراجها وهي تبكي. وقبل أن تدخل العمارة تعثرت في حجر كبير ملقى على الأرض

فوقعت على وجهها، واصطدمت أنفها وشفتها بالأسفلت. عندما تتذكر الورم الذي أحدثته صفعة والدها في وجهها ترتعد خوفًا، وتتساءل: لماذا لم يرحمها والدها من الألم ولماذا يوقف الدم السائل من أنفها وترك وجهها يتورم حتى عادت والدتها ووضعت الكمادات على وجهها؟

تسلل لها شعورٌ قوي وصل لدرجة اليقين أنه يكرهها، ولكنها لم تستطع أن تتوصل لتفسيرٍ منطقي لتلك الكراهية التي خصَّها بها دونا عن ابنه المفضَّل تامر، وروان التي يدللها طول الوقت .

ظنت أنها لابد أن تعطيه أسبابًا كافية لكي يحبها. لذلك قرَّرت أن تعامله كما يعامل جدتها وأصبحت كلمات "حاضر ونعم وأوامرك" لا تفارق لسانها في الحديث معه والابتسامة لا تفارق وجهها في وجوده، ومع ذلك ظلَّ يعاملها ببرود وجفاء. زادت من اجتهادها في دراستها ظنًا منها أن تفوقها سيزيد من قدرها عنده وسيزيد من فخره بها، ولكنها فوجئت به ينظر لورقة الدرجات النهائية التي حصلت عليها بلامبالاة ثم يهنئها بفتور.

وعندما فشلت كل محاولاتها لتغيير سلوك والدها، قرَّرت أن تلجأ لأمها مجددا. وسألتها بصراحة "هو بابا بيكرهني ليه؟ "

بدت على وجه سلوى نفس الابتسامة الساخرة التي رسمتها عندما وجّهت لها هذا السؤال في طفولتها، ثم اتهمتها بالحساسية الزائدة وأكدت لها أن والدته يحبها مثلما يحب تامر وروان بالضبط، بل أكثر لأنها ابنته البكرية.

حكت لها كم كان سعيدًا بمجيئها للعالم، لدرجة أنه كان يترك المحل معظم الوقت لكي يطعمها بنفسه ويلاعبها ويراقبها وهي تخطو أولى خطواتها. وكان كلما وقع نظره على لعبة في أي محلٍ يشتريها من أجلها، حتى تحولت حجرتها إلى محل ألعاب .

لم تقتنع سها أن أمها صادقة إلا عندما شاهدت لأول مرَّة الصور التي جمعتها بوالدها في طفولتها. رأت الابتسامة الفخورة تكسو وجهه وهو يحملها بين ذارعيه

ويحتضنها. رأته وهو يطبع على جبينها قُبلة وهي تنفخ شموع تورتة عيد ميلادها الثالث، ورأته وهو يسند ظهرها وهي تجلس فوق دراجتها الصغيرة.

أخذت تفتش في صندوق ذاكرتها بحثًا عن مشهدٍ يؤكد أن هذه الصور كانت جزءًا من لحظات كانت هي بطلتها ولكنها فشلت. ما فائدة أن تشاهد صورًا لذكريات جميلة لا تتذكر أنها عاشتها؟

لقد تأكدت على الأقل أن والدها كان يحبها، ولكن هذا الحُب تبخَّر مع مرور الوقت بدون سبب واضح. أصرت أمها أن والدها لا يكرهها ولكنه يتشدد في معاملتها لأنه يخاف أن تفسد أخلاقها لو دللها .

-طب ليه مش خايف على تامر من الدلع؟

-بلاش تقارني نفسك بتامر إنتي بنت وهو ولد.

-يعني أنا علشان بنت يبقى لازم يهينني ويعاملني وحش ويشك في تصرفاتي وهو يدلعه ويسيبه يعمل اللي هو عايزه؟

-احمدي ربنا إنك مش مدلعة زي تامر وإلا كان زمانك بقيتي بليدة ومعندكيش إحساس بالمسئولية. بكره تعرفي إن الشدة في التربية نعمة.

-أنا مش عايزة بابا يدلعني زيه أنا عايزاه بس يعاملني كويس .

تلجَّم لسان سلوى وعجزت عن الاستمرار في الحديث عن فوائد التربية الصارمة. أطرقت برأسها في حزن ولم تجد سوى كلمة "معلش" لتواسي بها ابنتها.

* * *

بدأت سها تقتنع أن ليس هناك تفسير منطقي لكل تصرفات البشر، ولذلك عليها أن تتقبل والدها كما هو. تصورت أن علاقتها به ستخلو من التوتر إذا تجنبت ما يستفزه وأن شعورها بالألم من معاملته لها سيقل تدريجيًا بمرور الوقت.

ولكن ألمها لم يتضاءل وإنما تحوَّل لإحباط. ثم تحول الإحباط إلى مرارة وتحولت المرارة لورم خبيث تسلل لقلبها خفية حتى تملك منه ولوثه.

باتت تشعر بالانقباض والخوف في وجود أبيها وتشعر بالراحة النفسية والتحرُّر في غيابه. وبدأت تتمنى أن يطلِّق أمها للمرَّة الثالثة حتى ينفصلا، وتذهب للعيش في بيت جدها وتبتعد عنه للأبد .

رفضت أن تعترف بحقيقة شعورها أمام نفسها. من المؤكد أن الشيطان هو الذي جعلها تتخيل أن حياتها ستصبح أفضل وأجمل وأهدأ بدون والدها .

لا توجد فتاة طبيعية تكره الرجل الذي تسبَّب في وجودها في الحياة، الرجل الذي أطعمها ورباها وكساها. ولا يوجد رجل طبيعي يكره ابنته التي جاءت من صُلبه ويبخل عليها بكلمة طيبة أو ابتسامة دافئة .

رغم اعتقاد سها أنها نجحت في دفن شعورها إلا أن والدها رأى شرارات البغض تطل من عينيها كالأفعى عندما وبّخها بعد أن وضعت الأرز بدلاً من الخبز. بعد أن وضعت له سها الخبز قرَّرت أن تتفادى التواجد معه في نفس الغرفة .

دخلت لتصلي الظهر وبعد أن انتهت من الصلاة بكت وطلبت من الله أن يمحي هذا الشعور السام من قلبها قبل أن يقتلها. ولكن الأيام مرت ولم ينمحِ شعورها، فتصورت أن دعوتها لم تُستجاب لأنها لم تدرك أن الله يُلبّي الدعوات في الوقت المناسب

* * *

هناك أيام معينة تظل محفورة بأدق تفاصيلها في جدران الذاكرة كالوشم، وكلما يسترجعها المرء تبدو له حيَّة وطازجة كأنها حدثت بالأمس .

كان آخر يوم خميس في شهر فبراير أحد هذه الأيام في حياة سها . خرجت من المدرسة وهي سعيدة بنهاية الأسبوع وقدوم الأجازة، فاستقبلتها موجة من الأمطار

الغزيرة حولت شوارع الإسكندرية لبحيرة من المياة المخلوطة بالطين والقمامة. صارعت الأمطار والهواء البارد حتى وصلت لمدرسة روان بصعوبة. وبينما كانت واقفة معها وبعض الأطفال في انتظار انتهاء هطول الأمطار رنَّ جرس تليفونها المحمول. رأت رقم والدتها فتصورت أنها تتصل للاطمئنان عليها .

لم تضيع والدتها الوقت في السلام والتمهيد وإنما دخلت في الموضوع مباشرة وأخبرتها بصوت مبحوح أن هناك أشخاصًا من الإسعاف اتصلوا بها وأنبأوها أن والدها تعرض لحادث بسيارته بعد أن اصطدم في عمود نور.

لم تعطِ سها لأمها فرصة أن تكمل الحديث، وسألتها بفزع:

-هو بابا مات؟ مش كدة؟

-حرام عليكي بلاش تفولي عليه، بتوع الإسعاف طمونى إن إصابته مش خطيرة، هو في المستشفى وأنا رايحة له دلوقتي.

شدت سها أختها وراءها وأخذت تجري في الشارع بلا وعي. لم تشعر بمياه الأمطار التي بللت ملابسها وشعرها ووجهها، ولا بالطين الذي لطَّخ حذائها ولابجسدها الذي ارتعش وارتجف من برودة الهواء، ولا بقلبها الذي تسارعت نبضاته حتى كاد يتوقف من الخوف والهلع. لم يتركز تفكيرها إلا في شيءٍ واحدٍ فقط أن ترى والدها بأسرع ما يمكن.

انطلقت من عينيها وهي تجلس في التاكسي دموعًا ضاهت في غزارتها دموع السماء التي أغرقت الشارع. شكرت الله وهي تبكي لأنه شفاها من مرض الكراهية ودعته أن ينقذ والدها. أحسَّت أنها كانت حمقاء عندما تصوّرت أن حياتها ستتحسن عندما يختفي والدها منها، ولم تدرك الأمان الذي يعطيه بوجوده في الحياة إلا عندما لاح أمامها احتمال أن تفقده للأبد.

وصلت للمستشفى وعرفت من موظفة الاستقبال الطريق لحجرة والدها .

صعدت للدور الذي توجد فيه الحجرة، فوجدت والدتها وجدتها وعمها جمال يجلسون بالقرب من الحجرة في صمت والوجوم يغطي وجوههم. عمها جمال كان الوحيد الذي أستطاع أن يتغلب على كأبة الموقف فابتسم لرؤيتها وسارع في طمأنتها على صحة والدها، وأخبرها أن هناك عملية جراحية أجريت في ذراعه اليمني وأنهم في انتظاره حتى يفيق ليدخلوا لرؤيته والاطمئنان عليه.

بمجرَّد أن سمح الطبيب لهم بالدخول، سبقت سها أسرتها في الدخول لحجرة والدها. فتحت الباب في لهفة فرأته قابعًا في الفراش مغمض العينين وذراعه اليمنى يحيط بها الجبس، ووجهه متورم من الكدمات الحمراء المتناثرة فوق جفونه وعلى جبهته .

فتح عينيه بصعوبة والتفت ناحيتها وهتف باسمها بصوت واهن. جاهدت لكي لا تبكي وهي تقول له "سلامتك" فأومأ برأسه وبدت على وجهه ابتسامة امتنان. كان غريبًا بالنسبة لها أن ترى أبيها بكل جبروته وضخامته وقوته يرقد في الفراش ويعجز عن تحريك رأسه إلا بمساعدة الممرضة. كانت كل يوم تعد له بنفسها الأطعمة التي يحبها وتذهب بها إليه وتظل جالسة بجواره وترفض المغادرة إلا بعد انتهاء ساعات الزيارة .

بدا لها والدها خلال فترة إقامته في المستشفى شخصًا جديدًا، غير والدها الذي عاشت معه طوال عمرها. ولقد أحبَّت هذا الشخص لأنه كان وديعًا وهادئًا ولطيفًا، والأهم أنه أظهر حبه وامتنانه لها.

ظنت سها أن والدها أدرك تفاهة الأشياء التي كان يغضب من أجلها بعد أن رأى الموت بأم عينيه، وأدرك مدى حبها له بعد أن رأى كيف وقفت معه أثناء مرضه.

فبفضل هذا الحادث تغيرت علاقته معها للأفضل، وأصبح يبتسم لها ويحدثها برفق ويشكرها على كل شيء تقوم به من أجله. وهذا ما جعلها تتفاءل خيرًا وتأمل في موافقته على طلبها .

* * *

- 7 -

جلستْ سها على فراشها وأمسكت بالأوراق التي استلمتها من مكتب التنسيق و

أخذت تقرأ أسماء الكليات كأنها تتعرف عليها لأول مرة. دق قلبها بعنف عندما قرأت اسم كلية الألسن جامعة عين شمس. تدفق داخلها الإحساس بالنشوة و

شعرت أنها أقرب ما يكون للكلية، وهي تحدق في اسمها وتمر على الحروف المكونة لها بأصابعها، ولكن عندما تذكرت الترتيب المفترض أن تكتب به الرغبات تملكها الإحساس بالإحباط وقلة الحيلة، وأدركت أن المسافة بينها وبين الكلية أبعد من المسافة بين مِصر وأستراليا .

كانت من أيام قليلة تحلق في سماء السعادة بعد أن ظهرت نتيجتها وتأكدت أن التعب والسهر والأرق أثمروا عن المجموع الكبير الذي أرادته له.

ظنت أن المسافة بينها وبين الكلية أصبحت قريبة جدًا عندما رأت فرحة والدها بتفوقها. ولكن عندما أخبرته برغبتها في الالتحاق بكلية الألسن تلاشت الابتسامة من على وجهه وبدا عليه الامتعاض.

-يعني هي حبكت على عين شمس ما جامعة الإسكندرية مليانة كليات .

-بس كليات القمة الكويسة كلها في مصر والألسن مفيش زيها .

-ويعني لازم ألسن لو عايزة تدرسي انجليزي ادخلي آداب هنا أحسن.

حاولت أن تقضي على مخاوف أبيها فأخذت تشرح له القواعد الصارمة للمدينة الجامعية التي لا تسمح للطالبات بالعودة بعد التاسعة مساءً ولا تسمح لأحد

بزيارتهن، وأكدت له أنها ستعود للإسكندرية كل أسبوع هذا غير أيام الأجازات الرسمية والأعياد وبالتالي فإن فترة ابتعادها عن البيت لن تكون طويلة.

أخذ محمود يجول بعينيه بينها وبين شاشة التليفزيون ثم أسند ظهره على الكنبة وتجهم ثم غمغم

-أنا مش ممكن أقبل إنك تباتي بعيد عن البيت مهما كانت الأسباب .

تجرأت وطرحت عليه السؤال الذي حيرها طويلا:

-لو كان تامر هو اللي عايز يدخل كلية في مصر كنت هترفض؟

أبدى استغرابه من سؤالها الذي اعتبره غريبًا، فكيف للبنت أن تقارن نفسها بشقيقها، ولكنها أصرت على مجادلته:

-هو تامر معصوم من الغلط وأنا بس اللي ممكن أغلط؟

-لا بس غلطه مش هيأثر على مستقبله ولا على سمعة العيلة.

-ازاي يعني هو لو أدمن المخدرات مثلا ده مش هيأثر على مستقبله وسمعة العيلة؟

لم يكن لديه الاستعداد لمجادلتها فتأفف وهو يردُّ عليها بنفاذ صبر:

-بقولك إيه، كفاية عناد ولماضة.

ضرب قبضة يديه على المنضدة كأنه قاض يمسك بمطرقته الخشبية قبل أن يعلن قرار هيئة المحكمة، ثم ضغط على الحروف جيّدًا وهو يقول لها بطريقة جازمة "مفيش دخول كليات في مصر".

أخذت سها تحدِّق في أسماء الكليات المكتوبة في الاستمارة، ثم قالت لنفسها بغيظ: سأصرعلى تنفيذ رغبتي الألسن كرغبة أولى، وإذا أصر أبي على منعي سأترك له المنزل وسأبحث عن عملٍ وأنفق على نفسي أثناء الدراسة .

لا يمكن أن أدع مجهود عامين يذهب هباءً بهذه السهولة، ولا يمكن أن أدع شخصًا متشددًا ومتحكمًا يقف عقبة في طريقي حتى لو كان هذا الشخص هو أبي. سأتحداه وسألتحق بالكلية التي اجتهدت من أجل دخولها وسأصير مترجمة .

أحسَّت بحماس مفاجيء وهي تمسك بالقلم الأزرق الجاف لكي تكتب رغبتها الحقيقية، ولكن قبل أن تكتب أول حرف ارتعشت أصابعها فهرب القلم منها ووقع على الأرض. وبينما كانت تنحني لالتقاطه من الأرض أخذت تتخيل مستقبلها لو تحدت والدها والتحقت بكلية الألسن .

تذكرت أنها لن تستطيع الإقامة في المدينة الجامعية إلا بموافقة كتابية من ولي أمرها. فأين ستقيم؟ تؤجر شقة مفروشة.

الإيجارات في القاهرة مرتفعة وتكاليف الحياة نفسها مرتفعة، فكيف ستتمكن من دفع الإيجار والإنفاق على نفسها؟ فلتقتصد وتنفق بحرص شديد.. وكيف ستعثر على وظيفة وهي لا تملك سوى شهادة الثانوية العامة؟ كثيرون يعملون بالثانوية العامة، ولكن ماذا ستعمل عاملة في مصنع، بائعة في محل، خادمة؟ ثم كيف ستحد الوقت للجمع بين الدراسة والعمل. كلية الألسن ليست سهلة وتتطلب تفرُّغًا كاملاً وإلا ستعرِّض نفسها للرسوب .

أصيبت بحالة هلع عندما تخيلت نفسها تجلس بمفردها في شقة مفروشة حقيرة في القاهرة تتضور جوعًا وتشعر بالوحدة والخوف، وتمشي في شوارعها المزدحمة فتعجز عن التملص من الكتل البشرية التي تحيط بها من كل جانب فتدوسها وتطحن عظامها. أدركت أن تفكيرها في التمرد ما هو إلا حلاوة روح، وأخذت تصب جام غضبها على نفسها.

استيقظي يا سها من أحلام اليقظة التي أفسدت عقلك وجعلتك عاجزة عن التفرقة بين الواقع والحُلم وبين الممكن والمستحيل. أنتِ تعلمين أنكِ لا تملكين القدرة على الثورة، وحتى لو نجحتْ ثورتكِ لن تتمكني أبدًا من تحطيم كل قيودكِ، لأن لا إنسان يعيش بلا قيود. ليس بإمكانكِ تغيير أي شيء. ليس بإمكانكِ تغيير

جنسكِ وبلدكِ وأهلكِ ومنزلكِ . لقد تم اتخاذ القرار وقُضى الأمر. الأسهل لك أن تودعي حُلمك وتتعايشي مع الأمر الواقع، بدلاً من أن تتركي نفسكِ فريسة للمعاناة والعذاب، وفي النهاية ستضطرين لقبول الواقع رغمًا عنكِ.

أخذت سها القلم من الأرض ووضعته بين أصبعيها جيدًا. احتقن وجهها وشعرت بغصة في حلقها وهي تكتب "كلية الأداب جامعة الإسكندرية كرغبة أولى."

* * *

- 8 -

استيقظت سها يوم(السبت 17 سبتمبر) في الساعة الثامنة صباحًا وهي تشعر بالحماس لاختبار أول يوم لها في الكلية. شعرت بالارتياح عندما فتحت الدولاب وتطلعت لجيبة المدرسة الزرقاء الصوف والقميص الأبيض والجاكيت الكحلي، وأدركت أنها لن ترتدي هذه الملابس بعد اليوم.

ارتدت(تي شيرت) أسود تتوسطه صورة مطبوعة لفتاة شقراء وبنطلون جينز أزرق داكن. وزّعَت البودرة على وجنتيها وجبهتها، ثم غطت شفتيها بأحمر شفاه بلون الكاكاو. أخذت تتأمل وجهها الأبيض المستدير وعينيها الخضراوين اللتين بدتا أكثر اتساعا وجمالاً بدون النظارة الطبية السميكة، فارتسمت على وجهها ابتسامة واثقة.

والدتها كانت محقة عندما أصرت على خضوعها لعملية تصحيح الإبصار التي تُجرى بالليزر في محاولة لتحسين حالتها النفسية التي وصلت للحضيض بسبب حسرتها على عدم التحاقها بكلية الألسن، كما اشترت لها ملابس جديدة وذهبت بها للكوافير لكي يغير لها تسريحة شعرها حتى تشجعها على استقبال الدراسة في كلية الأداب بتفاؤل واستشبار .

رغم تغير المرحلة الدراسية التي تمر بها سها، إلا أن القيود التي فرضها عليها أهلها مازلت على حالها. والدها ذهب بنفسه ليتأكد من جدول محاضراتها ومن المؤكد أنه نقلها لجدتها حتى تقوم بدروها المعتاد في التأكد من عودتها للمنزل في الموعد المحدد. ورغم ذلك فهي سعيدة بالالتحاق بالكلية، لأن سقف الحرية في الجامعة أكثر ارتفاعًا من المدرسة. لا وجود لطابور الصباح ولا الزي المدرسي ولا جداول الغياب ولا المدرسات المتوحشات وعصاهن الغليظة التي تهاجم أي فتاة تجرؤ على

مخالفة أوامرهن. وعلى الرغم من رغبتها في الاستمتاع بتلك المساحة الواسعة نسبيًا من الحرية، إلا أنها قرَّرت أن تستمر في الانضمام لصف الطالبات المجتهدات الجادات وتنتظم في حضور المحاضرات. إنها تشعر أن التفوق هو هويتها الوحيدة، وإن تخلت عنه ستفقد نفسها. صحيح أنها لم تقطف ثمرته في المرَّة الأولى، ولكنه ربما يمهد لها هذه المرَّة طريقًا جديدًا يوصلها لتحقيق أحلامها.

* * *

اضطرت سها أن تركب عربة الرجال حتى تلحق بالترام قبل أن يغادر المحطة. استطاعت بصعوبة أن تجد مكانًا تقف فيه بجوار الشباك في العربة التي لم يكن فيها موضع لقدم. وبينما كانت تشاهد من الشباك الناس والشوارع والأبنية لفتت انتباهها ضحكات الفتاة التي كانت تقف أمامها. تطلعت لها فرأت شابًا يقف بجوارها ويمسك ببالطو أبيض ويتبادل معها الحديث بصوتٍ منخفض، ثم رأتهما يضربان كفيهما ببعض ويقهقهان سويا .

اندهشت من جرأة الفتاة وطريقتها في الحديث مع زملها كأنه صديقتها الحميمة، ثم تذكرت أنها ابتداءً من اليوم سيكون لها زملاء في الكلية تتقاسم معهم مكان الدراسة والمحاضرات فتلوَّن وجهها بحمرة الخجل .

لقد رباها والديها على أن اختلاط البنات بالشباب شرٌّ لابد من اجتنابه، ولذلك أدخلاها مدارس للبنات، وكانا يمنعاها من النزول مع تامر للشارع حتى لا تختلط بأصدقائه .

عندما كانت تقف في الشباك لتشاهد أصحاب تامر وهم يلعبون معه الكرة بقمصان متسخة ووجوه يغطيها غبار الشارع ويصيحون ويتعاركون على أتفه الأسباب، كانت تنظر لهم بتقزز وتراهم مجموعة من الحيوانات المتوحشة الصغيرة .

تحول شعورها تجاههم من الاشمئزاز إلى الخوف والاحتقار عندما كبرت، وبدأت ترى نظراتهم الجائعة المحرومة التي تفحص جسدها وتلتهمه عن بعد وتسمع منهم كلمات خادشة لحيائها، وصاحب تحرشهم بها تحذيرات من أمها بالتجاهل التام لهم وعدم الرد على معاكستهم، وعدم التواجد في أي مكان يتواجد فيه أولاد وعدم مصادقة أي فتاة تقف مع ولد.

كانت تشعر بالارتياح أن هناك حواجز تفصلها عن الولد وتحميها منه، ورغم أنها تشعر بانجذاب غريزي نحوه لا تملك له دفعًا إلا إنها تكره زهوه الفارغ وغروره ورغبته في الأخذ والاستحواذ والامتلاك وبخله في العطاء .

كانت كذلك تحسده على الحرية الغير مشروطة والثقة اللا محدودة التي منحها له المجتمع وتتمني لو كانت مثله حتى تتحرر من السلاسل الحديدية التي تكبلها، وتشعر أنها إنسان كامل عاقل مسئول عن نفسه ومن حقه أن يعيش حياته بالطريقة التي تحلو له .

واليوم هي مضطرة للتواجد في نفس المكان مع هذا الكائن الذي يثير غيرتها وخوفها وفضولها. ولكنها لا تنوي أن تجرب اختراق القواعد والحدود التي تربَّت عليها. ستحافظ على بقاء الحواجز حتى تريح نفسها من المتاعب وتغلق الطريق الذي يمكن أن يتسلل منه الشيطان .

* * *

اتسعت عينا«نهلة السعدني» من الدهشة، عندما عرفت المجموع الذي حصلت عليه سها في الثانوية العامة:

-معقول(97%) وتدخلي أداب؟ ليه مدخلتيش كلية من كليات القمة؟

خوف سها من هذا السؤال هو الذي جعلها تتردد في الإفصاح عن مجموعها. نظرت للأرض وبدا عليها الحزن، ثم تساءلت: إذا كان سيأتي اليوم الذي لا تشعر

بوخز في قلبها عندما تتذكر مجموعها الكبير أم محكوم عليها أن يأتي من يذكرها بما تريد أن تنساه؟

مالت نهلة برأسها للأمام وهمست لسها وعلى وجهها ابتسامة غامضة:

-أنا فهمت السبب، انتي كنتي عايزه تدخلي كلية في مصر وأهلك ما رضيوش .

هزت سها رأسها في عدم تصديق وهي تسألها:

-عرفتي إزاي؟

أجابت عليها وهي تدراي خصلات شعرها تحت غطاء رأسها الأحمر:

-انتي زي أخويا حازم. كان عايز يدخل طب القاهرة لأنه كان شايف الدراسة فيها أحسن من طب اسكندرية، بس ماما وبابا رفضوا وأصروا على إنه يفضل في اسكندرية لأنهم مش عايزينه يبعد عنهم، ومعندكيش فكرة كان زعلان قد إيه .

شعرت سها بالاستغراب أن هناك أولاد يعاملهم أهلهم كأنهم بنات ثم قالت لنهلة:

-لا أنا عندي فكرة كويس أوي .

تشجعت سها على الحديث مع نهلة لأنها كانت الفتاة الوحيدة التي تجلس بمفردها في المدرج. شعرت بارتياح سريع لها عندما استقبلت دعوتها للجلوس بجوارها بابتسامة دافئة مرحبة. أحست بألفة في وجهها الخمري الصغير وعينيها السوداوين الواسعتين وجسدها الضئيل الذي يبدو كجسد طفلة في الابتدائية. وازداد إحساسها بالقرب النفسي منها عندما عرفت أن كلية الأداب لم تكن رغبتها الأولى .

-تصوري إن واحد في المية بس فصلتني عن كلية الصيدلة أنا جبت(94 %) وصيدلة أخذت(95 %) يعني تعبي في السنتين اللي فاتوا راح على الفاضي .

-معقول انتي كنتي علمي؟ طب ليه مدخلتيش كلية العلوم؟

-لقيت مستقبل أداب انجليزي أحسن من مستقبل علوم لأن الانجليزي بيفتح شغل في وظائف كتير.

حاولت نهلة أن تخفف عن سها الإحساس بالحسرة بأن قالت لها:

-على فكرة مفيش فرق كبير بين أداب انجليزي وألسن، لأننا برضه هندرس ترجمة وبعدين كل الكليات محصلة بعضها، لأن أصلا مفيش حد بيشتغل في مجاله. واحنا بنات يعني مسيرنا في الأخر هو الجواز .

بدا الامتعاض على وجه سها من كلام نهلة فواصلت الدفاع عن رأيها :

-ما تبصليش كده أنا شفت بنات كتير في عيلتي كانوا فاكرين نفسهم هيقطعوا الشغل أول ما يتخرجوا. وبعدين لما اتخرجوا وجالهم العريس واتجوزوا قعدوا في البيت .

قبل أن تبدأ سها في شرح أهمية العمل بالنسبة للفتاة وجدت نهلة تشير بأصابعها بعيدًا وتهتف " الدكتور وصل "

التفتت سها ناحية باب المدرج، فرأت رجلاً طويلاً يرتدي نظارة طبية وبدلة زرقاء ينزل على سلالم المدرج بسرعة، ممسكا بحقيبة سوداء، ثم توجه ناحية المكتب الواقع في مقدمة المدرج .

* * *

كانت سها تمشي باتجاه الكلية عندما رأت نهلة تقف أمام الكافتيريا وسط مجموعة من الطلبة مكونة من ثلاثة فتيات وشابين يتبادلون الأحاديث والابتسامات.

لمحتها نهلة وهي تعبر بجوارها فهتفت باسمها وأشارت لها حتى تقترب.. مشت سها باتجاه المجموعة بخطوات بطيئة مترددة والخجل يكسو وجهها. تسارعت دقات

قلبها وهي تبسط يدها اليمنى لكي تسلم على الشابين. لم تجرؤ على أن ترفع رأسها وتنظر لوجهيهما .

أخذت تمسح جبينها وتبلع ريقها وهي ترى البنات يتبادلن مع الشابين التعليقات الساخرة على طريقة أحد الأساتذة الغريبة في نطق اللغة الانجليزية. من المؤكد أنهم يلاحظون اضطرابها واحمرار وجهها ويضحكون عليها في سرهم ويقولون من هذه الفتاة القادمة من عصر الحرملك؟

لم تستطع احتمال تلك الوقفة المحرجة، فاستأذنت منهم متعللة برغبتها في دخول المدرج. ولكن نهلة تركتهم ورافقتها.

أخذت تحدِّق فيها وعلى وجهها ابتسامة ساخرة ثم سألتها:

-هو انتي ليه كنتي مكسوفة وانتي بتسلمي على الشلة؟

ارتبكت قبل أن تهرب من الإجابة بأن طرحت عليها سؤالاً:

-هما الناس دول أصحابك؟

-انتي برضه ماردتيش على سؤالي ولو إني عرفت الإجابة .

صمتت نهلة للحظات لكي تثير اهتمام سها لمعرفة الإجابة ثم همست:

-انتي أكيد كنتي في مدرسة بنات .

انعقد لسانها عن الكلام وتساءلت كيف تتمكن نهلة أن تعرف عنها كل شيء بسرعة قبل أن تخبرها به؟ هل تعابير وجهها تفضحها وتكشف عن دواخلها بهذه السهولة؟ أم أن نهلة فتاة لماحة وقوية الملاحظة؟

وفرت نهلة على سها عناء شرح موقفها بأن قالت لها:

-أنا بحترم البنات اللي زيك لأن مفيش منهم كتير. أنا كنت في مدرسة مختلطة بس مش بتعامل مع الأولاد إلا في حدود الزمالة.مش لازم تخافي أو تتكسفي منهم لأن مش كلهم زي ما انتي فاكرة .

لم تقتنع سها بكلام نهلة بسهولة. لقد كانت تظن أن الزمالة البريئة ما هي إلا قناع لإخفاء رغبة الولد في الاقتراب من البنت. ومع ذلك كانت تجاري نهلة أحيانا وتشاركها في الوقوف مع تجمعات تضم أولاد وبنات. ولكنها ظلت تقف متصلبة كالتمثال، وتراقب حديثهم مع نهلة وباقي البنات في صمت في انتظار أن يصدر منهم كلمة أو نظرة أو تصرف يثبت صحة شكوكها. ورغم أنها اكتشفت صحة كلام نهلة عندما رأت الأولاد يعاملونها وزميلاتها بكل أدب واحترام ويحافظون على حدودهم معها إلا أنها فضلت أن تبقى على موقعها المريح كضيفة صامتة بين المجموعة .

* * *

-9-

توقفت سها عن الكتابة وراء الدكتور في المحاضرة، وأخذت تتطلع لصديقتها نهلة بفضول وتتساءل ماذا الذي جرى لها؟

كلما تطرح على نهلة هذا السؤال تهز رأسها بالنفي وتقول " مفيش حاجة "، ولكنها واثقة إن " في حاجة " وأن نهلة لم تعد الفتاة المرحة الاجتماعية التي عرفتها على مدار ثلاثة أشهر.

إنها تأتي للكلية كل يوم وتجلس في المدرج، ولكنها لا تتابع المُحاضر ولا تكتب ما يقوله ولا تتبادل معها الحديث ولا تلقي قفشاتها المعتادة. وإنما تجلس في صمت وتحدق في سقف المدرج، وتسند وجهها بكفها وتعقد حاجبها الرفيعين كأنها تريد التوصل لحل لمشاكل الشرق الأوسط .

ظنت سها أن هناك سببًا واحدًا فقط يمكن أن يدعو نهلة لإخفاء ما يضايقها عنها، وهو أنها تشعر بالغيرة منها لأنها حصلت على تقدير جيد جدًا، بينما حصلت هي على تقدير جيد. لقد حدث معها هذا الموقف من قبل أيام المدرسة، إذ ابتعدت عنها صديقتها مريم بعد حصلت على مجموع أعلى منها في الشهادة الإعدادية .

انتظرت سها انتهاء المحاضرة ثم اقتربت من نهلة وهمست في أذنيها:

-أنا عارفة إيه اللي مضايقك اليومين دول؟

امتقع وجه نهلة وبدا عليها الفزع، فقالت لها سها بلهجة حنونة:

-انتي زعلانة لأنك مجبتيش جيد جدا في الترم الأول. إن شاء الله تعوضيها في الترم اللي جاي.

تحوَّل فزع نهلة إلى ضحكات متوترة:

-انتي دماغك راحت لبعيد أوي. أنا مش مضايقة من تقديري، بس أنا عندي مشكلة شخصية مش هقدر أقولك عليها دلوقتي.

ظلت سها مقتنعة أنَّ نهلة تكذب عليها، وأنها لم تعد ترغب في أن تكون صديقتها، حين رأتها تسرع في العودة للمنزل بعد انتهاء المحاضرات بعد أن كانت تحب الوقوف معها.

بعد أسبوع اكتشفت أن ظنها لم يكن في محله عندما جذبتها نهلة من يدها، وطلبت منها بلهجة جادة أن تأتي للجلوس معها في كافتيريا الكلية لأنها تريد أن تتحدث معها في أمر مهم. أخذت نهلة ترشف عصير المانجو وتتطلع لسها بعينين متوترتين خائفتين، ثم تنظر للجالسين في الكافتيريا بارتياب. نفذ مخزون سها من الصبر سريعًا ولم تطق الانتظار لمدة أطول فصاحت في نهلة حتى تخرج عن صمتها .

عضت نهلة على شفتيها وتطلعت للشجرة المجاورة للكافتيريا وهي تفكر في طريقة لتوصيل ما تريده. شدت غطاء رأسها في ضيق ثم مالت نحو سها وهمست في أذنيها بالقصة الكاملة .

أخبرتْها أن هناك شابًا كان يقف بجوارها أكثر من مرَّة في محطة(الترام)، وحاول أن يتحدث معها عدة مرَّات متعللا بأنه يسكن معها في نفس الشارع، ولكنها لم تعِره اهتمامًا. ورغم ذلك ظَّل ينتظر وصولها للمحطة ويتطلع فيها طول الوقت. وعندما يأس من تجاوبها معه اقترب منها وأخبرها أنه في السنة الثانية في كلية التجارة، وأقسم لها أن غرضه من الحديث معها شريف، لأن أهله يريدونه أن يتزوج وهو صغير. ولكنه يرغب قبل أن يرتبط بها أن يجلس معها ويتعرف عليها حتى يتأكد أنها الفتاة المناسبة له، ولذلك دعاها لمقابلته في أي مكان عام. ولكنها رفضت لأنها لا تشعر بالارتياح لمقابلته بمفردها .

ضحكت سها عندما رأت وجه نهلة يتورد وهي تتحدث عن هذا الشاب. تساءلت كيف لم تستطيع أن تفهم أن الشرود والصمت والاستغراق الطويل في التفكير لا يمكن إلا أن يدل إلا على شيء واحد؟ ربما لأنها لم تجرب هذا الشعور من قبل ولذلك لم تستطع التعرف عليه عندما رأته على وجه صديقتها .

سكتت نهلة عن الكلام ثم بدا عليها الحرَج وهي تُخبر سها أن هذا الشاب اقترح عليها أن تحضر صديقتها معها للمقهى الذي سيتقابلان فيه، وهو سيحضر معه أحد أصدقائه حتى تبدو جلسته معها كأنها جلسة عادية بين طلبة يراجعون دروسهم معًا .

فهمت سها السبب الذي دعا نهلة لإفشاء سرها، فاحتدت عليها:

-عايزاني أقعد مع ولد غريب؟

-أرجوكي بس وطي صوتك علشان أنا مش عايزه فضايح وافهمي كلامي كويس. أنا مطلبتش منك تقعدي مع حد، انتي هتيجيبي معاكي الكتب والكراريس يوم الخميس وتقعدي تذاكري عادي. والولد اللي جاي ده مش هيتكلم معاكي خالص لأن هو كمان هيقعد يذاكر، واحنا هنقعد جنبكم نتكلم عادي، فيها حاجة دي؟

-أيوة فيها إن القعدة دي هتبقى محرجة جدًا بالنسبة لي .

-صدقيني أنا محرجة اكتر منك وعلشان كده مش عايزه أقابله لوحدي. وأنا عايزاكي تيجي معايا علشان تحرسيني وتديني أمان لأني قلقانة من المقابلة دي .

-طب ليه متطلبيش الخدمة دي من واحدة تانية من صحاباتك وكلهم أجرأ مني ومتعودين يقعدوا مع شباب؟

-لأنك الوحيدة اللي بثق فيها وبطمن لها، لكن البنات التانيين كلهم نمامين، لو عرضت على أي واحدة منهم العرض ده ممكن تفضحني في الكلية كلها .

لم تستطع سها إخفاء سرورها بثقة نهلة فيها. لقد أرادت أن تعرف فقط سِرّ تغيُّرها، فلم تكتف بإفشاء السر، وإنما عرضت عليها أن تكون حارسة مخزن الأسرار.. فهل توافق؟ إنها لم تنعم بامتياز أن تكون الصديقة الحميمة من قبل .

حتى سارة الشناوي التي تعتبر صديقتها الوحيدة من أيام المدرسة لا تعد بالنسبة لها أكثر من رفيقة تقضي معها وقت فراغها ولا تعرف عن حياتها إلا القليل .

إنها تريد أن تشعر بدفء الصداقة الحقيقية، وتريد أن تكون محل ثقة صديقتها، ولكن هل هي قادرة على دفع ثمن الحصول على لقب الصديقة(الأنتيم)؟

عندما رأتها نهلة مترددة أخبرتها أنها ستعطيها مُهلة للتفكير في الموضوع اليوم وستنتظر ردها غدًا، وقبل أن تودعها أكدت لها أن هذا الشاب محترم وصادق في كلامه وأن تلك الجلسة لن تُسبِّب لها أي مشاكل .

قضت سها باقي اليوم تفكر في نهلة. هل قالت الحقيقة، وهل قالت كل الحقيقة؟ وهل يعقل أن فتاة مثلها اعتادت على الاختلاط بالأولاد طول حياتها لم تخرج مع ولد بمفردها من قبل؟ ربما هذه الدعوة تخبىء وراءها فخًّا تريد إيقاعها فيه؟ استغفر الله العظيم. كيف تشك في صديقتها رغم أنها لم تراها تتخطى حدود الأدب في حديثها مع زملائها، ثم أنها لو كانت فعلا متحررة أو منحلة لكانت وافقت على مقابلة هذا الشاب بمفردها .

ولكن بافتراض أنها صادقة، فهل يمكن أن تخرق القواعد والمبادىء التي سارت عليها طول حياتها من أجلها؟ عندما حاولت أن تتخيل ماذا سيحدث لو وافقت على طلبها سرت في بدنها قشعريرة الخوف .

إذا كانت تريد أن تكون صديقة نهلة يجب أن تصدقها، ولكن يجب أيضًا أن تكون صادقة معها وتخبرها بالحقيقة وهو أنَّ ما تمر به وهمًا جميلاً في البداية، ولكن نهايته ستكون مؤلمة حتمًا .

إنها لا تقول ذلك بناءعلى تجربة عاطفية مرت بها، ولكن بناءً على التجارب التي رأتها والنصائح التي سمعتها من أمها مرارًا وتكرارًا حتى التصقت بذهنها.

الولد ينظر للبنت كأنها زهرة جميلة ويسعى لقطفها ويستمتع باستنشاقها حتى تذبل فيرميها على الأرض ويدوسها بأقدامه، ثم يسعى وراء زهرة آخرى أكثر جمالاً منها .

كلام الحُبِّ والعشق هو مجرد طُعم يستخدمه الولد لاصطياد الفتاة التي يريدها..الحُبّ الذي يتحدثون عنه في الأفلام والأغاني بين العشاق ليس أكثر من

غطاءٍ برَّاقٍ لرغبات مُحرَّمَة واللحاق به تضييع للوقت والعمر. أما الحُبُّ الحقيقي فلا يحدث إلا بين المتزوجين ولا ينشأ إلا بعد طول العِشرة والتعود.

صدّقَت سها نصائح أمها بعد أن رأت بنفسها زميلاتها المتدينات يستهزئن ويشككن في أخلاق البنات اللواتي يقفن مع شباب مدارس البنين المجاورة، وحتى زميلاتها المحُافِظات اللواتي اكتفين بالحُبِّ عن بعد، كانت تراهن دائمًا في حالة معاناة وحزن معظم الوقت بدون سبب.

لذلك اكتفت بقِصص الحُبِّ المثيرة التي تؤلفها في خيالهاويقوم ببطولتها فارس أحلامها الحنون الطيب الرومانسي الوسيم، رغم انها كانت تدرك أن هذا الفارس المثالي لا وجود له سوى في الأساطير، أما الرجل الحقيقي فهو ديكتاتور مستبد عنيد، مثل والدها، أو مستهتر مهمل أفسده الدلال مثل شقيقها تامر، أو شهواني قليل التربية مثل الأولاد الذين يعاكسونها في الشارع.

نهلة تقول انها لن تضطر للحديث مع صديق الشاب الذي تنوي أن تقابله، ولكن ماذا لو ظنَّ انها جاءت للتعرف عليه؟

هل يمكن أن تصده بعد أن وافقت على الجلوس معه بمحض إرادتها؟

وماذا ستفعل مع والدها الذي لا يسمح لها بالخروج إلا بمفردها من أجل الذهاب للكلية، ويعرف جيّدًا مواعيد انتهاء محاضرتها؟

هل من السهل أن يصدق أي قِصة ستخترعها؟ وحتى لو صدقها وسمح لها بالخروج وذهبت مع نهلة إلى هذه الجلسة، مذا ستفعل إذا رأها أحد أقاربها أو معارفها تجلس في المقهى مع هذين الشابين؟

ولماذ تُقدِم على هذه المخاطرة التي على أقل تقدير ستعرضها للإحراج لا قِبل لها به، وعلى أكثر تقدير ستعرضها لعقاب لا تعلم مدى قسوته من اجل فتاة تعرّفَت عليها من شهور قليلة، ومن الممكن أن تختفي من حياتها في أي وقت؟

بعد تفكيرٍ طويل قرَّرَت سها ألا تكتفي فقط برفض طلب نهلة، ولكن ستحذرها من التواصل مع هذا الشاب المخادع لأن قصده لو كان شريفًا لتقدم لها مباشرة بدلاً من أن يسعى لمقابلتها من وراء أهلها

استطاعت نهلة أن تستنتج رفض سها عندما رأتها تجلس بجوارها في المدرج وهي متجهمة، أعفتها من الكلام وقالت لها بنبرة محبطة:

-أنا كنت عارفة إنك هترفضي، وعارفة كمان إنك شكيتي في أخلاقي. بس أقسم بالله إني عمري ما خرجت مع شاب غريب قبل كدة. وعموما أنا خلاص مش ناوية أقابل الولد ده طالما مش هتيجي معايا.

أحسّت سها بالحرج من كلام نهلة، فتراجعت عن الكلام الصريح الذي أرادت أن تقوله لها وطأطأت رأسها وهمست بنبرة معتذرة:

-أبدا يا نهلة انا عمري ما شكيت فيكي، بس انتي عارفة إن أهلي متشددين معايا وأنا ماعنديش عذر مقنع أقدر أبرر بيه خروجي قدامهم.

بدا على نهلة عد الاقتناع بكلامها ومع ذلك أومأت برأسها وقالت لها بنرة يائسة:

-خلاص انسي الموضوع.

كانت سها تشعر بالذنب كلما نظرت لنهلة ورأت الشجن والإحباط يشعان من عينيها، ورغم أنها لم تفتح معها موضوع المقابلة مجدّدا، لكن استمرار شرودها وصمتها كانا يؤكدان لها أنها حزينة لأنها لم تقابله. خافت أن تكون أعاقت قِصّة حُبّ بريئة عن الاستمرار، وأفسدت سعادة صديقتها بسبب تشددها وخوفها المبالغ فيه.. ثم عادت وقالت لنفسها، لقد فعلتُ الصواب وأبعدت نفسي عن الشبهات، وإذا كانت نهلة فعلا تحب هذا الشاب فلتعثر على طريقة آخرى للتواصل معه بعيدًا عنّي.

* * *

-10-

يوم الخميس في الساعة الثانية ظهرًا، دخل أحد المعيدين المدرج وقام بإبلاغ الطلبة في الميكرفون أن محاضرة تاريخ الأدب تمَّ إلغاؤها.

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجهي سها ونهلة، ثم انصرفتا سريعًا من المدرج، وبعد أن خرجتا من الكلية لمعت عينا نهلة، ثم ابتسمت لسها وحدقت فيها بنظرة تنطق بكلام سرعان ما خمنتها، فرفعت حاجبيها لأعلى وسألتها في تشكك:

-اوعي يا نهلة تكوني بتفكري في ...؟

أومأت نهلة برأسها وهي ترفع كتفيها وتقول:

-ليه لا؟

-إحنا مش خلاص قفلنا الموضوع ده؟

-بس الظروف اتغيرت بعد لما المحاضرة اتلغت. انتي مش هتضطري تقولي لأهلك حاجة لأنهم هيفكروا إنك لسة في الكلية، وبعدين إحنا مش هنقعد أكتر من ساعة بالكتير، وهترجعي البيت في ميعادك من غير مشاكل.

-بس افرضي وقعت في شر أعمالي وحد شافني.

-لما يلاقوكي ماسكة الكتب في إيدك هيفتكروا إنك بتذاكري مع زمايلك. ماتبقيش خوافة بقى، يعني فيها إيه بدل لما تروحي تذاكري في البيت هتذاكري في كافيه شيك وكل طلباتك أنا اللي هدفع تمنها، ده عرض مش ممكن يترفض.

-طب معقول إن حبيب القلب هيفضي نفسه بالسهولة دي ويوافق يقابلك دلوقتي؟

-هتصل بيه ولو قال إنه مش فاضي نروَّح على طول.

-انتي مش بتقولي إنك عمرك ما كلمتيه، إزاي معاكي نمرة تليفونه؟

-ماهو ادهالي عشان لو وافقت إني اقابله.

تأملتها وهي تضغط بحماس على رقم الشاب وهي تقول له: أهلا يا ‹‹هيثم›› برقّة مصطنعة.

تمنَّت أن يكون مشغولاً حتى تُعفى من تلك المهمة، ولكن عندما رأت ابتسامة نهلة تتسع وتصل لأذنيها أدركت أن أمنيتها لن تتحقق.

أحسَّت سها وهي تجلس في التاكسي مع نهلة كأنها تجلس في أرجوحة تصعد بها لأعلى بسرعة وتقف بها في السماء. شعرت بتسارع شديد في دقات قلبها وبرودة في أطرافها ودوار في رأسها. تلك الجلسة المرتقبة تبدو جلسة عادية بين فتاتين وشابين، ولكن بالنسبة لها تبدو مغامرة غير مأمونة العواقب. قد تمر تلك الجلسة بدون مشاكل وتعود لمنزلها بسلام وقد يحدث أي شيء غير متوقع يجعلها تندم على اليوم الذي قابلت فيه نهلة. لقد اكتشفتْ الآن أنها تُحبُّ المغامرات الآمنة التي يخترعها خيالها، ولكنها تكره مغامرات الواقع وتفضِّل المشي على الرصيف.

كادت وهي تخرج من التاكسي أن تقع على الأرض فخطر لها أن تعتذر لنهلة عن عدم قدرتها على استكمال المهمة، ولكنها عندما رأت السعادة تشع من وجهها أشفقت عليها من الإحباط لو اعتذرت لها .

ظلَّ الخوف يتصاعد داخلها وهي تعبر مع نهلة الشارع الرئيسي، ولكن بعد أن مشيت معها في الشوارع الجانبية تسلل لها هدوء مفاجئ، من وحي هدوء تلك الشوارع التي قلَّت فيها حركة السيارات، ولم يشغلها سوى عدد قليل من المارة معظمهم من الأطفال العائدين من المدارس مع أمهاتهم .

بدت لها تلك شوارع سموحة الخلفية مدينة مجهولة لا يعرفها سكان الأسكندرية. فأحسَّت أنها في مكانٍ لا يمكن أن يكتشفه أهلها أو يدخله أحد معارفها.

اتصلت نهلة بهيثم لكي تطمئنه على وصولها وتتلقى منه إرشادات لمكان المقهى. وبعد أن أنهت معه المكالمة أخذت تقرأ أسماء الشوارع قبل أن تدخلها، حتى توقفت في شارع تتوسطه شركة سياحة ثم أخبرت سها أن المقهى يقع في هذا الشارع. أخذت سها تبحث بعينيها عن المقهى حتى رأت فجأة واجهة زجاجية صغيرة تعلوها لافتة مكتوبة باللون الأسود باللغة الانجليزية"وايت لايت"

أشارت بإصبعها ناحيته وسألت نهلة إذا كان هذا هو المقهى الذي تبحث عنه، فلمعت عينا نهلة وهزَّت رأسها بالإيجاب.

* * *

تدفَق الأدرينالين في شرايين سها وهي تمشي باتجاه المقهى، ثم دفعت الباب الزجاجي ودخلت وراء نهلة. تأملت سيراميك الأرضية اللامع والمصابيح الصغيرة التي تشع إضاءة هادئة مريحة للأعصاب في المقهى، والحوائط المزينة بلوحات سيريالية والطاولات الخشبية والكراسي المصنوعة من الخوص، والنُدل الذين يرتدون قمصان ناصعة البياض وبنطلونات سوداء ورباطات عنق حمراء.

لم تتخيل أنها سترتاد يومًا ما هذه النوعية من المقاهي الراقية التي كانت تعبر بجوارها وتنظر لها من بعيد وتسخر من الشباب الأثرياء الذين يجلسون فيها مع صديقاتهم ويدخنون السجائر والشيشة .

من المؤكد أن سعر كوب الشاي في مكان فخم كهذا لن يقل عن عشرين جنيهًا، ولذلك من الأفضل ألا تطلب أي مشروب حتى لا تضع نفسها في موقف محرج .

لاحظت أن رواد المقهي من الشباب والفتيات في مثل سنها أو أكبر قليلاً. بعضهم عشاق وجدوا في المقهي ملاذا من العالم الخارجي، والباقي مجموعات جاءوا للمذاكرة على أنغام الموسيقى الهادئة .

اقتربت منها نهلة وأومأت برأسها نحو شابين يجلسان في آخر المقهى، أحدهما ينظر حوله طول الوقت، والأخر يغطي وجهه بكتاب كبير وهمست في أذنها بحماس "هما دول"

ارتعش جسد سها وانتابتها الرغبة في مغادرة المكان بأسرع ما يمكن قبل أن يحدث ما لا يُحمد عقباه، وقبل أن تجرؤ على تنفيذ رغبتها جذبت نهلة يدها .

تمايلت وراءها في بطء حتى وصلا لمكان الطاولة، أشرق وجه الشاب الذي كان ينظر حوله عندما رأى نهلة فعرفت سها أنه هيثم .

ضحكت في سِرّها عندما تأملت ملامحه. هل هذا هو الشاب الذي حدثتها نهلة عن وسامته وجاذبيته؟ مِن المؤكَّد أنها غارقة في حُبُّه. فكّه العالي وشفتاه الغليظتان ووجهه الممتلئ يؤكدون عدم صلاحيته لدخول مسابقة أجمل شاب في مِصر. ربما ابتسامته العريضة التي تكشف عن أسنانه البيضاء الناصعة هي سِرُّ انجذابها له وربما هي أناقته التي تبدو في الجاكيت الأسود الجلدي والبنطلون الجينز الأزرق الفاخر الذي يرتديه، وشعره الأسود المدهون بالجيل، وربما هي الكيمياء الخفيَّة التي تجذب الفتاة للشاب بغضّ النظر عن شكله.

اندهشت عندما تطلّعَت لصديقه فرأته أكثر وسامة منه. أعجبتها ملامحه الطفولية المتناسقة ووجهه الخمري المثلث والغموض الذي يطل من عينيه السوداوين الضيقتين، ولكن لم يعجبها البلوفر الرمادي(التريكو) الذي كان يرتديه تحت قميصه الأبيض، لأنه ذكرها بأيام المدرسة الابتدائية. رأته يحدق فيها بدهشة كأنه لأول مرة يرى فتاة في حياته، ثم فجأة تقلص وجهه المثلث وبدت عليه علامات الامتعاض. نظرت له بضيق وقالت لنفسها ربما يكون جاء مثلي إلى هذه الجلسة رغما عنه. قبل أن يبسط هيثم يده لكي يصافحها عقدت يديها وراء ظهرها واكتفت بإيماءة وابتسامة. عرّفها هيثم بنفسه ثم أشار لصديقه المتجهم وقال:

-أعرّفكم على صاحبي «كريم الدسوقي» .

* * *

- 11 -

تردَّد كريم الدسوقي كثيرًا قبل أن يوافق على مرافقة صديقه هيثم إلى هذه الجلسة لأنه كان يعلم جيّدًا أن علاقته بنهلة ما هي إلا مغامرة عاطفية قصيرة ستذروها الرياح سريعا كالمغامرات التي سبقتها .

لم يستطع كريم أن يمنع نفسه من الضحك عندما رأى هيثم يدخل عليه قاعة المحاضرات متهللا مستشبرا ليخبره أنه أخيرًا تمكن من الحديث مع أجمل فتاة في الكون، وأنه واثق أنها الفتاة المنشودة التي يريد أن يقضي معها بقية حياته.

تظاهر بالجدية وهو يسأله:

-طب معياد الفرح إمتى بقى؟

بدا الهلع على هيثم وهو يرد عليه:

-فرح إيه أنا لسه صغير على الجواز.

-يعني كنت بتضحك عليها لما قلت لها إن قصدك شريف وعايز تتجوزها؟

-لا أنا ناوي أتجوزها فعلا بس يعني لسه بدري على الجواز، بس أنا أكيد هخطبها. معندكش فكرة يا كيمو أنا بحبها قد إيه. أنا مش عارف أذاكر من كتر التفكير فيها.

لقد سمع هذا الكلام من هيثم عشرات المرَّات منذ أن أصبح صديقًا له .

فمنذ أن جمعته به المدرسة الثانوية وهو يتابع مغامراته العاطفية التي تشاركه في بطولتها كل بضعة أشهر فتاة جديدة. في مرحلة المطاردة تبدو المغامرة بالنسبة لهيثم مشوقة ومثيرة، خصوصًا عندما تزيد الفتاة من تمنعها ودلالها عليه، وبعد أن تستجيب الفتاة لكلامه المعسول ووعوده وتوافق على مقابلته تهدأ مشاعره

الملتهبة رغم أنه يظل مقبلاً عليها. وبعد أن يتعوَّد هيثم على رؤية الفتاة والحديث معها يوميًّا تفتر مشاعره تجاهها ثم تتلاشى ولا تعود هذه الفتاة تمثل له شيئًا فيفتعل معها أي شجار ثم يتركها .

ورغم توقع كريم للمصير الذي ستؤول له هذه العلاقة إلا أنه وافق على مرافقة هيثم بعد أن أغراه بأن صديقة نهلة ستأتي معها، وأنه يمكن أن يتحدث معها إذا أعجبته، وإن نجح في التعرُّف عليها ستصبح القِصَّة أجمل بعد أن تقع الصديقتان في حُبِّ الصديقين.

وافق كريم على المجيء بعد إلحاح متواصل من هيثم رغم أنه كان واثقًا بأنه سيفشل في الحديث مع هذه الفتاة كما فشل من قبل مع غيرها من الفتيات .

كان كريم رغم سخريته الدائمة من مشاعر هيثم المتقلبة وإدمانه على مطاردة الفتيات، يحسده سِرًّا ويتمنى لو كان مثله ولكنه يعلم أنه لن يكون أبدًا مثله .

إنه لا يملك ثقته المتناهية في نفسه، ولا يملك جرأته على الاقتراب من الفتاة التي تعجبه مهما صدته. ولا يملك ابتسامته الساحرة التي تجذب البنات له كالمغناطيس، ولا يملك خفة ظِلّه وكلامه المعسول القادر على تليين أقسى القلوب.

لقد تعوَّد طوال حياته على تأدية دور العاشق الصامت. يقف في ركن بعيد يتطلع للفتاة التي تعجبه بينما يعج قلبه بتيارٍ عنيف من المشاعر والأحساسيس، ولكنه يعجز عن الاقتراب خوفًا من صد الفتاة له. وحتى عندما نجح مرَّاتٍ قليلة في الاقتراب، كان دومًا يعجز عن التعبير لأنه لا يعرف ما هو الكلام الذي يجب أن يقوله ولا كيف يمكن أن يقوله.

وعندما يرى الفتاة بعدما أنفق وقته في التفكير فيها تتحدث مع غيره يمطّ شفتيه، ويتحسَّر على الفرصة الضائعة ويلعن ضعفه وخجله وخوفه .

كثيرًا ما يسأل نفسه إذا كانت«عزة» جارته هي التي تسببت في خوفه من البنات؟

لا يمكن أن ينسى قنابل السخرية والإهانات التي نزلت عليه من كل حدبٍ وصوب بعد أن عضَّت عزة ذراعه وقطعت له ملابسه لأنه انتصر عليها في لعبة(البلي). عندما رأى والده منظره المزري وعرف أنه خاف أن يرد لها الضربات شكك في رجولته، رغم أنه كان طفلاً ضئيلاً ضعيفًا وعزة كانت أكبر وأضخم منه .

شعوره بالعار بسبب عجزه عن الدفاع عن نفسه منعه من النزول للشارع، وولَّد لديه نفورًا من جنس البنات كله، فتجنب الاقتراب منهن.

وبعد أن طال عوده ونُبِت له شارب صغير، واخشنَّ صوته، خفق قلبه لأول مرَّة عندما رأى فتاة جميلة تخرج من مدرسة البنات القريبة من مدرسته.

كان يمشي وراءها كل يوم حتى تصل لمحطة(الترام) ويحلم بالحديث معها، وأخيرًا استطاع أن يهزم خجله واقترب منها وعرّفها على نفسه .

نظرت له بغضبٍ، وتوحشت ملامحها الجميلة، ثم صفعته على وجهه بعنفٍ وتركته يتلقى نظرات ساخرة ومزدرية من المارة جعلته يرغب في قتل نفسه في تلك اللحظة. هذه الحادثة أكدت له صحة نظرته القديمة للبنت. إنها مثل القطة تبدو من بعيد أليفة وناعمة وجميلة، ولكن لو تجرأ أي شخصٍ غريبٍ على الاقتراب منها لن تتورع عن نبش مخالبها في لحمه .

* * *

شعرَ كريم بالخجل من نفسه عندما طلب هيثم منه أن يراقب جلسته مع نهلة حتى يتعلم كيف يُجري حديثًا مع فتاة.

كيف أصبح إجراء حديث مع فتاة مهارة صعبة بالنسبة له تحتاج وقتًا ومجهودًا حتى يتعلمها؟ ولكنه لم يجد بُدًّا من قبول هذا الدرس المجاني، فلعله يتمكَّن من التقاط ولو جزءً قليل من سِحر هيثم .

قبل أن تصل الفتاتان، أخذ هيثم يقدِّم له إرشادات عن كيفية فتح حديث لطيف مع صديقة نهلة، ولكنه لم ينتبه لكلامه لأن عشرات الاحتمالات المخيفة قفزت في ذهنه.

أخذ يسأل نفسه لماذا وافقتُ على الجلوس مع فتاة لم أرَها ولا أعرف عنها شيئًا، وماذا لو لم تأتِ أصلا؟ وماذا لو جاءت ورأيتها ولم تعجبني؟ وماذا لو أعجبتي وأعجبتها وانتظرتني أن أقول شيئًا فغلبني خجلي وعجزتُ عن النطق بحرفٍ واحد؟ وماذا لو

انفكَّت عُقدة لساني وتكلمت ولم يعجبها حديثي وردَّت عليَّ بفظاظة ثم تركت المكان، وماذا لو كانت سليطة اللسان فنهرتني أو سبّتني .

وحتى لو تحقق لي مرادي وتجاوبَتْ معي وسارت الأمور على ما يرام؟ هل أملك الجرأة على طلب رقم تليفونها، وهل ستوافق على أن تخرج معي في مكانٍ عام؟ وهل سيُكتَب لهذه العلاقة النجاح أم ستكتب في قائمة الأشياء العديدة التي فشلت فيها؟

أهٍ... لقد أصابني الصداع من التفكير. يجب أن أتوقف عن استباق الأمور، فماذا لو فشلتُ في الحديث معها؟ لقد تعودت على الفشل حتى صار صديقًا لي .

يجب أن أشغل نفسي بالتفكير في شيء آخر. الحمد لله أنني أحضرت معي أحد كتب الدراسة حتى أداري به خجلي وأشغل به وقتي وأبرر به عجزي عن الكلام.

لم يكد كريم يكمل نصف صفحة من الكتاب حتى لكزه هيثم وأخبره أنه رأى الفتاتين تدخلان المقهى، فأزاح كريم الكتاب وأخذ يتأملهما .

أدرك أن الفتاة المُحجّبة هي نهلة وصديقتها هي الفتاة الطويلة ذات الشعر البُنيّ والعينين الخضراوين. تجمدت عضلات وجهه واتسعت عيناه وهو يتأملها في دهشة. إنها أجمل من صديقتها، بل أجمل من كل زميلاته في المدرسة والجامعة.

إنها حتى أجمل من رانيا جارته التي أحبها في صمت لسنوات طويلة، ولم يتصور وجود فتاة تفوقها جمالاً. ربما تكون هذه الفتاة هي أجمل فتاة في الإسكندرية أو في مِصر كلها .

إنه سعيد الحظ وسيء الحظ في الوقت نفسه، لأن الاقتراب من الفتاة الجميلة أصعب كثيرًا من الاقتراب من الفتاة العادية. الجميلة لا يلفت نظرها أي شاب ولا تؤثر فيها أي كلمة لطيفة لأنها تعاني من كثرة المعجبين والمحبين .

رآها تتطلع له بضيق، بينما كان هيثم يعرفه عليها فعاد الخوف يتملكه. وعندما لم تمد يدها لمصافحته فهمَ أنها متحفظة أو مغرورة، وأيقن أن مصيره سيكون الفشل لو جرؤ على فتح أي حديثٍ معها. من المؤكد أنها تدرك قيمة جمالها وتعرف أن ليس أي رجل يستحق أن ينعم بشرف الاقتراب منها.

لو كان هيثم لسارع في التعرف عليها. ولو شتمته لضحك ولو هربت منه لجرى وراءها وأمطرها بالغزل الصريح، ولكنه ليس هيثم، ولذلك سيستمر في قراءة هذا الكتاب حتى تنتهي الجلسة. لم يستطع المحافظة على تركيزه لأكثر من دقيقة وعاد يفكر في الحسناء الجالسة أمامه التي لا يقوى على الحديث معها .

حاول أن يواسي نفسه باستحضار كلام صديقه شادي "خجلك نعمة مِن الله لأنه يقيك من الوقوع في الرذائل. لا تحسد أصدقاءك لأنهم يرتكبون الذنوب بالكلام مع الفتيات. استمر في غضّ بصرك عنهن حتى تكون جاهزًا للزواج" .

ورغم اقتناعه بصحة كلام شادي، كان يتساءل عن ما سيفعله عندما يصل لسن الزواج ويدخل بيوت العرائس ولا يتمكن من الحديث معهن أو النظر لهن .

أدرك أنه لابد له التخلص من خجله عاجلاً أو أجلاً، وإلا سيكون مثارا للسخرية بين العائلات، ولن يفلح في الزواج أبدا .

لم يكد يكمل قراءة صفحتين من الكتاب، حتى أحسَّ بقدَم هيثم تصطدم بقدمه.

رفع عينيه من على الكتاب واستدار لينظر له، فأشار هيثم برأسه ناحية سها، فهمَ أنه يريده أن يتحدَّث معها، فانكمش خوفًا وهزَّ رأسه بالنفي .

بدا الغيظ على وجه هيثم وكاد يقول له شيئًا، ولكنه تراجع عن الحديث عندما انتبهت نهلة لنظراته فعاد يبتسم لها ويتحدث معها .

ترك كريم الكتاب وألقى نظرة خاطفة على سها، فرآها منهمكة في نقل محاضرات من كراسة إلى آخرى . أطمأن أنها لا تلاحظ وجوده فأخذ يتأملها في صمت وانبهار كأنه رسام يتأمل لوحة فنية بارعة .

رأى ضوء المصباح الأصفر المجاور للطاولة يلقي خيوطا ذهيبة رفيعة فوق شعرها البني الطويل المنسدل على كتفيها فيضفى عليه جمالاً وبريقًا. كانت عيناها الخضراوان الواسعتان تجولان بين الكراسات ويدها اليمني تقفز فوق الكراسة وهي تكتب كأنها تريد الإمساك بشيء. أحسَّ من نظرتها الجادة للكتب والكراسات وسرعتها الفائقة في الكتابة أنها تلميذة متفوقة. وقبل أن يبدأ في تخمين تفاصيل حياتها فوجيء بعينيها تترك الكراسة وتتوجه ناحيته. ثم انطلقت منها صوبه نظرة حادة كالسهام كأنها تحذره من الاقتراب منها أو الحديث معها.

أسرع في تغطية وجهه بالكتاب وهو يشعر بالندم على التطلع لها .

أحسَّ بالضيق لأنه لم يتمكن من فتح أي حديثٍ معها حتى لو بدأه بكلمة أنا أسف،

ثم عاد الشعور بالفشل يهاجمه بعد أن نظر لساعته فأدرك أن الجلسة اقتربت من نهايتها .

لماذا صدَّق الأمل الكاذب الذي منحه له هيثم وأوهم نفسه أن تلك المرَّة ستختلف عن كل المرَّات رغم أنه كان يعلم أنها ستكون نسخة مكررة من تجاربه الفاشلة السابقة. إن والده محق في اتهامه بالفشل لأن الفشل هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة في حياته. لقد فشل في الكلام عندما كان صغيرًا وظلَّ يتأتأ لعدة سنوات طويلة حتى كبرَ. وفشل في المشي مبكرًا. وفشل في مضاهاة براعة أصدقائه في لعب

كرة القدم. وفشل في استرداد كرامته بعد أن ضربته عزة وفشل في الحصول على الدرجات النهائية في المدرسة. وفشل في أن يحقق حُلم والده ويلتحق بكلية الطب، فلم يؤهله مجموعة إلا لدخول كلية التجارة، وفشل في الحصول على تقدير جيّد جدًّا وحصل على تقدير جيّد بالعافية، وفشل في أن يحمي أمه وأخته ريم من إساءات والده .

وحتى الشيء البسيط الذي يبرع فيه كل شاب فشل فيه. ربما حان الوقت لكي يريح نفسه ويتوقف عن إضاعة وقته وأعصابه في محاربة مصيره .

أخرجه صوت نهلة وهي تقول "إحنا تأخرنا " من نوبة جلد الذات التي انغمس فيها. شعر بالحزن عندما رأى نهلة وسها تقفان فوقف أمامهما. رأى سها تبتسم له فتوقف قلبه عن الخفقان لثانية ثم عاد ينبض بسرعة. ابتسم لها لا إراديا وشعر أنه لابد أن يقول لها شيئا .

فتح فمه بصعوبة وهتف بصوت مرتعش " أنا أنا أنا اااااه أسف لو ضايقتك " .

غطت فمها بيديها وأخذ تقهقه فانتقلت ضحكاتها كالعدوى لنهلة وهيثم .

امتقع وجه كريم وتفصدت حبات العرق من جبينه.

نظر هيثم لسها وقال لها:

-معلش اعذري كريم هو مش متعود يتكلم مع بنات حلوين زيك.

ندت عن سها ابتسامة خجولة، ثم نظرت لكريم بعطفٍ وقالت:

-اطمن إنت ماضايقتنيش في حاجة.

أحسَّ كريم بالارتياح لأن نظراته لم تزعجها كما ظنَّ ثم أحس بالحزن عندما أدرك أنه لن يراها مجددا. حاول أن يعوض عن عدم قدرته على الكلام معها بأن قال لها بصوت ملهوف " ياريت ماتبقاش دي آخر مرَّة نشوفكم فيها " .

شكرتْه وودعته بإيماءة من رأسها، ثم جذبت يد نهلة وغادرتا المقهى سويا .

* * *

- 12 -

أخذَ هيثم يحرِّك يديه مودّعا نهلة، بينما وقف كريم بجواره يراقب سها وهي تشدها لكي تسرع من خطواتها. داهمه شعور بالفراغ الموحش بعد أن غابت الصديقتان عن نظره.

وجَّه هيثم له نظرة ساخرة وقال:

-إنت هتبطل تأتأة امتى؟ كان منظرك عبيط قوي قدام البنات.

تنهد كريم وأطرق برأسه في ضيق:

-أعمل إيه غصب عنّي.

-معقول تبقى قاعدة قدامك صاروخ وإنت سايبها وقاعد تقرأ في كتاب محاسبة. أنت يا إما مجنون يا إما أهبل.

-دي مارضتش تسلم عليا يبقى كنت هتكلم معاها إزاي غير إنها مغرورة.

كل لما أبص لها كنت بحس إنها مضايقة مني .

-ولا مضايقة منك ولا حاجة، إيه رأيك إني شفتها قاعدة تبحلق لك وكان باين في عينيها إنها معجبة بيك، يعني لو كنت نطقت بكلمتين كان زمان معاك دلوقتي نمرة تليفونها.

-أنا مش مصدقك دي مارفعتش عينيها من على الكراسة.

-لا كانت بتبص لك وإنت مش واخد بالك، لأنها لما لقتك ثقيل ومش بتكلمها انجذبت لك، هو ده طبع البنات وأمال تفتكر أنا زقيتك ليه؟

ظنَّ كريم أن هيثم يكذب عليه لكي يرفع ثقته بنفسه فليس من المعقول أن فتاة بجمال سها تنجذب لولد مثله، ولكن هيثم أقسم له أن ما يقوله هو الحقيقة.

-إحساسك بإنك أقل من الناس هو اللي مضيعك، لو اقتنعت إنك مش أقل من حد هتتخلص من العقدة اللي عندك.

ربما يكون هيثم محقًّا، ولكن بافتراض أن سها معجبة به، ماذا يمكن أن يفعل الآن؟

لقد غادرت وفات أوان الحديث معها أو ربما لم يفت بعد.

تطلع لهيثم وسأله إذا كان ينوي مقابلة نهلة قريبًا. فهم هيثم مقصده بسرعة وقال له:

-لا طبعًا هقابلها، بس أنا عايز أقابلها لوحدنا القعدة دي معجبتنيش. على العموم الفرصة ماضاعتش منك، ممكن تروح كلية الأداب وتكلمها بنفسك .

إذا كان فشل في الحديث معها وهي تجلس أمامه مباشرة كيف سيتمكن من زيارتها في الكلية؟ عاد يجلد نفسه مجددا. لو عاد به الزمن للوراء ربع ساعة فقط لأجبر لسانه على الانطلاق ولتحدَّث معها في كل شيء وأي شيء حتى لو أخطأ أو تعلثم، ولكن الفرصة عندما تمر من أمام الإنسان لا تعود مجدَّدا .

جلس في السيارة بجوار هيثم يسترجع الجلسة في ذهنه، فتذكر منظر سها وهي تضحك على تلعثمه في نطق الحروف. انتابه شعور غريب بالبهجة عندما فكر أن ضحكها يخفي وراءه إعجابًا وليس سخرية. ثم عاد يشعر بالحسرة لأنه ضيع على نفسه فرصة الحديث معها.

* * *

فتحَ كريم باب الشقة، ثم خلع حذائه ومشى ببطء في الردهة الطويلة. أشعره السكون التام أنه لا يوجد أحدٌ سواه في الشقة. تأكد من صِدق إحساسه عندما

دخل حجرات الشقة الثلاث والحمام والمطبخ والشُرفة، ولم يجد والده، فتنفس الصعداء وغمره ارتياح عميق .

لم يتنابه أي قلق لغياب والده أو لتأخر أخيه«عمرو» في الرجوع من المدرسة،

وكرَّس تفكيره في الاستمتاع بلحظات الخلوة القصيرة التي أُعطيت له في ممارسة هوايته المفضلة .

دخل حجرته الصغيرة التي يشاركه فيها أخوه عمرو. غيَّر ملابسه سريعًا وارتدى البيجامة، ثم تأمل جيتاره الملوَّن بالأبيض والأسود القابع فوق الكرسي المجاور لفراشه. رأى أوتار الجيتار تلمع وتضيء كأنها ترحِّب بوصوله وتناديه لكي يسلم عليها، فتوجه نحو الجيتار بحماس وحيَّا الأوتار بلمسة حنونة، ثم أوصل سلك الجيتار في(كُبس) الكهرباء.

دسَّ ذراعه في الحزام الأسود المربوط بالجيتار، وبعد أن ضبط المفاتيح أغمض عينيه وبدأ في عزف آخر مقطوعة تعلمها. أخذ يحرِّك رأسه في كل الاتجاهات لا شعوريا وعلى وجهه علامات النشوة كأنه مُخدر أو ممسوس.

اندماجه في العزف أنساه حاضره ومستقبله وماضيه وأهله ومشاكله ومخاوفه وعقده النفسية بعد أن رفعته نغمات الجيتار من الأرض وارتفعت به لأعلى، حتى حلَّق في السماء ولمس النجوم ورأى القمر، ثم ودَّع كوكب الأرض بأكمله، ووجد نفسه يجلس في كوكب آخر ليس له مثيل في الجمال والروعة والسحر ولم تطأه قدم بشر سواه .

من المذهل أن ستة أوتار مصنوعة من النايلون قادرة على خلق كل هذه الكمية من الأحساسيس داخل شخص واحد. لولا الجيتار لأصيب كريم بمرضٍ نفسيٍ أو عقليٍ وانتهت حياته بالانتحار. الجيتار هو نقطة النور الوحيدة في عالمه المليء بحلقات الفشل المتوالية وهو الصديق الوفي الذي لم يخذله أبدًا. وهو الشيء الوحيد القادر على مسح كل أحزانه في لحظة واحدة .

بدأت قِصّته مع الجيتار من ثلاث سنوات عندما تعرَّف في المدرسة على ولد اسمه ‹‹ماجد›› وأصبح من أصدقائه المقربين. لاحظ أن ماجد يستمع دومًا للموسيقى الأجنبية وبالأخص موسيقى(الروك) وينفق كل مصروفه على شراء ألبومات فِرق لم يسمع عنها من قبل. كان في ذلك الوقت مثل باقي المراهقين في مثل سنه يستمع للمطربين المِصريين والعرب المنتشرين، ولكن الفضول دفعه لاستكشاف سِرّ ولع ماجد بموسيقى(الروك)، فقرَّر أن يشاركه الاستماع لفريقه المفضل(بينك فلويد).

كانت أول أغنية روك استمع لها هي حجر آخر في الجدار. جذبه صوت الجيتار الإلكتروني والأطفال الذين يرددون كلمات الأغنية وراء أعضاء الفريق.

نقل الأغنية على شريط عنده واستمع لها بإنصات عِدة مرَّات حتى فهمَ معظم المقاطع..

لا نريد التعليم..

لا نريد السيطرة على العقول..

لا سخرية سوداء في الفصول..

أيها المدرسون اتركوا الأطفال في حالهم..

إنه حجرٌ آخر في الجدار .

وقعَ في حُبِّ الأغنية، وسرعان ما تحولت لنشيده المفضل الذي لا يملُّ من ترديده طول الوقت لأنه رأها خير تعبير عن الكراهية التي يكنها لنظام التعليم الذي عانى منه طوال حياته، وكان يعد الأيام حتى يتخلص منه .

فتحت هذه الأغنية شهيته لاكتشاف الفريق، فنقل ألبومات الفريق من ماجد عنده وأصبح يجلس بالساعات في حجرته يستمع لها في(الووكمان) الخاص به .

و رغم أنه لم يفهم كل كلمات الأغاني، لكنه وقعَ سريعًا في غرام عزف(روجر ووترز) و(ديفيد جيلمور) للجيتار الإلكتروني، وكانت المؤثرات الصوتية الخاصة التي يستعملها الفريق في توزيع الأغنيات تعطيه شعورًا بأنه يركب سفينة فضائية ويدور بها حول كوكب الأرض .

ورغم إعجابه بفرق(الروك) الآخرى التي عرّفه عليها ماجد مثل(البيتلز والروليج) ستونز وليد زيبلن، ولكن(بينك فلويد) ظلَّ فريقه المفضَّل حتى تعرَّف على عازف الجيتار الذي غيَّر حياته. ففي أحد الأيام دعاه ماجد للذهاب معه للنت كافية بعد المدرسة، لأنه يريده أن يشاهد فيديو لعازف جيتار اسمه(جيمي هندركيس) تعرَّف عليه من شقيقه وأُعجَب جدًّا بعزفه .

عندما جلس كريم بجوار ماجد أمام الكمبيوتر لمشاهدة الفيديو وجد أمامه رجلاً أسمر نحيفًا، عينيه خاملتين، يرتدي بلوزة بيضاء حريري تتدلى من أسفلها شراشيب، أصابعه مغطاة بالخواتم، أذنيه يغطيهما قرطان ذهبيان. رقبته تتدلى منها سلاسل ذهبية، ورأسه مربوطة بشريط أحمر رفيع.

لوى شفتيه في اشمئزاز، ولام ماجد لأنه دعاه لمشاهدة هذا الرجل المخنَّث فضحك ماجد عليه وطلبَ منه أن ينسى شكله ويركز في عزفه.

و عندما بدأ الرجل في العزف نسى كريم مظهره تمامًا، ووجد نفسه منجذبًا لطريقته في العزف على الجيتار الإلكتروني الذي بدا صوته بين أصابعه كأنين جميل.

رأى الجمهور يقفون أمامه ويحرّكون رؤوسهم بلا وعيّ كأنهم في حفلة للإنشاد الديني وبعد أن انتهى من العزف اهتز المسرح من التصفيق .

لم يستطع أن يخفي انبهاره بقدرات(جيمي هندركيس) الخارقة في العزف .

ولكنه أصيب بالصدمة عندما أخبره ماجد أن جيمي هندركيس توفي من ثلاثين عامًا، نتيجة جرعة زائدة من المخدرات. لم يفهم كيف يمكن أن يملك هذا الرجل

كل هذه الموهبة ويهدرها في تعاطي المخدرات. إنه بالتأكيد أحمق أو مجنون فلو كان يملك موهبته لاستعاض عن نشوة المخدرات الزائفة بالنشوة الدائمة التي تعطيها الموسيقى ولملأ الدنيا كلها بعزفه .

نغمات الأغنية التي شاهدها لهندركيس ظلت تتردد في أذنيه بقية اليوم حتى فشل في محوها. أدرك أنه يُحبُّ هذه الأغنية رغم عدم إعجابه بشخصية عازفها، وأحسَّ برغبة في الاستماع لها مجدّدا. ذهبَ(للنت كافيه) من وراء ماجد وأخذ يشاهدها عِدة مرَّات ثم دفعه الفضول لاكتشاف باقي أغاني هندريس،، فازداد إعجابه بالرجل وقرَّر أن ينسى إدمانه للمخدرات ويركز في الاستمتاع بموسيقته المدهشة.

في أحد الأيام دخلت عليه شقيقته«ريم» وهو يستمع لإحدى أغانيه فاندهشت وفرحت عندما رأت وجهه يشع بالبهجة وقالت له:

-أنا ملاحظة إنك بتحب تسمع كل الأغاني اللي فيها جيتار.

-فعلا، أنا بحب الجيتار جدا.

-طيب طالما بتحبه كده قوي ليه مفكرتش تتعلم تعزف عليه؟

نظر لها باندهاش وقال:

-أنا فعلا فكرت في الموضوع ده بس أنا معنديش موهبة في العزف.

-ليه؟ انت جربت تعزف قبل كده؟

-لا.

-طب إزاي عرفت إنك معندكش موهبة، ليه بتفترض إنك هتفشل في حاجة وإنت لسه مجربتهاش، جرب الأول تعزف جيتار يمكن تحبه، الموسيقى هواية جميلة .

-طب هتعلم فين؟

-في مراكز كتيرة للتعليم للموسيقى دوَّر على أي واحد منهم وأنا مستعدة أدفع لك تمن الدروس وأشتري لك الجيتار كمان .

شعرَ بامتنانٍ شديد لكرم أخته معه، ولكنه لم يفكر في موضوع الجيتار حتى لاحظ بالصدفة وهو جالس في(الترام) لافتة إعلانية عن المركز المِصري لتعليم الموسيقى. كتبَ عنوان المركز وقرَّر أن يزوره من باب حب الاستطلاع لمعرفة أسعار الدروس.

أخبر السكرتيرة أنه يرغب في تعلم الجيتار الإلكتروني، فقالت له من الأفضل أن تبدأ بتعلُّم الجيتار الكلاسيك أولا، وبعد أن تتقنه يمكنك أن تتعلم للجيتار الإلكتروني .

وأخبرته أن ثمن الحصة خمسة وعشرين جنيها. رأى السعر مناسبًا، فذهب ليخبر ريم عن المركز وهو يخشى أن تكون نست ما قالته، ولكنها أكدت له أنها مازلت عند وعدها.

اصطحبته في يوم إجازتها لأحد محلات بيع الأدوات الموسيقية وطلبت منه أن يختار الجيتار الذي يعجبه بدون التفكير في السعر. اكتشف أن الجيتار الإلكتروني الذي يحبه ثمنه لا يقل عن ألف جنية فقرَّر أن يختار الجيتار الكلاسيك خصوصًا أنه سيبدأ التعلم عليه .

وقع اختياره على جيتار بُنّيّ فاتح، أعجبه شكله ووجد سعره مناسبًا. عاد للمنزل مع ريم وهو يحمل حقيبة الجيتار السوداء بزهو كأنه طفل يحمل لعبة حلم طول حياته بامتلاكها. ولكن عندما دخل الشقة وقابل والده« مختار الدسوقي» انقطعت بهجته،

حدَّق والده في حقيبة الجيتار بدهشة ثم سأله باستهزاء "ايه ده؟ "

أخبرته ريم أنها قرَّرت أن تشتري له هذا الجتيار كهدية بمناسبة عيد ميلاده، فصاح فيها:

-إنتي اجننتي إزاي تصرفي فلوسك على جيتار تلاقيه بالشيء الفلاني.

فدارت ريم حرجها بابتسامة وردت عليه بهدوء:

-ولا غالي ولا حاجة، وبعدين مفيش حاجة تغلى على كيمو.

-طب وهو هيستفيد منه إيه؟

-هيعزف عليه ده صوت الجيتار جميل جدا.

-وهو من إمتى بيعرف يعزف جيتار؟

-ما هو هياخد دروس جتيار.

عقد حاجبيه وضرب كفيه في دهشة وهتف بغيظ:

-وطبعا حضرتك اللي هتدفعي تمن الدروس زي ما دفعتي تمن البتاع ده .

هو انتي معاكي فلوس مش عارفة توديها فين ولا إيه؟ وبعدين ده داخل على ثانوية عامة يعني هو مش ناقص حاجة تشغله عن المذاكرة وتخيبه .

-تخيبه ليه يا بابا؟ الموسيقى هواية جميلة.

-ويعني انتي فاكره انه هيعرف يعزف عليه! ده واد غبي ومفيش حاجة بيفلح فيها أبدا.

امتقع وجه كريم وعضَّ على شفتيه، ثم أخذ ريم لحجرته وترجاها أن تعيد الجيتار وتلغي الدروس، ولكنها رفضت وطلبت منه ألا يأخذ كلام والده على محمل الجَدِّ، وأكدت له أنها لن تتوقف عن دفع ثمن دروسه إلا بعد أن يتقن عزف الجيتار .

* * *

ذهبَ لمركز الموسيقى وهو يشعر بمزيج من الترقب والخوف بعد أن ظلَّت كلمات والده عن غبائه وفشله تتردد في ذهنه.

دخلَ حجرة الموسيقى بخطوات مترددة، فرحَّب به رجلٌ أصلع سمين يرتدي نظارة طبية، ويعلو فمه شارب صغير. صافحه بابتسامه واسعة قائلاً أن اسمه«علاء متولي». شعرَ بارتياح نفسي لهذا الرجل البشوش، فتلاشى خوفه وهدأت أعصابه. مرَّت أول ساعة من درس الموسيقى على كريم كأنها عشر دقائق، وخرجَ من المركز وهو يشعر أنه عثرَ أخيرًا على الجوهرة المفقودة داخله. أخيرًا وجدَ شيئًا يحبه في تلك الحياة التي ظنها خالية من المباهج.

أخيرًا وجدَ شيئًا يثير شغفه وفضوله وحماسه.. أخيرًا وجدَ شيئًا يتقنه ويبرع فيه حتى لو كان مجرَّد هواية. شكرَ ريم لأنها لم تستجب لمخاوفه وأجبرته على الذهاب، فلو لم يذهب لما عرف قلبه كل هذه البهجة.

* * *

ساهم مدرسه الأستاذ علاء متولي في إقباله على تعلم الجيتار بأسلوبه في التدريس وصبره على أخطائه والابتسامة التي لا تفارق وجهه. والأهم من ذلك انه أعطاه الثقة في موهبته وأثنى على أذنه الموسيقية واستعداده للتعلُّم وإحساسه المميَّز في العزف.

كان يود أن يقضي اليوم كله في التدريب والعزف، ولكنه كان يختار الوقت الذي لا يكون فيه والده متواجدًا في المنزل حتى لا يضايقه، لأنه لا يكره في حياته شيئًا أكثر من صوت الجيتار.

أتقن كريم عزف الجيتار الكلاسيك خلال شهر ونصف بسبب موهبته الفطرية وحماسه للتعلم وحرصه على التدرب مرارًا وتكرارًا على كل مقطوعة جديدة يتعلمها. كان يتوق بشدة لتعلم الجيتار الإلكتروني حتى يعرف كيف يعزف أغاني الروك التي يحبها. ولذلك قام ببيع جيتاره الكلاسيك، وأخذ مائتي جنيهًا من ريم واشترى جيتارا مستعملاً وسرعان ما انتقل لتعلم الجيتار الإلكتروني .

وخلال شهور قليلة استطاع أن يتقن الجيتار الإلكتروني حتى قال له الأستاذ علاء بعد انتهاء أحد الدروس بفخر:

-لو كنت عايش برة كان زمانك بقيت حاجة كبيرة، أنت لو دخلت كلية التربية الموسيقية هتتفوق فيها جدا، بس لو عايز تدرس موسيقى على أصولها الأحسن إنك تروح أمريكا أو أوروبا. طبعا الدراسة هناك غالية بس ممكن تدور على منحة .

رسم كريم على وجهه ابتسامة مريرة وأخبره أن والده من المستحيل أن يسمح له بدراسة الموسيقى بسبب كراهيته الشديدة للجيتار واستخفافه بالموسيقى .

لقد كان يريده أن يصبح طبيبًا، ولقد حاول بالفعل أن يحقق له رغبته رغم عدم ميله لمجال العلوم، ولكنه فشل بعد أن حصل على تسعين في المائة فقط في المرحلة الأولى من الثانوية العامة. ورغم أن والده أدرك أنه لن يتمكن من دخول الطب إلا أنه لم يتركه يدخل أي كلية يريدها .

نظر له الأستاذ علاء بعطف وقال له:

-لو المشكلة في والدك أنا معايا نمرة تليفون بيتك وأقدر اتصل بيه واقنعه.

-لا أرجوك أوعى تعمل كدة.

أخذ كريم يحذر أستاذه من عِند وفظاظة والده، ولكنه ظل مُصرًا على أنه قادر على تغيير نظرته للموسيقى.

لم يفاجأ كريم عندما سمع والده يهاجم الأستاذ علاء في التليفون:

-إنت راجل غريب، يعني ملكش أي حق إنك تنصحني أربي ابني إزاي أو أدخله كلية إيه. أنا عارف مصلحته كويس قوي. ابني لازم يدخل كلية محترمة مش كلية تشغله ورا المغنين والرقاصات.

شعر كريم بالإشفاق على أستاذه عندما سمع صوت ارتطام السماعة بالتليفون .

ثم فوجيء بوالده يدخل عليه ويقول متهكمًا:

-مكنتش أعرف إن حضرتك عايز تبقى موسيقار.

لم يجرؤ على التطلع له، خوفًا من قسوة نظراته. التزم الصمت وانتظره أن يعاود الحديث فقال له بلهجة آمرة:

-شيل موضوع الموسيقى ده من دماغك خالص، حتى الدورس دي معدتش هتروحها، الراجل المدرس ده مجنون وهيبوظ دماغك. إنت مش ناقص تضييع وقت، المفروض تركز في مذاكرتك علشان تجيب مجموع أكبر يمكن تعرف تدخل صيدلة.

حاول كريم أن يخفي رفضه لأوامر والده، فازدرد ريقه وردَّ عليه بهدوء:

-حضرتك عندك حق، أنا عمري ما هدرس الموسيقى، أنا بس شايفها هواية لطيفة برفّه بيها عن نفسي. فياريت تسمحلي أروح الدرس وأنا هطلب من الأستاذ علاء إنه ميفتحش معايا موضوع دراسة الموسيقى ده تاني، وأوعدك كمان إني هركز أكتر في المذاكرة وإن شاء الله أقدر أدخل صيدلة.

وافق والده على ذهابه لدروس الجيتار على مضض، بعد أنَّ أخبره أن ريم دفعت له ثمن دروس الشهور القادمة ولا يمكنه أن يسترد النقود .

* * *

ذهبَ كريم الأسبوع التالي لدرس الموسيقى وهو يشعر بالخجل من نفسه كأنه هو الذي أهان الأستاذ علاء. توقع أن يقابله الرجل بفتور، ولكنه فوجئ عندما رأه يرحِّب به بنفس الابتسامة الهادئة. وقبل أن يهم بالاعتذار له أشار له بيده لكي لا يقول شيئًا، وأخبره أنه كان محقًّا عندما نصحه بعدم الاتصال بوالده، ثم طلب منه ألا يدع موقف والده يقف عائقًا في طريق عزفه للموسيقى والسعي لاحترافها.

معظم عازفي الجيتار المشهورين لم يدرسوا الموسيقى في الجامعة، لأن النجاح في مجال الموسيقى يعتمد بشكلٍ أساسي على الموهبة، والدراسة شيء مكمِّل ولكنها ليست شرطًا أساسيًا للنجاح. ولذلك عليه أن يلتحق بالكلية التي يريدها والده وبعد انتهائه من الدراسة يمكنه أن يحترف الموسيقى .

ارتفعت منزلة الأستاذ علاء في قلب كريم بعد أن رأى تسامحه الكبير معه رغم ما فعله والده معه، فلم يعد يراه مجرَّد مدرس موسيقى بارع، وإنما أصبح ينظر له باعتباره أخاه الكبير وأباه الروحي.

مرَّ كريم بفترة من الإحباط والكآبة، بعد أن أخذ والده يصب عليه يوميًّا الشتائم واللعنات بسبب فشله في الحصول على مجموع يؤهله للالتحاق بكلية الصيدلة، ولكن بعد فترة تقبَّل والده التحاقه بكلية التجارة وأخذ يحثُّه على الحصول على تقدير عالٍ لعله يستطيع أن يعوِّض فشله في الالتحاق بكلية الصيدلة .

كان كريم يرى الكلية مثل المدرسة، مرحلة تجنيد إجباري يجب أن يتحملها ويتخطاها إرضاءً لأهله وللمجتمع. وكان ينتظر بفارغ الصبر يوم انتهائه منها حتى يستطيع التفرغ لتحقيق حُلمه الحقيقي .

* * *

- 13 -

دخلَ «مختار الدسوقي» شقته ببطء مستندًا على عكازه الخشبي بينما كان يتدلى من يده اليمنى كيس مليء بالبرتقال. كان مختار فارع الطول يميل إلى السمنة، وقد امتلأت بشرته السمراء بالنمش وأحاطت التجاعيد بفمه الكبير الذي اعوجَّ من جراء الجلطة التي تعرَّض لها، وزحفَ اللون الفضي على جوانب شعره الأسود المجعَّد .

ألقى الكيس على أحد كراسي الصالة وهو يلهث، ثم دخل حجرته ببطء. لم تكن لديه الطاقة لتغيير الجلباب الأزرق الذي كان يرتديه، فوضع العكاز بجوار(الكومودينو) ثم ألقى بجسده على الفراش .

أخذ صدره يرتفع ويهبط بسرعة وبدا على وجهه الشحوب والإرهاق كأنه عائد من سباق للجري. قال لنفسه لماذا أشعر بكل هذا التعب، رغم أنني لم أمشِ كثيرًا في السوق؟ معظم الرجال في سِنّي مازالوا يعملون بنشاطٍ وهمّة حتى الآن، وأنا الوحيد الذي أشعر بالإرهاق من أقل مجهود. يا ليت الجلطة قضت عليَّ في ذلك اليوم المشئوم. لقد حُكم عليَّ أن أقضي ما تبقى من عمري بين أربعة حوائط، عاجزًا عاطلاً مريضًا محرومًا من أبسط مُتع الحياة. لو لم أخذ تلك الوظيفة الكريهة لما تدهورت صحتي وأُصِبت بالجلطة.. لماذا دخلت الكلية الجوية ولم أدخل كلية أتخرج بعدها لأحصل على وظيفة حكومية أعمل فيها حتى سن الستين؟

لو عاد بي الزمن للوراء لغيّرت كل شيء في حياتي، ولكن للأسف الزمن لا يمشي إلا في اتجاهٍ واحد .

توقف مختار عن التحسُّر على حاله عندما اخترق أذنيه صوت جيتار صاخب .

أدرك سريعًا أن ابنه كريم هو صاحب هذا الجيتار، فانتابه الضيق وتساءل كيف يتدرب الولد على الجيتار في وجودي؟ ألا يعرف كم أكره هذا الضجيج؟ أم أنه لم يعد يأبه بأوامري؟

نادي عليه بصوتٍ عالٍ حتى يتوقف عن العزف، ولكنه لم يتلقَ أي استجابة وظلت الموسيقى مستمرة. كرَّر ندائه عِدّة مرَّات ولكن بدون جدوى.

عاد يسأل نفسه هل أصيب الولد بالصمم أم أنه يتعمَّد تجاهلي؟ يبدو أنه في حاجة ليتعلم كيف يحترم والده .

تناول العكاز وقام من سريره بعد مجهودٍ كبير. فتح باب حجرته وظلَّ يضرب بالعكاز في الأرض بأسرع ما يمكن. علا صوت الجتيار في أذنيه مع اقترابه من حجرة كريم فازداد غضبه اشتعالاً.

كان كريم مايزال خارج كوكب الأرض ولذلك لم يسمع صوت أبيه ولم يشعر بوجوده في الحجرة إلا عندما هاجمه بصياحه:

-انت يا ولد انت انطرشت ولا إيه؟

فتح عينيه مفزوعًا كأنه كان يغص في نومٍ عميق واستيقظ فجأة .

وضع الجيتار جانبًا، وتأسف لوالده لأنه لم يسمع ندائه. أشار مختار بسبابته للجيتار باشمئزاز، ثم مد يديه وراء ظهر كريم وقام بشد السلك من كُبس الكهرباء بعنف وانتزع الجيتار من يدي كريم وأمسكه ثم هتف بغيظ:

-أنا خلاص معدتش طايق الجيتار ده ماجلناش من وراه إلا وجع الدماغ والقرف. هو ده السبب في فشلك، بدل لما تذاكر قاعد بتلعب عليه طول النهار .

تشبث كريم بذارع والده بقوة وأخذ يهتف بصوت مخنتق "لا أرجوك سيب الجيتار" دفعه والده جانبًا بعنف، ثم هجم على أوتار الجيتار بأصابعه الممتلئة

وقام بتحريكها من مكانها حتى التوَت ثم قام بضرب الجيتار على أرضية الحجرة بقوة عدة مرَّات فأحدث شروخًا طولية فيه. ألقاه على الأرض، ثم ضرب كفيه ببعضهما وزفر، وقال وعلى وجهه ابتسامة الانتصار "كده خلصنا من قرف الجيتار" .

مرَّت على كريم لحظات عجزَ فيها عن الحركة والتفكير والإحساس بما حوله من هول الصدمة التي أصابته. وعندما استرد وعيه ألقى نظرة على أوتار الجيتار الملتوية فأصدر صيحة مكتومة وأخذ يجز على أسنانه ويعض على شفتيه.

ترقرقت الدموع في عينيه السوداوين وظلت تدور داخل مقلتيه حتى سقطت على جانبي وجنتيه كأنها حبَّات صغيرة من اللؤلؤ. لم يستطع استيعاب كيف تحوَّل الجيتار في دقيقة واحدة من ألة موسيقية تعزف أجمل الألحان لقطعة من الخردة بلا فائدة. أحسَّ أن والده انتزع قلبه من داخل صدره وداس عليه بقدميه حتى سحقه وحوَّله إلى أشلاءٍ صغيرة.

توقَّف عن التنفس لثوانٍ ثم شعر بالاختناق. تطلع للسقف ووضع يده اليمنى على حنجرته ويده اليسرى فوق صدره وفتح فمه كأنه سمكة على وشك الاحتضار وأخذ يستنشق الهواء بصعوبة .

لقد انتقم منه والده شر انتقام بأن قتل طاقة النور الوحيدة التي كانت تعطيه سببًا للاستمرار في الحياة. هل صوت الجيتار مزعج لدرجة تستدعي القضاء عليه بهذه القسوة؟ كيف يستطيع والده إذًا أن يتحمل أصوات الباعة الجائلين في الشارع وصراخ الناس والأدوات الكهربائية والأبواق الصادرة من السيارات، ولا يقوى على احتمال صوت الموسيقى الصادرة من الجيتار؟

إنه لن ينسى أبدًا الابتسامة التي ارتسمت على وجهه بعد أن أتلف الجيتار. إنه سعيد لأنه نجح في إتعاسه. إن والده إنسان تعيس والإنسان التعيس ينزعج عندما يرى السعادة في عيون الاخرين، ولا يمكن أن يرتاح إلا عندما يرى كل من حوله يعومون مثله في بحر التعاسة .

محاولات مختار لإتعاس كريم وإتعاس الأسرة كلها ليست نتيجة الجلطة التي أصابته فقط، بل إنها تعوَّد لأيام عمله في الجيش كضابط في القوات الجوية.

لقد اعتاد أن يتعامل مع أسرته كأنهم مجموعة من العساكر يعملون عنده في الجيش، ولذلك كان يفرض عليهم قائمة طويلة من اللوائح والممنوعات ومن يخالفها يُعاقب بالضرب والحبس في حجرته لأجل غير معلوم.

الاستيقاظ في الساعة الخامسة صباحًا حتى يوم الأجازة، والنوم في العاشرة مساءً حتى في أيام الصيف .

المذاكرة يوميًّا لمدة خمس ساعات وممنوع مشاهدة التليفزيون إلا في الإجازة. ممنوع إلقاء الألعاب في الأرض، ممنوع الجري في الشقة.

وباليته اكتفى بكل هذه اللوائح حتى يجبرهم على المذاكرة، وإنما زاد عليها نوعًا مميَّزا من التحفيز، فكان يقول لهم دائمًا "ذاكروا ذاكروا يا فاشلين علشان تبقوا متفوقين زي أولاد أعمامكم وعماتكم "

كان كريم يكره سماع اسم ابن عمه«مصطفى» لأن والده كان يعشق مقارنته به طوال الوقت، ويعايره لأنه لم يستطيع أن يحصل على الدرجات النهائية مثله.

مرَّت الأيام واستمر مصطفى في تفوقه حتى التحق بكلية الطب، بينما حصل كريم على(90%) فقط والتحق بكلية التجارة، فأسمعه والده نفس الاسطوانة القديمة التي حطمت داخله ما تبقى لديه من ثقة في النفس "يا فرحة أخويا بابنه يا ريت كان عندي ابن زيه" .

ولكن محاولته لإتعاس الأسرة اتخذت مستوى أخطر وأعمق بعد أن أُحيل على المعاش من سبع سنوات، ولم يتمكَّن من العثور على وظيفة مناسبة .

قبلَ بوظيفة مشرف على العاملين في شركة آمن، رغم أنها كانت أقل من تطلعاته واضطر أن يتحملها حتى يتمكَّن من تلبية متطلبات الأسرة.

ومن ثلاث سنوات أصيب فجأة بجلطة في المخ بعد أن تشاجر مع أحد الموظفين في الشركة. تركت الجلطة أثرًا على جانبه الأيسر، فأصبح لا يستطيع المشي إلا بالعُكَّاز، وترك وظيفته بعد أن لم يعد قادرا على العمل. ورغم أنه يحصل على معاش لا بأس به من الجيش إلا أن ارتفاع الأسعار وكثرة المصاريف دفعت الأسرة للاعتماد على مرتب والدته التي تعمل طبيبة أسنان في إحدى عيادات التأمين الصحي، وأخته ريم التي تعمل في العلاقات العامة بإحدى الشركات الأجنبية الكبرى .

أثَّر جلوس والده معظم الوقت في المنزل واضطراره للإقلاع عن التدخين والتزامه بنوعية معينة من الطعام على حالته النفسية بالسلب فأصبح سريع الغضب، متذمر، كثير الشكوى ومتقلب المزاج. ورغم أن أمه يصيبها من أبيه القدر الأكبر من التوبيخ والإهانة إلا أنها تحاول دومًا تحسين صورته في عيون الأولاد، وتأمرهم بطاعته واحترامه وعدم محاسبته على هفواته لأن نقده لهم مصدره الحُبِّ والحرص على مصلحتهم. ولكن بعد أن تحطَّم الجيتار لم يعد كريم باستطاعته أن يصدق كلام والدته عن حُبِّ والده الجارف الذي يتخفى وراء رداء القسوة والشدة.

عندما أدرك أنه لن يتمكَّن من استكمال دروس الجيتار مع الأستاذ علاء بعد اليوم، شعر بالانقباض ونفرت عروقه وكاد يبكي مجددا، ولكنه منع دموعه بعد أن رأى أخيه عمرو يدخل عليه الحجرة .

رغم أن عمرو يشبه كريم كثيرًا في الطول والنحافة وملامح الوجه الطفولي، إلا أنه كان عكسه تماما في الطباع؛ فهو جريء، خفيف الظِل، اجتماعي أو كما يقولون " ابن حظ ". عمرو هو الفرد الوحيد في هذه الأسرة الذي استطاع أن يحصل على السعادة وراحة البال لأنه نجح في التأقلم مع طباع والده بعد أن جعل شعاره في الحياة " بابا يأمر بما يريد وأنا أفعل ما أريد ".

الثانوية العامة لم تثنيه عن قضاء وقته كما يحلو في الصيد مع أصدقائه وفي النت كافية أمام العاب الفيديو. إنه لا يهتم بالمجموع الذي سيحصل عليه ولا بالكلية التي سيلتحق بها. وإنما كل تفكيره منصبّ على الاستمتاع باللحظة الحالية فقط .

رأى عمرو الأسى والحزن على وجه كريم، وقبل أن يسأله عن ما حدث له وقعت عيناه على الجيتار المحطم. مطَّ شفتيه في تأثر، ثم سأله عن ما حدث للجيتار.

حكى له كريم ما حدث بعبارات مقتضبة. رأى عمره أنه يبالغ في الحزن ويهول من حجم المشكلة التي رأى أن حلها بسيط جدًّا.

"اطلب من ريم تشتري لك جيتار جديد " .

رفض كريم هذا الاقتراح، لأنه يعلم أن أحوال ريم المادية لم تعد جيّدة بعد أن تركت الشركة الأجنبية التي تعمل فيها، والتحقت بشركة مِصرية تحصل منها على مرتب أقل .

لم يستجب كريم لمحاولات عمرو لإضحاكه والتسرية عنه، وطلب منه أن يتركه في حاله.

ظلَّ مستلقيًا فوق السرير يحدِّق في صور(بنيك فلويد وجيمي هندركيس وميتلكا) المعلقة فوق دولابه الخشبي، وأخذ يتساءل: هل واجه أعضاء هذه الفرق معارضة من أهلهم عندما قرروا أن يحترفوا الموسيقى، أم كان الطريق أمامهم مفروشًا بالورود؟

لو كنت أمريكيًّا أو بريطانيًّا لكان من حقي أن أستقل عن أهلي وأحترف الموسيقى إن أردت. ولكن لأني أعيش في مِصر سأظل طفلاً صغيرًا لا يعرف مصلحته للأبد .

سمع كريم صوت طرقات على الباب، ثم رأى والدته«فاطمة» تدخل عليه وهي ترتدي قميص نومها البنفسجي الفضفاض وعلى وجهها الخمري النحيف ابتسامة حزينة.

كانت فاطمة تبدو أحيانًا أصغر من الخامسة والأربعين بسبب قِصر قامتها ونحافتها الشديدة، وخلو شعرها الأسود الناعم من الشعر الأبيض، ولكن الخطوط التي تغطي جبهتها والتجاعيد التي تحيط بعينيها السوادوين الضيقتين كانت تشي بعمرها الحقيقي.

عرفت فاطمة بما فعله مختار من عمرو، فجاءت لتطمئن على كريم وتواسيه .

لم يزعجها منظر الجيتار المحطَّم بقدر ما أزعجها الحُزن الشديد التي كسا وجه ابنها .

حاولتْ مواساته بصوتها الهادىء الرقيق، ولكنها بدلاً مِن أن تخفف من أحزانه زادته إحباطا بدون أن تشعر.

-متزعلش أوي كده على الجيتار، إيه يعني لما تبطل تعزف عليه ده مجرد هواية.

ردَّ عليها كريم بانفعال:

-لا يا ماما العزف على الجيتار مش مجرد هواية بالنسبة لي، ده الأوكسجين اللي بنتفسه من غيره أموت وأنا حاسس إني هموت.

-للدرجة دي؟ لا إنت مزودها أوي. إيه يعني هتموت نفسك علشان الجيتار؟ إنت زعلان دلوقتي بس بالتدريج هتهدى وتنسى الموضوع وهتنشغل في حياتك.

إنها ترى الجيتار مجرَّد لعبة انكسرت وسينساها عندما ينشغل في ألعاب أخرى، ربما يكون أخطأ لأنه أخفى عنها حُلمه باحتراف الموسيقى . لقد فعلَ ذلك بسبب خوفه من ردِّ فِعلها إن عرفت. إنها أكثر حنانًا عليه من والده، ولكن هذا لا يعني أنها

ستتقبل حُلمه بسهولة. فكيف يمكن لسيدة تؤمن بأن الوظيفة الحكومية هي أفضل أنواع الوظائف أن تتقبل أن يصير ابنها عازفًا للجيتار؟

اتخذ كريم من الصمت ملجأ، لأنه أدرك أن والدته لن تفهم ما يشعر به مهما تكلم وشرح.

ربتت على كتفه وطلبت منه أن يأتي لتناول طعام الغداء، ولكنه رفضَ لأنه لم يتخيل أن تتقبل معدته المتقلصة أي طعام. تلاشت علامات التعاطف من على وجهها وردَّت عليه بضيق:

-عايز تنكد على نفسك إنت حر اللي بياكل على ضرسه بينفع نفسه لما الجوع يقرصك هتاكل لوحدك.

تركته وخرجت، فأطفأ النور واستسلم لظلام الحُجرة الذي كان انعكاسًا للظلام الداخلى الذي يشعر به. ظلَّ يتقلَّب يمينًا ويسارًا محاولا النوم حتى يهرب من الأفكار الكئيبة التي تلاحقت على ذهنه ولكنه فشل، فظل يحدق في سقف الحجرة المظلمة في انتظار أن تخف حِدة ألمه .

سمعَ صوت أقدام تقترب من الحجرة وتفتح الباب. تسلط نور اللمبة التي تتوسط أعلى الحجرة على عينيه فجأة، فأغمضها لكي يحميها من قوة الضوء، ثم فتحها تدريجيًا وحرك رأسه إلى اليمين، فرأى ريم تبتسم له وتلقي عليه التحيَّة. كانت ترتدي بيجامة بيضاء مزينة بقلوب حمراء صغيرة. وقد ربطت شعرها الأسود الناعم على شكل كعكة فوق رأسها وبدت أثار المكياج على وجهها الخمري وشفتيها المتوردتين. اتسعت عيناها البنيتان من الصدمة، وبدا على وجهها الألم عندما نظرت للجيتار المحطم، ثم تطلعت لكريم بنظرة يطلّ منها حزن ممزوج بالشفقة. لم يشك أن ريم تتفهم مدى الألم الذي يعتصره لأنها الوحيدة التي تفهمه وتدرك مقدار حُبُّه للموسيقى، فلولاها لما اكتشف موهبته .

هزَّت رأسها في ضيق وقالت له:

-ماما حكت لي على اللي حصل، أنا مكنتش فاكرة إن بابا ممكن يغضب للدرجة دي. أنا عارفة إنك متقدرش تعيش من غير الجيتار وأنا لو أقدر كنت نزلت معاك نشتري لك دلوقت الجيتار اللي انت عايزه. بس انت عارف إن الجيتارات الالكتريك بالذات أسعارها غالية وأنا داخله على آخر الشهر ومرتبى بقى بيخلص قبل نص الشهر علشان مصاريف الدروس الخصوصية بتاعه عمرو.

-مفيش داعي إنك تشرحي ظروفك أنا عارفها كويس قوي ربنا يكون في عونك، أنا خلاص عارف إنى مش هقدر العب جيتار تاني أبدا.

أختنق صوته وهو ينطق بالجملة، فصمت واجتهد لكي يمنع نفسه من البكاء. اقتربت منه ريم وهزت كتفيه برفق وهي تقول:

-بص أنا بدور على وظيفة تانية بمرتب أعلي. ادعيلي إني ألاقيها وساعتها هيجيب لك كل اللي انت عايزه. إنت مش عارف أنا زعلانة علشانك قد إيه؟

-لا أنا عارف، إنتي طول عمرك كريمة وقلبك كبير.

-بص لو لقيت جيتار مستعمل وسعره أقل من(300 جنية) ممكن أجيبه لك، ولو عايز تكمل دروس الجيتار أنا معنديش مشاكل أدفع لك تمنها.

-لا خلاص مش هينفع إنتي أولى بتمن الدروس. كفاية عليكي كده.

اصطدمت عينا كريم رغما عنه مجددا بالجيتار المحطم، فقام من فراشه وانحنى ليحمل من على الأرض وأخذ يفكر فيما يمكن أن يفعله بالجيتار بعد أن صار غير صالح للعزف. إنه لا يمكن أن يتخلى عن صديقه العزيز حتى لو أصبح بلا فائدة. لن يعطيه لبائع الروبابيكيا ولن يلقيه في صفيحة القمامة. طوّقه بذارعيه كأنه طفل جريح، وسند رأسه على ظهره لعدة دقائق لكي يستنشق رحيق الذكريات الجميلة التي جمعته به.

ألقى عليه نظرة الوداع، ثم وضعه في قاع الدولاب بجانب ملابسه وكتبه القديمة.

* * *

- 14 -

أشرقت شمس يوم الجمعة، ولكن نورها لم ينجح في تبديد الكآبة التي فرضت سيطرتها على كريم الذي لم يتمكن من تناول إفطاره، ونزل بصعوبة ليصلي الجمعة في المسجد. بعد صلاة العصر بقليل فوجىء بتليفونه المحمول يرن، نظر لشاشته فرأى رقم هيثم .

فتح التليفون ورد عليه بصوت ضعيف وعندما سأله هيثم إذا كان هناك شيئًا يضايقه، لم يملك القدرة على الحديث عن هذا الموضوع المؤلم. أخبر هيثم أنه يمرُّ بمشكلة سيحكي له عنها فيما بعد. لم يهتم هيثم باستجوابه، وأخبره بصوت متحمس أنه يحمل له خبرا مفرحا سينسيه كل أحزانه ومشاكله .

تصور كريم أن الخبر يخصّ سها، ولكنه فوجئ بهيثم يخبره أنه تعرَّف بالأمس من خلال أحد أصدقائه على طالب في الفرقة الثالثة بالكلية اسمه«هاني»، وعرف أنه مغن في فريق اسمه"ملائكة الروك" وهو فريق مختصص في عزف أغاني الروك القديمة والحديثة. عرف أن الفريق على وشك إحياء حفل في أحد المقاهي الراقية الأسبوع المقبل، ولكن هاني يمر بمشكلة في إيجاد عازف جيتار بعد أن تشاجر معه العازف القديم وترك الفرقة .

انتهز هيثم تلك الفرصة ليخبره أن صديقه عازف جيتار بارع، فطلب هاني أن يتعرَّف عليه ويستمع لعزفه لعله ينضم لهم .

مرَّت على كريم ثوان من الفرح، ولكن سرعان ما لوثها الإحباط والحسرة .

لو تلقى هذا الاتصال من يومين فقط لكان أسعد إنسان في الكون. لقد قضى عامين يبحث عن أشخاص يجيدون عزف الجيتار والدرامز ويحبون موسيقى

الروك لكي يكوّن معهم فريقًا غنائيا، فكيف بعد أن تحطم جيتاره وتحطمت معه أماله الموسيقية يتصل به هيثم به ليبشره أن الأشخاص الذين بحث عنهم طويلاً موجودون ومستعدون لمقابلته .

سوء الحظ ليس ألا يأتي للإنسان ما يريده، ولكن أن يأتيه دائمًا بعد فوات الأوان. إنه يخاف أن يقضي كل عمره يجري وراء أحلامه وعندما يقترب منها ويكاد يمسكها تعاود الهروب منه كالزئبق .

اضطر أن يخبر هيثم بحقيقة الظروف التي تمنعه من مقابلة هاني. صمت هيثم لعدة ثوان وبعد أن استوعب الموقف رفضَ أن يستجيب ليأس كريم.

-بص قابل هاني واحكي له ظروفك، يمكن يلاقي لك جيتار تعزف عليه.

-لا مفيش داعي أنا حتى مليش نفس أعزف خلاص بعد اللي حصل ده.

-طب بس إوعي تتسرع علشان متندمش اهدى وفكر يمكن تلاقي حل وابقى رد عليا بكرة.

مرَّ يوم الجمعة وجاء يوم السبت، وظلَّ كريم يعصر ذهنه ويفكر، وفي النهاية لم يجد الحل. تحول يوم السبت الذي كان ينتظره بفارغ الصبر كل أسبوع إلى أتعس يوم في حياته. قرَّر ألا يعتذر للأستاذ علاء لأنه لم يشأ أن يهيج ألمه بالحديث عن موضوع تحطم الجيتار. لقد دفع ثمن كل الحِصص السابقة ولم يعد مدينًا للرجل بأي مال، فليكتف بهذا القدر ويطوي صفحة الموسيقى من حياته للأبد.

عندما حلَّ الليل وجاء موعد الدرس أحاط به الحزن من كل جانب حتى أثقل عليه، فقرر أن يهرب منه بمغادرة المنزل. ارتدى ملابسه على عجل وخرج .

ظلَّ يمشي في الشارع لمدة طويلة بدون هدف، ثم قادته قدماه بدون أن يشعر لكورنيش البحر. كان مثل كثير من الناس، عندما يمرُّ بحالة نفسية سيئة يلجأ

للبحر لأنه يرى البحر بروعته وعظمته واتساعه قادر على احتواء كل أحزانه وهمومه .

عندما وصل لشارع البحراستقبله تيارٌ قوي من هواء الشتاء القاسٍ في برودته. ولكنه قرَّر أن يتحدى الطقس السيء ويمضي قدمًا.

قبل أن يعبر الطريق رنَّ جرس تليفونه. رأى رقم الأستاذ علاء فدق قلبه بعنف. لم يتوقع هذا الاتصال ولم يرغب في الردّ عليه، لأنه لم يكن لديه استعداد للاعتذار والشرح. ولكنه تحرج من تجاهل هذا الرجل الذي يحبه ويقدره. فتحَ التليفون وردَّ عليه بصوتٍ مرتجف .

تحدَّث الأستاذ علاء معه بانفعال:

-إيه يا كريم أنت أول مرة تتأخر عن الدرس فيه حاجة حصلت لك أو لحد من أسرتك؟

طمأنه كريم أنه وأسرته بخير. فهدأ الأستاذ علاء من نبرة صوته، ولكن رغبته في معرفة سبب تخلُّف كريم عن حضور الدرس لم تهدأ.

فشلَ كريم في اختراع أكذوبة يغطي بها الحقيقة، فأخبره أنه لن يحضر الدروس بعد الآن، أما السبب يطول شرحه وهو لا يريد التحدُّث عنه لأن الوقت ليس مناسبًا.

صمتَ الأستاذ علاء للحظات ثم سأله بارتياب:

-والدك هو اللي منعك؟

صمت كريم أكد للرجل أن الإجابة هي نعم. طلب منه أن يأتي للمركز ويشرح له الأمر بالتفصيل فهمس كريم بنبرة حزينة:

-أنا مش عايز أضايق حضرتك بمشاكلي.

-لا يا سيدي أنا معنديش مانع أتضايق، وبعدين إنت مش قلت لي إنك بتعتبرني زي أخوك الكبير في حد بيخبي حاجة عن أخوه الكبير؟

شعرَ كريم بالخجل من إصرار الأستاذ علاء على دعوته، فلم يجد مفرًّا من الذهاب

إليه. كانت هذه هي أول مرَّة يذهب فيها للمركز وهو يشعر بالحزن وخيبة الأمل .

رحَّب به الأستاذ علاء بحفاوته المعهودة، وطلبَ منه أن يجلس ويحكي له عن مشكلته بالتفصيل الدقيق. اكتفى كريم بإخباره بما حدث في جملة واحدة "بابا كسر الجيتار"

لم يحتاج الأستاذ علاء للاستماع للتفاصيل حتى يفهم ما يشعر به كريم .

أمطره بنظرات تعاطف ومحبَّة، ثم لاذ بالصمت واستغرق في التفكير .

فجأة لمعت عيناه وطلب منه أن يأتي معه للمخزن. مشى كريم وراء الأستاذ علاء حتى دخلا المخزن سويًّا، ثم قام الرجل بفتح باب دولاب كبير وأخرج منه جيتارًا باهتًّا احمر اللون، تغطيه طبقة كثيفة من الأتربة .

أخذ فوطة صفراء ملقاة بجانب الدولاب، ومسح بها سطح الجيتار سريعًا، فتطايرت الأتربة من فوقه. قام بتوصيل سلك الجيتار في مكبس الكهرباء وأعطاه لكريم وطلب منه أن يجربه. نظر كريم للجيتار بذهول كأنه أول مرَّة في حياته يرى جيتارًا. أخذ يضبط مفاتيحه ثم عزف عليه نفس المقطوعة التي كان يعزفها على جيتاره قبل أن ينكسر. بدا له صوت الجيتار جيّدًا رغم أنه لم يتمكن من العزف بمهارته المعتادة. طلب منه الأستاذ علاء أن يتوقف عن العزف، ثم سأله عن رأيه في الجيتار .

ابتسم وأخبره باستحياء أنَّ صوته جيّدًا. فأخبره علاء أنه اشترى هذا الجيتار من سبع سنوات وعندما ظهر موديل أحدث من الجيتارات اشتراه وركنَ هذا الجتيار

في المخزن. قال له أنه يعلم أن مستوى هذا الجيتار أقل من مستوى جيتاره الذي انكسر، لكنه سيفي بالغرض حتى يتمكن من شراء جيتار جديد. هزَّ كريم رأسه موافقًا على كلام أستاذه، وأخذ يحدق في الجيتار وهو لا يصدق أن مشكلته تمَّ حلها بهذه السهولة .

اقترب منه الأستاذ علاء، ووجه له نظرة محذِّرة ثم نصحه ألا يحتفظ بهذا الجيتار في المنزل حتى لا تتكرر نفس الحادثة. أما بالنسبة للتدريب فبإمكانه أن يأتي للمركز في أي وقت حتى الثامنة مساءً ويتدرب على المقطوعات كما يشاء، مجانًا في أحد الحجرات الخالية .

أخذ كريم يحدق في وجه أستاذه البيضاوي الممتلىء كأنه يبحث في تقاسيم وجهه عن شيء يساعده ليقول كلامًا مناسبًا يعبِّر به عن شكره، ولكنه أدرك في النهاية أن كل كلمات الشكر والامتنان المعتادة لن تكفي للتعبير عن ما يشعر به تجاه هذا الرجل العظيم.

ابتسم له وسأله بفضول:

-هو حضرتك بتساعد كل تلاميذك زي ما بتساعدني؟ .

ندبتْ عنه ابتسامة خجولة ثم قال له:

-بساعد اللي محتاجين مساعدة ويستاهلوها. أنا راجل بتاع موسيقى ومقدرش ألاقي واحد عنده موهبة وفيه عقبة واقفة قدامه ومحاولش إني أشيلها .

-أنا مش عارف أقول إيه لحضرتك؟ بس أنا عمري ما هنسى اللي عملته معايا أبدًا، وأنا مستعد إني أعمل لك أي حاجة علشان أرد لك المعروف ده .

-اللي بعمله ده حاجة بسيطة بس، لو عايز ترد لي الجميل يبقى عايزك توعدني بحاجة مهمة قوي .

اقترب الأستاذ علاء من كريم وأمسك بذراعه، ثم وجَّه له نظرة جادة ثاقبة وقال:

-اوعدني إنك تستمر في الموسيقى مهما كانت الظروف. بلاش تيأس وخلي عندك ثقة في ربنا.

ارتعش حسد كريم وهو ينظر للشعاع القوي الذي أطلَّ من عيني الأستاذ علاء وهو يحدثه وبعد أن انتهى من الكلام ردَّ عليه بثقة:

-أوعدك.

* * *

-15-

كان كريم هو المحور الأساسي لحديث سها ونهلة في طريق عودتهما من المقهى. أخذت كل منهما تنافس الأخرى في تقليده وهو يتأتأ قبل أن يقول كلمة أنا .

لو عرفت سها أن الجلسة ستكون مسلية ومضحكة لهذه الدرجة لما خافت ولا ترددت في المجيء.

قالت لها نهلة وهي تقهقه:

-صاحب هيثم ده ولد تحفة، عارفة لو كانت القعدة طولت شوية كنت اتسليت عليه وحاولت أعاكسه وكنا هنضحك ضحك.

-حرام عليكي ده غلبان.

-طالما صعبان عليكي يبقى انتي أكيد وقعتي في حبه. مش كده؟ اعترفي .

-لا بلاش دماغك تروح لبعيد. كل الحكاية إنه صعبان عليا.

لقد وخزها ضميرها فعلاً عندما رأت ذلك الحرج المؤلم يغطي وجهه بعد أن ضحكت عليه مع نهلة. لقد كانت متأكدة أنه سيحاول فتح حديث معها بعد أن رأت الإعجاب يطلُّ من عينيه، ولذلك حضّرت نفسها لكي ترد عليه بطريقة باردة حتى تصده. ولكنها فوجئت بصمته وخجله الذي غطاه بالانشغال في المذاكرة.

لقد سمعت كثيرًا أن هناك رجالاً يعانون من الخجل، ورأت أمثلة لهم في الأفلام الكوميدية، ولكنها لم تصدق أنهم موجودون في الواقع حتى قابلت هذا الولد.

كان من المفترض أن تكون سعيدة أنه لن يضايقها، ولكن حالته الغريبة أثارت فضولها. أخذت تحدق فيه باستغراب كأنه شخص قادم من عالم آخر، عندما رأته وجهه يتقلص وعيناه تتسعان خوفًا منها رغم أنها لم تفعل أي شيء يثير ذعره.

هل أهله المحافظين منعوه من الاختلاط بالفتيات فتصوَّر أن البنات كائنات مرعبة؟ أم أنه تعرَّض لصدمة عاطفية جعلته يخشى من الاقتراب من أي فتاة؟

لم تشأ أن تشغل عقلها طويلاً في التفكير فيه لأنها لن تقابله مجددا .

لقد أخبرت نهلة بصراحة أنها لن ترافقها مرَّة آخرى إلى مثل هذه الجلسات.

صحيح أن هذه الجلسة مرَّت بسلام، ولكن الجرة لا يمكن أن تسلم كل مرة.

* * *

بعد أسبوع التقت نهلة بسها في الكلية، ثم اقتربت منها وعلى وجهها ابتسامة متوسلة وهمست قائلة "أنا عايزة أطلب منك خدمة؟ ".

أدركت سها نوعية الخدمة المطلوبة منها من نظرة نهلة، ولذلك قاطعتها قبل أن تبدأ في الحديث قائلة بلهجة جازمة "لا أنا عارفة الخدمة دي ومش موافقة اني أعملها تاني ".

بدا على نهلة الامتعاض ثم طلبت من سها أن تستمع لها حتى تكمل حديثها وبعد ذلك يمكن أن تعلن الموافقة أو الرفض. شرحت لها أن كريم صديق هيثم يعزف الجيتار مع فريق روك والفريق سيقيم حفلاً في أحد المقاهي الراقية يوم السبت ليلاً، وهيثم يريدها أن تحضر الحفل معه .

اندهشت سها عندما عرفت أن كريم الشاب الخجول يعزف الجيتار. ومع ذلك أصرَّت على رفضها.

-طب أنا مالي ما تروحي معاه لوحدكم، وبعدين إنتم هتبقوا قاعدين في حفلة وسط الناس يعني انتي مش محتاجه حد يحرسك .

-لا ما الناس هيبقوا قاعدين على ترابيزات وأنا مش عايزة أبقى قاعدة معاه على ترابيزة لوحدنا علشان ما ابنش إني صاحبته.

-أومال انتي إيه؟

انعقد لسان نهلة ثم تجهمت ونظرت في الأرض، بينما تعجّبت سها من المجهود الجبار الذي تبذله نهلة لكي تخفي علاقتها بهيثم. عادت نهلة تتوسل لها مجددا ولكن سها أصرَّت على الرفض، وأعطت لرفضها سببًا قويًا حتى لا تجرؤ نهلة على فتح الموضوع معها مجددا.

-أهلي مش ممكن يوافقوا على خروجي بالليل معاكي.

-ملكيش دعوة بأهلك أنا هتصل بمامتك وهقنعها. هقولها إنك هتيجي تذاكري معايا في البيت.

-هتقول لبابا وأنا متأكدة إنه مش هيرضى.

-طب لو أهلك وافقوا توافقي تيجي؟

وعدتها أن تذهب معها للحفل إذا وافق والديها، فقط لأنها كانت متأكدة أنهما سيرفضان خروجها بالليل بمفردها. ولكنها صُدمت عندما دخلت عليها والدتها بعد يومين لتبشرها أنها نجحت بصعوبة في انتزاع موافقة والدها على ذهابها عند صديقتها، ثم حذرتها من التأخر في العودة للمنزل عن الساعة التاسعة .

أحسَّت سها أنها أوقعت نفسها في ورطة بالموافقة بعد أن تم إبطال حجتها ولم يعد لديها عذر يمنعها من الوفاء بوعدها لنهلة. ولاحظت نهلة عدم رضاها عن مرافقتها للحفل، فحاولت أن تثير فضولها وحماسها لحضور الحفل بأن وجّهَتْ لها سؤالاً خبيثًا.

-طب مش عايزة تشوفي كريم وهو بيعزف جيتار؟ أنا متأكدة إن منظره هيبقى نكتة وممكن نقعد تتريق عليه مع بعض. دي هتبقى حفلة تحفة مش لازم تفوتك .

ندت عن سها ضحكة ساخرة عندما تخيلت منظر كريم وهو يضع الجيتار فوق صدره ويقف أمام جمهور كبير، ثم شعرت بالإشفاق عليه، وتساءلت كيف يمكن لشخص لا يستطيع أن يتحدث مع فتاة أن يواجه جمهورًا كبيرًا؟

ربما يكون كريم موهوبًا بالفعل، وربما يكون عازفًا سيئًا، ولكن من المؤكد أن الحفل سيكون مسليًا بالنسبة لها وهي في حاجة لمشاهدة أي شيء مسلٍ يُخرجها من رتابة الحياة اليومية التي تقضيها بين حضور المحاضرات والمذاكرة والاهتمام بشئون المنزل .

* * *

وقفتْ سها في محطة ترام"جانكليس" وما إن رأت نهلة تطل برأسها من عربة السيدات. فصعدت سريعًا للعربة وجلست بجوارها. نزلت الفتاتان في محطة رشدي وظلتا تمشيان في عِدة شوارع حتى وصلتا لمقهى مكتوبٌ عليه بالخط الأسود العريض

"Rock Café"

كان هيثم يقف في انتظارهما عند المدخل، وعندما رأهما تدخلان عليه رحَّب بهما، ثم دعاهما للصعود معه للدور الأعلى حيث سيُقام الحفل .

كان تصميم مقهى الروك مشابهًا للمقهى الذي جلسوا فيه في سموحة وإن كان أضيق منه في المساحة، فالمكان لا يسع أكثر من ثلاثين شخصًا. سألهما هيثم إذا كانتا تريدان الجلوس في المقدمة أو على الكنبة التي تقع في الخلف، فاختارت نهلة الخلف بسبب خوفها من تأثر أذنيها بالصوت العال. جلست نهلة في المنتصف بينما جلست سها على يمينها وهيثم على يسارها.

أخذت سها تتأمل المكان، فلاحظت وجود صور بالأبيض والأسود والألوان معلقة على حائط المقهى لرجال أجانب مهوشين الشعر، يرتدون ملابس غريبة مزركشة، ويضعون المجوهرات في أذنهم كالسيدات، ويمسكون بجيتارات ويقفزون في الهواء فخمنت أنهم مغنين روك.

كانت كل الطاولات ممتلئة بالشباب والفتيات ما عدا طاولة واحدة في الجانب كان يجلس حولها ثلاثة رجال في منتصف العمر. نظرت سها لمقدمة الحجرة، فلاحظت وجود جيتارات موصولة بأسلاك كهربائية وملقاة على الأرض وبجانبها آلة دارمز وأورج موضوع فوق كرسيٍّ عالٍ. وبعد دقائق قليلة رأت أربعة شباب يصعدون سلالم المقهى. كان في مقدمتهم شابٌ أسمر قصير أهوش الشعر، ثم تبعه شابان، أحدهما ضخمًا بدينًا، والأخر قصير ونحيف يرتدي نظارة طبية سميكة، وأخيرا رأت كريم يصعد وراءهم. كان يرتدي بنطلونًا جينز أسود وبلوفر كحلي. وكان شعره الأسود الخشن يبدو مبتلاً بفعل(الجيلّ) الذي ملأه .

التقط كريم أحد الجيتارات الملقاة على الأرض، بينما حملَ الشاب ذا الشعر المهوش الجيتار الأخر ووقف في المنتصف، فأخذ الحاضرون يصفقون له ويهتفون باسمه " هاني هاني ". أومأ برأسه مبتسما لهم وشكرهم على حضورهم لحفل فريق"ملائكة الروك" ثم عرّفهم سريعًا على أسماء أعضاء الفريق.

بدأ بكريم باعتباره أحدث عضو في الفريق، ثم أشار للشاب السمين الجالس أمام الدارمز وأخبرهم أن اسمه «سامر». وأخيرا أشار للشاب النحيف ذا النظارة الذي كان يجلس أمام الأورج وأخبرهم أن اسمه «أيمن».

بعد أن انتهي هاني من تعريف الجمهور بالفريق، تمنى لهم قضاء سهرة ممتعة.

أدخل كريم ذراعه في الحزام المربوط بالجيتار، ثم فرد ظهره وبدا عليه الحماس والترقب للبدء في العزف. بدأ عازف الدرامز في الضرب بالعصا فوق آلته بقوة، فخرجت منها إيقاعات أحدثت اهتزازات عنيفة في المكان. ثم بدأ كريم يلعب على أوتار الجيتار بأصابعه بسرعة، بينما أخذ هاني يرفع رأسه ويخفضها تمايلاً مع

الإيقاع وهو يهز أصابعه فوق جيتاره، ثم بدأ في الغناء بلهجة أمريكية سليمة وصوت رخيم قوي يحمل غضبًا مكتومًا .

أخذ الجمهور يصفقون ويهزون رؤوسهم تمايلاً مع الأغنية، بينما بدأ بعضهم يردد كلماتها مع هاني في حماس. ثبتت سها بصرها على كريم وهو يرقص برأسه وجذعه مع الموسيقى ويحرك أصابعه على أوتار الجيتار بتمكن ومهارة، فيخرج منها نغمات أعجبتها رغم أنها كانت تستمع لها لأول مرَّة .

رأت نهلة تنظر لهيثم باندهاش وتقول:

-أنا مكنتش فاكرة انه بيعرف يعزف حلو كدة.

ضحك هيثم وقال لها بزهو:

-مش قولتلك .

فتبادلت مع سها نظرة تنم عن عدم التصديق، ثم تظاهرت بالأسف وهي تقول:

-يا خسارة مش هنعرف نتريق عليه .

انتهت الأغنية الأولى بتصفيق مدوٍ وصفارات تشجيع من الجمهور، فارتسمت على وجوه أعضاء الفريق ابتسامات الشُكر والامتنان. ومع تتابع الأغنيات ازداد حماس كريم وباقي الفريق واندماجهم في العزف والغناء. وجدت سها شفتيها تتحركان بلا وعي، وأخذت تردد مقطع من أحد الأغاني بينما تمايلت رأسها يمينا ويسارًا. اندهشت من سرعة اندماجها مع تلك الأغنيات، رغم أنها كانت تنظر لموسيقى الروك على أنها ليست موسيقى، وإنما ضجيج وصراخ لا معنى له ولا هدف منه سوى الإزعاج. ولكن براعة كريم في العزف والإحساس والألم الذي يحمله صوت هاني وهو يغني ويصرخ، لمس قلبها وجعلها تقع في حُبِّ موسيقى الروك.

أعلن هاني عن اقتراب الحفل من نهايته، فخرجت صيحات من الجمهور تطالب الفريف بعزف أغنية أخرى. اندهشت سها عندما نظرت للساعة واكتشفت أنَّ الحفل بدأ منذ أكثر من ساعة وودت مثل الجمهور أن يستمر الحفل لساعة آخرى .

أحسَّت وهي تحدق في وجه كريم النابض بالحياة أن هذا العازف البارع الذي يقف أمامها ويشع ثقة وجاذبية لا يمكن أن يكون هو نفسه الشاب الذي لم يستطع أن ينطق بجملة واحدة مفيدة عندما جلست معه من أسبوع. إنه فنان يمتلك موهبة موسيقية متفردة ويعزف على الجيتار بتمكن كأنه الذي اخترعه، ويعرف كيف يخرج من أوتاره نغمات ساحرة تحرِّك القلوب وتبهج الأرواح وتكشف للبشر عن الجمال الخفي للحياة .

شكرَ هاني الجمهور على تشجعيهم وحماسهم، ووعدهم بحفل آخر قريبًا، ثم أخبرهم أنهم سينهون الحفل بأغنية فري"البيتلز" الشهيرة ."Hey Jude"

هتفَ الحضور في حماسٍ، فأدركت سها أن هذه الأغنية مشهورة. طلب هاني من الجمهور أن يغنوا معه آخر مقطع من الأغنية.

بدأ إيقاع الأغنية بطيئا وحالمًا تصاحبه أنغام الكيبورد، ثم تسارع الإيقاع عندما أخذ هاني يردِّد بحماس وعاطفة جياشة:

"Better better better"

ثم وقفَ الجمهور ومن بينهم سها ونهلة وأخذوا يتمايلون يمينا ويسارا كأنهم أعضاء في كورس ويرددون وراء هاني وباقي الفريق.

"Na Na Na Na Hey Jude"

وبعد أن انتهى الفريق من العزف نظرت سها لكريم وأخذت تصفق له بحرارة وحماس. انتبه لوجودها فصوَّب عينيه عليها، وبدا على وجهه الدهشة والفرحة لرؤيتها بين الحاضرين.

حيّاها بابتسامة عريضة، وإيماءة من رأسه فمنحته ابتسامة خجولة. رأت شفتيه تتحركان ويخرج منهما كلامًا لم تسمعه بسبب ضجيج المكان وبعد المسافة بينهما. لاحظ هيثم الابتسامات المتبادلة، بينما فاقترب منها وسألها عن رأيها في عزفه رغم أنه قرأ الإجابة على وجهها .

ردَّت عليه بحماس "عزفه عجبني جدا فعلا موهوب" وأيدتها نهلة في رأيها، فبدا على هيثم الفخر ثم قال لسها "ده هيفرح جدا لو عرف إنك مبسوطة من عزفه، تعالي سلّمي عليه وقولي له الكلام ده بنفسك " .

شعرت سها أنه يستحق أن تشكره فعلا على المتعة القصيرة التي منحها لها، ولكنها لا تعرف لماذا داهمها الخجل من الحديث معه. ضحكت على نفسها لأنها تسخر من خجله رغم أنها تتصرف مثله .

قررت أن تقاوم خجلها، فسارت مع هيثم ونهلة لمقدمة القاعة. رحَّب كريم بهم ثم شكرهم على حضور الحفل، وتمني أن تكون الأغنيات أعجبتهم .

أشار هيثم لسها وأخبره بحماس أنها معجبة جدا بعزفه. بدت عليه السعادة الممزوجة بالدهشة وهو يسألها "معقول؟ ". هزت رأسها للأمام في خجل ثم قالت له "إنت شاطر وهيبقى لك مستقبل كويس". كانت تريد أن تسأله عن سِرِّ براعته في العزف وإذا كان ينوي احتراف الموسيقى أم سيتخذها هواية فقط، ولكن خجلها ألجمها.

بدت عليه السعادة والامتنان بثنائها عليه فظل يشكرها عدة مرات ويؤكد لها أن تقديرها له شهادة يعتز بها. زادها شكره وامتنانه خجلا لدرجة أنها أحست بالرغبة في ترك المكان فورا. قبل أن ترحل رأت وجهه ينطق بكلمات كثيرة ولكن فمه ظل

مغلقا. قبل أن تبتعد نادى عليها. التفتت له، فتلعثم ثم قال لها بصوت مرتجف "متشكر أوي" .

* * *

كان من المفترض أن يعود كريم لمنزله منتشيًا بالسعادة لأنه حقق ما كان يحلُم به وجعل حُبُّه للجيتار يتغلب على خجله فخرج من نفسه وتحول لشخصٍ آخر بعد أن نسى نفسه وأطلق العنان لموهبته فنجح الحفل وأحبه الناس وأغرقوه بالإعجاب والثناء. ولكنه كان محبطًا لأن خجله لم يرض بالهزيمة التي مني بها بعد أن نجح في العزف بثقة أمام الناس، فأصرَّ على أن يكبّله ويقهره حتى لا يتمكن من الحديث مع سها.

أخذ هيثم يؤنبه بعد مغادرة سها للمقهى قائلاً:

-متشكر أوي متشكر أوي. هو ده اللي عرفت تقوله .

حاول كريم أن يدافع عن تصرفه:

-أنا خايف اطلب منها نتعرف على بعض اكتر لترفض

-وماله لما ترفض زِنّ عليها تاني لغاية لما تقبل، خلي قلبك جامد.

-طب هي مش هتيجي تاني مع نهلة لما تتقابلوا.

-لا دي نهلة جابتها بالعافية. إنت كده خلاص استنفذت كل الفرص اللي قدامك.

رفض كريم أن يتقبل فكرة أنه لن يستطيع الحديث معها مجددا بعد أن رأى عينيها تبرقان بالإعجاب وهي تمدحه. وقرَّر أن يدخل معركة جديدة ضد الخجل حتى يلحق به هزيمة منكرة .

* * *

توجه كريم بخطوات متذبذبة مترددة في صباح اليوم التالي لكلية الأداب .

بحث بين الطلبة والطالبات عن سها، وعندما لم يجدها تسلل له خوفه القديم وهمس في أذنيه "لا فائدة من البحث عنها إنها لم تأت اليوم اهرب سريعًا، من المكان قبل أن تضع نفسك في موقف محرج ". وقبل أن يولي ظهره للكلية اصطدمت عيناه بسها التي كانت تتجه لمبنى الكلية بخطوات سريعة نشيطة .

وقف متصلبا في حالة شلل عقلي وجسدي وهو يراها على وشك الدخول الكلية، ولكن قبل أن تصعد أول سلم في المبني هتف باسمها بصوت مرتجف. أدارت رأسها للخلف وتطلعت له بدهشة ثم اقتربت منه وسألته بقلق:

-فيه إيه يا كريم عايز إيه؟

كان هناك صوتا داخل عقله يصيح " انطق اتكلم ". حاول أن يتكلم ولكن أحباله الصوتية رفضت أن تقوم بوظيفتها فظلت شفتاه تتحركان بدون صوت.

ظنت سها من الخوف والتوتر البادِيَين على وجهه أن هناك سببًا مهمًّا دعاه للمجيء، فسألته عن سِرّ صمته، وعندما لم يرد سألته إذا كان هناك أمر مُهمًّا يريد أن يقوله لها، ضغط على شفتيه وتحركت عيناه في كل الاتجاهات ولكنه لم ينطق .

عندما رأها تبتعد عنه أدرك أن استمراره في الصمت معناه الانهزام. نطقَ باسمها، فالتفتت ناحيته ونظرت له بغيظ وهي تقول "فيه إيه تاني؟ " فهمس بصوت ضعيف: أنا معجب بيكي.

* * *

-16-

امتقع وجه كريم وداهمه الحرج وهو يرى سها تغطي فمها بيدها اليمني وتمسك بطنها بيدها اليسرى وتطلق ضحكات متقطعة. لم يدرك أن ضحكها هو تغطية لشعورها بالإحراج من الاستماع لاعترافه، وظنَّ أنه استخفافًا بمشاعره، فلم يجد بُدًّا من الاعتذار لها. ولكن اعتذاره زادها انغماسًا في الضحك حتى رأت زملائها يتطلعون لها باستغراب وعلى وجوههم علامات الاستفهام، فاضطرت أن تتوقف عن الضحك. حدجته بنظرة ساخرة وقالت له "أنا مش بتاعة صحوبية " ثم تركته ودخلت الكلية .

* * *

جلست سها تحدق في شباك المدرج وتفكر في ما قاله كريم لها منذ قليل .

لم يدهشها اعترافه بقدر ما أدهشها ردّ فعلها؟ سألت نفسها لماذا لم أصده بعنف أو أنهره أو أشتمه مثلما أفعل مع الشباب الذين يضايقونني في الشارع ويمطروني بعبارات الغزل المخجلة ويصرون على معرفة اسمي. ربما لأن هناك فرقًا شاسعًا بينه وبينهم. إنه ينتمي لفصيلة نادرة جدًّا من الشباب. لو كان كل الأولاد مثله لكانت حياة البنات أفضل كثيرًا .

اعترفي يا سها. أنتِ تكنين له المشاعر، ولكنكِ لا تريدين الاعتراف بالحقيقة لأنكِ تخافين من تبعاتها.

لا أنا لا أحبه ولستُ حتى معجبة به. كل ما في الأمر أنني أحترم أدبه الجم وخجله، ولن أنكر أنني رأيت في وجهه الطفولي وبريق عينيه حزنًا وانكسارًا حرَّك فضولي تجاهه، وجعلني أرغب في استكشاف شخصيته التي تحمل جانبين متناقضين بين

ثقته في موهبته الموسيقية وعدم ثقته في نفسه، لكني لست مستعدة لمخالفة القواعد التي رباني أهلي عليها من أجله .

لقد خالفتِ تلك القواعد بالفعل يوم كذبتِ على أهلكِ لكي تحضري حفلته .

لقد فعلت ذلك من أجل نهلة ولكني لن أكرر تلك التجربة مجدَّدا .

ألم تقولي ذلك آخر مرة وفي النهاية ذهبتِ؟ اعترفي بالحقيقة. لقد ذهبتِ لأنكِ أردتِ رؤيته .

لن أعترف لأنه لا يوجد شيئًا يستحق الاعتراف..

استيقظت سها من دوامة الحوار العقلى التي أستولت عليها على صوت نهلة وهي تسألها:

-مين اللي شاغل بالك يا جميل؟

ردَّت على نهلة بانفعال:

-مفيش حاجة.

كأن الشرود جريمة بشعة لابد أن تدفعها عن نفسها. قرَّرت ألا تحكي لنهلة شيئًا، خوفا أن يصل كلامها لكريم عن طريق هيثم، ولكنها فوجئت أنَّ سِرّها انكشف عندما جاءت نهلة بعد يومين تلومها وتعاتبها لأنها لم تخبرها بما قاله كريم لها رغم أنها أقرب صديقة لها .

دارت شعورها بالحرج من نهلة بأن قالت لها:

-الموضوع بسيط وأنا مرضتش أديله أكبر من حجمه .

نست نهلة غضبها من سها بسرعة وقالت لها مشجعة:

-عموما برافو عليكي إنك رفضتيه، ده ولد أهطل وانتي تستاهلي أحسن منه.

أحسَّت سها بالانزعاج من استهزاء نهلة بكريم، ولكنها خافت أن تبدي اعتراضها حتى لا تؤكد لنهلةشكوكها. كل ما في الأمر أنها تشفق عليها ولكنها لا تريد أن يكون لها علاقة به، ولذلك يجب أن تصر على صدّه حتى يبتعد عنها.

اطمأنت سها أن كريم لن يحاول الاقتراب منها عندما مرَّ أسبوعان بدون أن يظهر، ولكنها أدركت أن القِصَّة لها فصل آخر عندما رأته يقف في انتظارها أمام الكلية. ابتسم لمَّا رأها وبدت اللهفة في عينيه وهو يلقي عليها التحيَّة.

ردَّت على ابتسامته بالتجهم وسألته بنفاذ صبر:

-إنت جاي ليه تاني عايز مني إيه بالظبط؟

انكمش وأخذ ينظر لها بخوف كأنه أرنب مذعور. فصاحت فيه بلهجة آمرة:

-من فضلك ما تحاولش تتكلم معايا ولا تيجي هنا تاني .

أولته ظهرها وقبل أن تبتعد عنه هتف بصوت ملهوف:

-أنا مكنتش جاي علشان أضايقك. أنا كنت بس عايز أعزمك على الحفلة الجاية اللي هنعملها في نفس الكافية .

توقفت عن المشي، ثم أدارت رأسها للخلف ونظرت له بطرف عينيها مما شجعه على استكمال حديثه:

-أنا كنت سعيد جدا بحضورك الحفلة اللي فاتت وتشجيعك ليا، وهبقى أسعد لو شرفيتي بحضورك تاني. الحفلة هتبقى يوم السبت الجاي الساعة 7 إن شاء الله.

أدبه في الحديث جعلها تشعر بالذنب لأنها احتدت عليه. طأطأت رأسها في الأرض وفكرت في الاعتذار، ولكن كبريائها منعها، فقالت له بطريقة رسمية:

-شكرا على دعوتك، لكن أنا مش هبقى فاضية، عندي مذاكرة كتير.

اختلج وجهه وبدا عليه الإحباط، فتوقعت أنه سيترجاها لكي تأتي، ولكنه فاجأها بأن قال لها بطريقة مهذبة:

-زي ما تحبي.

ثم هزَّ رأسه مودعا وابتعد عنها .

* * *

لم تستطع سها أن تمنع نفسها من التفكير في دعوة كريم وهي في طريق العودة لمنزلها. كان هناك داخلها صراعًا بين الرغبة في قضاء وقتًا ممتعًا، والاستمتاع بعزف كريم، وبين الإحساس أن الرفض هو القرار الصحيح لأنها كانت متأكدة أن موافقتها على هذه الدعوة ستكون بمثابة إشارة إيجابية تشجعه على الاقتراب منها وهي لا تريد الاقتراب. إنها لا تخاف منه ولكنها تخاف من نفسها. تخاف أن يتحول إعجابها بعزفه إلى إعجاب بشخصه ويتحول إعجابها بشخصه إلى حُبٍّ ثم يدفعها الحب لاتباع طريق محفوف بالتعرجات والمنحنيات والمخاطر.

دق قلبها بعنف عندما سمعت صوت جيتار إلكتروني ينطلق في عربة المترو التي كانت تجلس فيها. نظرت حولها بحثًا عن مصدر الموسيقى، فوجدت الفتاة التي تجلس أمامها تُسمع صديقتها تجلسان أمامها في العربة تقوم بإسماع صديقتها النغمات التي يحتويها تليفونها. نظرت لتليفون الفتاة وقالت لنفسها الرفض هو القرار الصحيح.

دخلت سها منزلها وهي تشعر بالإرهاق من فرط التفكير، وقبل أن تدخل حجرة المعيشة وصل لمسامعها صوت موسيقى إيقاعية تنطلق من التليفزيون.

اندهشت عندما دخلت حجرة المعيشة ورأت فتاة غريبة تراها لأول مرَّة تجلس في حجرة المعيشة أمام التليفزيون.

* * *

أخذت سها تحدِّق في وجه تلك الفتاة السمراء الرشيقة، ذات الشعر الأصفر، كانت ترتدي بنطلونًا أسود وعليه بلوفر أحمر مزيّنًا بنجومٍ بيضاء، وتمدِّد جسدها على الكنبة المواجهة للتليفزيون كأنها تجلس في بيتها.

ألقت عليها السلام فالتفتت الفتاة إلى وجودها، وقامت من مكانها سريعًا ووصافحتها وقد غطت وجهها ابتسامة خجولة .

قبل أن تعرفها الفتاة بنفسها دخلت سلوى عليهما الحجرة، ثم أشارت لسها وقالت للفتاة:

-أعرفك يا رضوى على سها بنتي الكبيرة، في سنة أولى في كلية الأداب قسم انجليزي.

بدا على رضوى الحماس وهي تقول لسها:

-ما شاء الله، أنا نفسي أدخل زيك كلية الأداب قسم انجليزي، أصلي بحب الانجليزي أوي.

سألتها سها:

-هو انتي لسه في ثانوي؟

فتطوعت والدتها بالرد:

-اه ما هي رضوي تبقى زميلة تامر بتاخد معاه الدروس.

هزَّت سها رأسها مبتسمة لرضوى وأعادت الترحيب بها بحفاوة أكبر بعد أن عرفت من تكون، ثم تساءلت إذا كانت رضوى جاءت لكي تأخذ مع تامر الدرس .

بعد دقائق رأت سها تامر يدخل عليهم حاملاً زجاجة مياه غازية متوسطة الحجم. أشرق وجه رضوى عندما رأته يقترب منها. بادلها تامر الابتسام وأعطاها زجاجة المياه الغازية برفق، فتناولتها منه وهي تشكره بصوت ناعم.

اندهشت سها عندما رأت تامر يحدق في رضوى وهي ترتشف المياه من الزجاجة كأنه يشاهد مطربته المفضلة تغني، ثم تحولت دهشتها لصدمة عندما رأت والدتها تتطلع لتامر ورضوى وتباركهما بابتسامات راضية ونظرات حنونة .

هل يُعقل أن توافق أمها على وجود رضوى في منزلهم، بل وترحِّب بها كأنها فرد من أفرد الأسرة؟ هل هي جاهلة بطبيعة العلاقة بين تامر ورضوي؟ أم أنها تتظاهر بتجاهلها من أجل تامر؟ أم أنها تحررت من مبادئها القديمة وأصبحت أكثر تقبّلاً لفكرة الحُبّ قبل الزواج؟

كانت تريد أن توجِّه هذه الأسئلة لوالدتها حتى تريح عقلها الذي أصيب بالارتباك والحيرة من ذلك المشهد الغريب الذي لم تتصور أنها ستراه في منزلها .

دخلت حجرتها، ثم نادت على والدتها متعللة بأنها بحثت عن إحدى بلوزاتها ولم تجدها، وتريد منها المساعدة في العثور عليها.

أغلقت سها باب الحجرة حتى لا يصل حديثها لرضوى وتامر.ثم سألت والدتها بجدية :

-مين البنت دي يا ماما؟

ابتسمت سلوى وردت عليها ببساطة:

-ما أنا عرفتك عليها دي زميلة تامر في الدرس. بنت زي العسل وذوق جدا تصوري أنها لما عرفت إن عيد ميلادي بكره اشترت لي شال يجنن هفرجك عليه.

توجهت سلوى لحجرة نومها، ثم عادت وهي تحمل بين يديها بعناية شالاً صوفيًا، ناصع البياض، كبيرًا تتدلي منه شراشيب وضفائر طويلة، ثم وضعته على كتفيها وسألتها بابتهاج:

-إيه رأيك في الشال؟ شيك جدا مش كده؟ وتصوري بيدفي بشكل مش طبيعي. أصله مش صناعة مصرية. الورقة بتاعته مكتوب عليها صُنع في ايطاليا. يعني مش رخيص .

استغربت سها عندما رأت فرحة والدتها المبالغ فيها بهذا الشال. ولكن استغرابها زال عندما أخبرتها والدتها أن والد رضوى يملك مجموعة من المحلات لبيع التليفونات المحمولة ورضوى هي ابنته الوحيدة.

أرادت أن تفهم رأيها في العلاقة بين تامر ورضوي، فسألتها كأنها لا تعرف الإجابة:

-هو تامر ورضوي زملاء في الدراسة بس؟

احمرَّت وجنتاها، وأخذت تهزّ أصابع يديها في ارتباك ثم غمغمت:

-أنا فاهمة انتي قصدك إيه. تامر صارحني بإنه معجب برضوى وجابها علشان يعرفنا عليها. الحب البريء مش عيب والبنت من عيلة كويسة جدا، وكلها كام سنة ويخلص دراسة ويرتبط بها.

استحضرت سها حِكَم أمها القديمة في ذهنها وهي تسألها:

-معقول يا ماما؟ مش حضرتك قولتي كتير قبل كده إن الحب بتاع الطلبة ده كلام فارغ وتضييع وقت .

-أيوه أنا قلت كده فعلا بس أخوكي مش أي حد، وبعدين ده ولد يعني مقدرش أمنعه إنه يعرف بنات ويحب. وأحسن إني أسمح له يقعد مع البنت اللي بيحبها قدام عيننا بدل ما يعملوا حاجة غلط من ورانا .

سقطت كلمات سلوى على رأس سها كأنها قنبلة ذرية، فهدمت كل الأسس والمبادىء التي نشأت عليها وآمنت، وتمسّكت بها بعد أن اكتشفت أنها بلا منطق ولا معنى.

أرادت سها أن تُذكِّر أمها بسخريتها الدائمة من العُشَّاق الذين يجلسون متعانقين على كورنيش البحر واحتقارها الشديد لهم، ورغبتها في أن يقبض بوليس الأداب عليهم. وأرادت أن تعرف ماذا ستفعل لو رأت تامر ورضوى يجلسان على الكورنيش مثل هؤلاء العشاق؟ هل ستطلب لهما بوليس الأداب أم ستهنئهما؟

قرَّرت سها أن تحتفظ بأسئلتها لنفسها لأنها عرفت الإجابة مسبقًا.

لقد رُفعت الغشاوة التي كانت تغطي عينيها، وانكشف أمامها بشكلٍ مفاجيء كل ما كان خافيًا عنها. لقد اكتشفت أن أمها لا تختلف كثيرًا عن أبيها، وأبيها لا يختلف كثيرًا عن أباء أقاربها وجيرانها وزميلاتها. كلهم نسخ متكررة من شخص واحد حتى وإن بدوا مختلفين.

* * *

حلَّ مساء السبت فتوافد الزوار على روك كافية، وخلال ساعة امتلأت الطاولات بالشباب والفتيات. استعد أعضاء فريق ملائكة الروك للحفل، فقاموا بضبط الآلات والأصوات، ثم خرجوا للجمهور وأمسكوا بآلاتهم استعدادًا للعزف. وبينما كان هاني يشكر الجمهور على حضورهم الحفل، ظلَّ كريم يتفحص وجوه الحاضرين بدقة .

أحسَّ بالحزن عندما رأى نهلة تجلس بجوار هيثم بمفردهما. لقد ظلت شمعة الأمل في مجيء سها مضيئة رغم أنها رفضت دعوته بشكل جازم. لو لم يتجرأ ويعترف بإعجابه بها لما زادت من تحفظها ورفضت حضور الحفل.

كان من المفترض أن يكتم مشاعره حتى تأتي الظروف المناسبة للإعلان عنها. ولكنه تسرع في الاعتراف باسم الجرأة، وهاهو الآن يدفع ثمن جرأته بالحرمان من رؤيتها للأبد .

استغرق كريم في التفكير في سها لدرجة أنه لم ينتبه أن أول أغنية بدأت حتى نظر له هاني وأمره أن يبدأ العزف.

لم يكن في أفضل حالاته وهو يعزف أول أغنية، لأن عقله ظلَّ منشغلاً بلوم نفسه على عدم مجيء سها. لاحظ أعضاء الفريق عدم اندماجه في العزف فأخذوا يسترقون النظر إليه بين الحين والأخر. وبعد أن انتهوا من أداء أول أغنية اقترب هاني منه وسأله هامسًا:

-مالك يا كريم؟

هزَّ رأسه في حيرة متظاهرًا أنه لا يفهم معنى سؤاله .

غرس هاني أصابعه في شعره المهوش، ثم ضيق نظره عينيه واقترب من كريم وهمس في أذنه :

-إنت صحيح مش بقالك كتير معانا. بس أنا حاسس إنك بتعزف من غير نفس النهاردة. إنت كنت مولع الدنيا المرة اللي فاتت .

ثبت كريم بصره على الجيتار وظلَّ صامتا لثوان، ثم أخبر هاني أنه يمر بظروف شخصية صعبة لا يمكن أن يفصح عنها.

ابتسم له هاني وقال:

-أنا مش عايز أعرف إيه اللي عندك بس عايزك تحاول تنسى أي حاجة مضايقاك لمدة ساعة واحدة بس وتندمج معانا.

أومأ كريم برأسه لهاني معتذرًا، ثم أحاط ذارعيه حول الجيتار وربت عليه بحنان كأنه يصالحه. ركَّز انتباهه مع صوت الدارمز والكيبورد وانطلق في العزف وسرعان ما توقف عن التفكير واندمج مع الإيقاع والموسيقى وصوت هاني .

بعد أن انتهت الأغنية ضجت القاعة بالتصفيق المدوي. رفع كريم رأسه من على الجيتار، ثم ظلَّ يجول بعينيه سريعًا بين الجمهور وهو يشكرهم .

توقفت عيناه عن الحركة بعد أن لمح فتاة بيضاء رشيقة ذات شعر بني طويل وعينين خضراوين واسعتين ترتدي بنطلونًا أسود صوف وبلوفر أبيض وفوقه جاكيت أسود جلدي. اتسعت عيناه من الدهشة وأخذ يدقق النظر جيّدًا حتى يتأكد من صحة ما يراه. تأكد أن ما يراه هو الحقيقة، عندما وجّهَتْ نظرها ناحيته وابتسمت له على استحياء .

* * *

- 17 -

لم تستطع سها أن تمنع نفسها من الذهاب للمقهى بمفردها، رغم أنها كانت تعلم مدى خطورة هذه الخطوة. لم تستطع أن تقف في المطبخ تنظف الدجاج وتغسل الصحون وتذاكر لروان وهي تعلم أن بإمكانها الاستمتاع بوقتها في مكان آخر. لم تستطع أن تستمر في الوقوف مكتوفة الأيدي وتشاهد شقيقها وهو يحصل على كل شيء يريده وهي تُحرم من أبسط متع الحياة فقط لأنها-بنت-.

ملت من انتظار انفتاح أبواب السجن بمعجزة من السماء، وقررت أن تنتزع حريتها بنفسها. لم ترتبك ولم تشعر بالذنب وهي تطلب من أمها أن تسمح لها بالذهاب من أجل الاستذكار مع نهلة.

ولكنها ظلت تتلفت حولها تنظر في وجوه المارة وهي تمشي في الشارع المؤدّي للمقهى.

تسارعت نبضات قلبها وهي تصعد على سلالم المقهى. ولكن أعصابها هدأت وأحسَّت بالاسترخاء عندما سمعت صوت الموسيقى وأحست أنها تركت العالم الخارجي ودخلت في العالم الذي جاءت من أجل الاستماع به .

فوجئت عندما رأت نهلة تجلس أمام إحدى الطاولات بجوار هيثم. شعرت بالارتياح لتخلّي نهلة عن تحفظها وقبولها أن تتواجد معه بدون مرافق أو حارس .

اندهشت نهلة عندما رأتها، بينما تهلل وجه هيثم لرؤيتها. سلمت عليهما وأخبرتهما أنها جاءت بعد أن دعاها كريم لحضور الحفل، فوجهت لها نهلة ابتسامة ذات مغزي اصطبغ وجهها بحُمرة الخجل عندما رأته يحدق فيها، فأشاحت بوجهها عنه ونظرت في الأرض كإشارة منها له حتى يتوقف عن النظر إليها. ولما التقط إشارتها

وحوَّل بصره عنها رفعت رأسها وبدأت تستمع بالأغاني وأخذت تصفق وتتمايل مع النغمات حتى نسيت أنه من ضمن العازفين .

غادرت سها المقهى بعد انتهاء الحفل مباشرة حتى لا يتمكن كريم من الوصول إليها والحديث معها. أسرعت في خطواتها حتى استقلت الترام وعادت لمنزلها في الموعد الذي حددته لها والدتها. بعد أن دخلت حجرة نومها وأغلقت الباب تنفست الصعداء وشعرت أنها محظوظة لأنها ذهبت للحفل وعادت بدون أن ينكشف أمرها .

لم تُفاجأ عندما وجدته يقف أمامها عندما دخلت الكلية وعلى وجهه ابتسامة عريضة .

بسط يده اليمنى لكي يصافحها فنظرت لكف يده بحذر. سمحت لأنامله أن تلتقي بأناملها لثوان، ثم أبعدت يدها سريعًا ووضعتها وراء ظهرها.

شكرها على قدومها للحفل. قالت له "العفو" بطريقة متحفظة، ثم لاذت بالصمت فصمت مثلها وظلَّ كلٌ منهما ينظر للآخر وعلى وجهيهما ابتسامة خجولة .

كانت هذه الابتسامة كافية للتعبير عن ما يجول داخلهما. كلاهما ينتباهما نفس المشاعر الجميلة والغريبة وكلاهما لا يعرفان كيف يعبّران عنها .

حاولت سها أن تخرق اتفاق الصمت الغير مُعلَن، فسألتْه عن أخبار المحاضرات والدراسة .

تلاشت الابتسامة من على وجهه وبدا عليه الضيق وهو يقول لها:

-الدراسة مملة جدًّا أنا بكره كلية التجارة.

-نظرت له باستغراب وسألته:

-أومال دخلتها ليه؟

شرح لها أنه التحق بالتجارة رغمًا عنه إرضاءً لوالده، في حين أنه يريد دراسة الموسيقى. حدجته بنظرة متعاطفة وأخبرته أنها تتفهم مشاعره لأنها مرَّت بظروفٍ مشابهة وشرحت له باختصار قِصّة التحاقها بكلية الأداب .

ردَّ لها النظرة المتعاطفة وقال:

-الظاهر إنه مفيش حد في البلد دي بيدخل الكلية اللي بيحلم بيها ابدا.

فابتسمت له وهزَّت رأسها بالموافقة .

رأت وهي تنظر على يمينها مجموعة من زميلاتها يقفن على مقربة منها ويراقبونها بنظراتهن. وعندما نظرت لهن ابتسمن لها تصنعًا، ثم قامت إحداهن بتحريك يديها لتحيّتها لكي تؤكد لها أنها تراها .

زفرت بضيق وهي تشيح بوجهها بعيدًا عنهن. لاحظ كريم امتعاضها فسألها إذا كان هناك شيءٌ يضايقها. هزَّت رأسها بالنفي ثم نظرت لساعتها وأخبرته أنها يجب أن تمشي حتى تلحق أول محاضرة.

نظرت سها لزميلاتها، فرأت إحداهن تهمس في أذن الآخرى وتنظر لها وعلى وجهها ابتسامة ساخرة. أحسَّت في تلك اللحظة أنها يجب أن تعود لِما كانت عليه حتى لا تصير مثل الفتيات اللواتي كانت تستهزأ بهن.

في اليوم التالي خرجت سها من الكلية لتجد كريم واقفًا في انتظارها بجوار الكافتيريا. تطلعت حولها في قلق ثم ابتسمت له بطريقة فاترة، وقالت له أنها لن تستطيع أن تقف معه لأنها تخشى من عقاب أهلها لو تأخرت في العودة للمنزل.

بدا على كريم الإحباط وسألها:

-يعني مش هنعرف نتكلم تاني مع بعض؟

أخبرتْه أن البديل الوحيد المتاح أمامه هو أن يمشي بجوارها أثناء خروجها من الجامعة حتى تركب الترام. وافق على اقتراحها ومشى بجوارها ففوجيء بها تبتعد

عنه حتى صارت هناك مسافة كبيرة تفصل بينهما وتوحي لمن يراهما أنهما لا يمشيان بجوار بعضهما. اختلست سها نظرة خاطفة لكريم ثم عادت تركز بصرها على الطريق متظاهرة أنها لا تعرفه .

وهكذا أصبحت العلاقة بينهما عبارة عن مسيرات صامتة ونظرات سريعة متوترة وابتسامات خجولة وأحاديث مقتضبة. كانت سها تقرأ في عينيّ كريم اللهفة للاقتراب إلا أنها فضّلت أن تلتزم بالمسافة بينها وبينه لأنها لم تكن مستعدة لاحتمال توابع الاقتراب.

* * *

بعد انتهاء المحاضرات حملت سها كتبها وصعدت على سلالم المدرج وهي تشعر بالإرهاق. وبينما كانت في طريقها للخروج من باب المدرج رأت فتاة قصيرة سمراء ذات حاجبين كثيفين ترتدي خمارًا أبيض واسعًا يصل لركبتيها، وجيبة بنية. لا يظهر منها إلا مقدمة حذائها الأسود، تحدق فيها بطريقة غريبة كأنها تعرفها، وفجأة اقتربت منها وألقت عليها السلام بلغة عربية فصحى سليمة .

بعد أن ردَّت عليها سها السلام عرفتها على نفسها بطريقة رسمية قائلة أنها زميلتها في الكلية واسمها«علا رءوف» ثم أخبرتها أنها تريد أن تتحدث معها في أمر هام .

شعرت سها بالقلق من نبرة علا الصارمة في الحديث كأنها ضابط يتحدث مع متهم

رسمت علا على وجهها ابتسامة مصطنعة ثم قالت لسها بهدوء:

-أنا عايزة أقولك إني انبسطت أوي لما شفتك أكتر من مرة بتصلي الظهر في مسجد الكلية، وعلشان كده قرَّرت إني أكلمك لأني حاسة إنك نبتة طيبة وعندك استعداد للهداية.

عقدت سها حاجبيها وتجهمت عندما سمعت كلمة الهداية، وظنت أن علا ستتحدث معها عن ضرورة إرتدائها للحجاب. نوت أن تخبرها أنها سترتدي الحجاب

قريبًا حتى تقطع عليها وصلة الوعظ التي تعلم أنها ستقوم بإلقائها عليها، ولكن قبل أن تتكلم رأت علا تشير لها بكف يديها حتى تتركها تقول ما تريده.

وعدتها أنها لن تتكلم كثيرًا ثم أخفضت من نبرة صوتها وهمست:

-انتي من البنات القليلين اللي كنت باحترمهم رغم انك مش محجبة، وعلشان كده زعلت جدا لما شفتك أكتر من مرة وانتي خارجة من الكلية ماشية جنب شاب وبيوصلك لغاية محطة الترام.

تقلصت العضلات في وجه سها ونفرت العروق في جبينها، وردت عليها باستنكار:

-شاب إيه أنا معرفش شباب؟

وجهت لها علا نظرة حادة ثاقبة اخترقتها وجعلتها تطأطىء رأسها في الأرض كأنها طفلة مذنبة .

حاولت سها أن تهرب من شعورها بالإحراج، بأن احتدت على علا:

-ممكن أعرف ليه بتراقبيني أصلا؟

-أنا مش براقبك أنا بمشي في نفس الطريق اللي انتي بتمشي فيه وبشوفكم وانتم ماشيين مع بعض. اللي انتي بتعمليه ده منكر كبير ابعدي عنه واستغفري ربنا.

غضبت سها من طريقة علا المستفزة في الحديث فهاجت عليها:

-وانتي مالك ومالي بتنصحيني بصفتك إيه؟

-بصفتي اني مسلمة زيك وانتي أختي في الدين، ومن واجبي إني أمر بالمعروف وأنهي عن المنكر وأنا خايفة عليكي تتحرقي في النار .

-الولد ده زميلي واحنا بنتكلم مع بعض في حدود الأدب والاحترام.

-مفيش حاجة اسمها زمالة بين الولد والبنت.

-ما تروحي تقولي الكلام ده للشباب والبنات اللي مالين الجامعة.

-أنا فعلا باكلمهم وفيه منهم كتير استمع لنصيحتي، أما بالنسبة للشباب فالزملاء الأولاد الملتزمين هما اللي بيتكلموا معاهم. بصي أنا عارفة إن النصيحة دايما تقيلة لكنها زي الدواء المُر الواحد لازم يستحمله علشان يشفي، وأنا غرضي مصلحتك لأني عايزة ربنا يتوب عليكي وتلبسي الحجاب وتبعدي عن البنات المنحلين اللي زي نهلة.

-أوعي تجيبي سيرة نهلة على لسانك دي أعز صاحبة عندي ودي بنت محترمة جدا .

رسمت علا على وجهها الملىء بالنمش ابتسامة مستهزئة، ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها ورقة صغيرة وقالت لسها:

-أنا مش هقدر أجادل معاكي أكتر من كده، بس بطلب منك إنك لما تهدي وتقعدي مع نفسك تقري الكلام اللي في الورقة دي كويس. وأنا بدعليك من قلبي إن ربنا ينور قلبك بالهداية .

اضطرت سها أن تأخذ منها الورقة بعد أن أخبرتها أنها تحتوي على أحاديث نبوية. تركتها علا ومشت بعد أن وضعتها في حالة من الغضب والضيق.

ألقت سها نظرة سريعة على الورقة من باب الفضول. رأت في أعلاها صورة على شكل ظِل أسود لشاب وفتاة يقفان أمام بعضهما وفوقها علامة(إكس) بالأحمر وتحت الصورة أحاديث نبوية "النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن تركها مخافتي أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه " " العينان تزنيان واللسان يزني واليدان تزنيان والرجلان تزنيان يحق لك الفرج أو يكفر به "

ثم قرأت في نهاية الورقة جملة مكتوبة بالخط الأسود العريض "قلبي ملك ربي " .

سرت في بدنها رعشة قوية وانتابها إحساس عميق بالذنب وهي تقرأ تلك الأحاديث النبوية التي كانت تحفظها من فرط ما سمعتها في البرامج الدينية، ثم تذكرت كلام والدتها عن حرمانية العلاقة بين الولد والبنت. إنها لم تعد تصدق كلام والدتها

بعد أن رأتها تبارك علاقة تامر ورضوى. ولكن هذا لا يعني أن كلامها لم يعد صحيحًا .

إنها رغم مظهرها العصري تُحرِّص على الالتزام بكل تعاليم الدين وتخاف من الله، ولا تريد أن تفعل أي شيء يدخلها النار، وهذا هو السبب الرئيسي في امتناعها عن الاختلاط بالشباب. وحتى عندما سمحت لكريم أن يمشي بجوارها ظلت متمسكة بوجود فاصل بينها وبينه حتى لا تقع في الخطأ، ولكن ماذا لو كانت المشاعر التي تكنها نحوه حرامًا، وماذا لو كانت النظرات والابتسامات المتبادلة بينهما نوع من أنواع الزنا؟ وماذا يمكن أن تفعل لكي تجعلها حلالاً؟ .

الحلُّ المنطقى هو أن يأتي لخطبتها، ولكنه ليس حلاً واقعيًا لأنه مازال مثلها في مرحلة الدراسة. إذًا ليس أمامها إلا أن تطلب منه الامتناع عن مقابلتها حتى يتخرج ويعمل ويكون قادرا على التقدُّم لها. وهذا لن يتحقق إلا بعد سنوات عديدة، أو ربما لا يتحقق أبدًا في ظِلِّ الظروف الاقتصادية الصعبة التي تمرُّ بها البلد دائمًا .

إذًا ليس أمامها اختيارٌ إلا الامتناع عن رؤيته تمامًا، حتى تتجنب الوقوع في الذنب .

فوجئت سها بنهلة تقف ورائها وتهز كتفها. عندما التفتت لها رأت نهلة وجهها المحبط، فبدا عليها الاهتمام وسألتها عن ما يضايقها. أخبرتها بحديث علا معها بدون أن تذكر كلامها عن أخلاقها وأعطتها الورقة التي تركتها لها.

أمسكت نهلة الورقة وألقت عليها نظرة سريعة، ثم مطت شفتها في ضيق وقالت:

-كان المفروض تهزئيها أنا بضايق جدا من البنات اللي بيحبوا يعملوا فيها شيوخ وينصحوا اللي حواليهم كأنهم هما لوحدهم اللي عارفين الدين. واحدة منهم جت تكلمني قبل كده لما شافتني واقفة مع هيثم زعقت لها وقلت لها متتدخلش في حياتي لأني عارفة ديني كويس.

-طب انتي مش شايفة أن الكلام اللي فيها صح مش شايفة إن اللي إحنا بنعمله حرام؟

-لا مش حرام انتي بتمشي جنب كريم في الشارع وسط الناس، وأنا بقعد مع هيثم في أماكن عامة ،وحتى مش بخليه يمسك إيدي يعني فيه حدود لعلاقتنا بيهم.

-بس احنا بنعرفهم من ورا أهلنا.

-لأنهم ميقدروش يرتبطوا بينا علشان هما لسه في الكلية. لكن هيثم قالي إنه كلم أهله عني وإنه هيجي يتقدم لي بعد امتحانات السنة دي .

-ومعقول واحد لسه في الكلية يقدر يخطب؟

-لو أهله قادرين ممكن أصلا الأهل هما اللي بيجيبوا الشقة، لأن المرتب مهما كان كبير عمره ما يكفي أي شاب علشان يتجوز ويفتح بيت. يبقى أحسن يسيبوه يخطب وهو في الكلية طالما هما اللي هيصرفوا عليه في كل الأحوال .

هزت سها رأسها للأمام ببطء، وأخذت تفكر في كلام نهلة مليًا، ثم تركتها وغادرت الكلية. رأت كريم يقف كعادته في انتظارها بجوار النخلة المواجهة للكلية وعلى وجهه علامات الحزن كأن مكروه أصابه، ولكنه عندما رأها رسم الابتسامة على شفتيه. ألقى عليها التحيَّة، فردت عليه بتحفظ ثم مشيا بجوار بعضهما بدون كلام.

و قبل أن يخرجا من الجامعة توقفت سها عن المشي، ووجهت لكريم نظرة جادة ثم استجمعت شجاعتها وقالت له:

-أنا مااقدرش أقابلك بعد كده من غير ما يكون فيه ارتباط رسمي بيننا .

* * *

- 18 -

غاص قلب كريم في ضلوعه واستولى عليه الذهول وهو يرى سها تنطق بكلمة ارتباط رسمي. أراد أن يتأكد من معنى كلامها فهزَّ رأسه متعجبا وسألها:

-معقول عايزاني أخطبك؟

تمنى أن تقول له لا، لقد فهمتني بطريقة خاطئة ولكنها انفعلت قائلة:

-ومش معقول ليه عايز تصاحبني طول عمرك ولا إيه؟

-أصاحبك طول عمري انتي شايفة اللي بيننا ده صحوبية؟ أنا بمشي جنبك كام دقيقة ويادوب بنقول لبعض كلمتين .

-بس كلامنا مع بعض ده برضه حرام. بص فيه واحدة ادتني الورقة دي بعد لما شافتنا مع بعض كل يوم. فيه طلبة كتير أهلهم بيجوزوهم. نهلة قالت لي إن هيثم هيخطبها بعد الامتحانات.

أراد أن يقول لها أن هيثم لن يرتبط بنهلة ولا بغيرها لأنه طائر بلا عش، ولكنه خاف أن تنقل كلامه لنهلة فأمسك لسانه وتناول منها الورقة .

فهم من صورة الولد والبنت وفوقها علامة الإكس أن الورقة تحذر من العلاقة بين الولد والبنت. لماذا لم تأخذ سها هذه الورقة إلا اليوم؟ يبدو أن المصائب لا تأتي فرادى. لقد جاء الكلية اليوم على الرغم من الحالة النفسية السيئة التي يمر بها، معتقدًا أن رؤية سها ستخفف عليه وقع ما رآه في منزله بالأمس. ولكنها جاءت لتضيف على همومه همًّا جديدًا .

نظرَ لها بإحباط وقال لها بصوت يائس:

-أنا بتمنى فعلا إني اقدر أخطبك، بس انتي متعرفيش الظروف اللي بمر بيها صعبة قد إيه؟

هدّأت سها من انفعالها عليه بعد أن رأته ينحني في حزنٍ كأنه يحمل على كتفيه هموم البشرية. الدقائق القليلة التي تقضيها معه يوميًّا لم تسمح لها بمعرفة الكثير عن تفاصيل حياته. إنها تعرف فقط أنه يسكن في"فكتوريا"، وأن والده ضابط متقاعد في الجيش ووالدته طبيبة أسنان.

أحسَّت أن أهله لهم علاقة بالظروف الصعبة التي يمرّ بها ولذلك سألته:

-هو فيه حاجة وحشة حصلت لحد من أهلك؟

ردَّ عليها بدون تفكير:

-حصلت لهم هما الاتنين.

صرخت:

-معقول هما الاتنين ماتوا؟

-لا اتطلقوا امبارح .

وضعت يديها فوق صدرها وبدا عليها عدم التصديق "معقول؟".

هزَّ رأسه مؤكِّدا على صحة الخبر، وأخبرها أنه لا يمكن أن يشرح التفاصيل أمام الكلية. اتفق معها على أن يلتقى بها غدًا في مقهى "وايت لايت" حتى يشرح لها مشكلته بالتفصيل.

* * *

لا يعرف كريم لماذا شعرَ بكل هذا الحزن وكل هذه الكآبة رغم أنه توقَّع حدوث الطلاق عاجلاً أو أجلا. لا توجد سيدة في العالم مهما بلغت درجة صبرها او احتمالها يمكنها أن تحتمل للأبد أن تكون مثل كيس ملامكة يخرج فيه زوجها

غضبه وإحباطه. لا توجد سيدة في العالم يمكن أن تتلقى الإهانات والشتائم من زوجها أمام أولادها، وتظل صامتة ولا تدافع عن نفسها ولا تصون كرامتها .

ولا يوجد رجل طبيعي يكافىء زوجته على اهتمامها به وصبرها عليه وطاعتها له بأن يتصيَّد لها الأخطاء ويذكرها كل يوم بندمه لأنه لم يتزوج سيدة من القرية التي ينتمي إليها في محافظة البحيرة وتزوج سيدة سكندرية .

كان كريم يعلم أنه سيأتي هذا اليوم الذي تصرخ فيه والدته وتتأوه وتعترض وتقول لوالده لا قف عَند حدَّك. وقد طال انتظاره ولم يأتِ هذا اليوم، فظن أنه لن يأتي أبدًا وأن والدته تعودت على حالها، ولذلك اندهش عندما رأها تخرج عن صمتها وتلوم والده بلطف بعد أن ألقى طبق البطاطس المقلية في الأرض لأن مذاقها لم يعجبه .

-حرام عليك دي نعمة ربنا.

صاح معترضًا:

-انتي بقيتي دلوقتي بتعرفي ربنا؟ انتي لو فعلا بتعرفي ربنا كنتي اخدتي بالك مني. كنتي اتعلمي إزاي تعرفي تطبخي. مش مكسوفة من نفسك ده حتى البطاطس اللي البنات الصغيرين عندنا في البلد بيعرفوا يعملوها انتي مش عارفة تعمليها.

كان كريم يعلم جيّدًا أن والده يتجني على والدته، وأنها ليست فاشلة في الطبخ كما يدعي، ولكنه لم يجرؤ على التدخل والإعلان عن رأيه لأنه يعلم أن غضب والده مثل النار التي تنطلق من فم التنين لو اقترب أحد منها سيحرقه لهيبها .

توقع أن تلزم أمه الصمت كعادتها وتلم الطعام من الأرض وتتركه حتى يهدأ. رأها تضع يديها على وجهها والدموع تجري في عينيها ثم تقول لنفسها بصوت هامس: حرام كده .

وصلت همساتها لوالده فصاح فيها متسائلاً:

-انتي بتقولي إيه؟

ارتجفت وهزَّت رأسها بالنفي:

-مفيش حاجة.

ولكنه أصرَّ على دفعها للاعتراف بما قالته، أشار لأذنيه وهو يقول:

-أنا سمعتك بتقولي حرام. إيه هو اللي حرام أنا عايز أعرف؟

وجَّه لها نظرة متحفزة كأنه مصارع يتحدى خصمه أن يجرؤ على توجيه لكمة له. ولكنه كان يعلم أنها لا تملك الجرأة على الإتيان بأي فعل وأنها ستعتذر على الكلام الذي فلت منها رغما عنها .

عندما استمرت في الصمت رفع درجة استفزازه لها:

-ما تردي ولا اتخرستي. طبعا مش هتقدري تردي لأنك عارفة إنك غلطانة من ساسك لراسك.

شعر كريم بالألم وهو يرى رعشة جسد أمه والاختلاجات التي سرت في وجهها. بدا عليها أنها تحارب الغضب المكتوم داخلها وتحاول إحكام السيطرة عليه، لكن أبيه ظل يدوس على ألمها بكل ما أوتي من قوة لكي يصل بها إلى ذروة الألم .

ردت عليه بصوت مجروح:

-أرجوك اسكت.

ولكنه أصر على إكمال التحدي حتى النهاية:

-لا مش هسكت لازم تعتذري.

لم يصدق كريم عينيه وأذنيه عندما رأى عيني والدته تتسعان وتشتعلان فجأة بنار الغضب والألم وهي تقول له:

-لا مش هتعتذر، إنت اللي لازم تعتذر لي.

صمتت لثوانٍ وكأنها لم تصدق أنها قالت هذا الكلام. ثم انطلقت وصرّحت بكل المشاعر التي خزنتها في قلبها لسنوات طويلة .

كانت تتفوه بالكلمات بسرعة كأنها تخاف أن تهرب منها الشجاعة المفاجئة التي هبطت عليها. قالت له:

-كفاية كدة. أنا بلتمس العذر لك دايما علشان مرضك لكن إنت مُصرّ تستفزني مش عارفة ليه. أنا مش ممكن اعتذر لك انت اللي لازم تعتذر لي على سنين عمري اللي ضاعت معاك. أنا تحملت عجرفتك وقلة أدبك وتهزيئك ليا السنين دي كلها مش علشانك لكن على علشان البيت ميتهدمش والولاد ميبعدوش عنك، لكن خلاص أنا مش قادرة أسكت أكتر من كده إنت زودتها أوي "

أجهشت بالبكاء الهستيري بينما نظر لها محتار بذهول وسألها متعجبًا:

-إزاي تتجرأي إنك تشتميني في بيتي؟ الظاهر إن مرضي وعجزي خلاكي تفتري عليا. بقولك إيه أنا مش عايز منك أي حاجة ومش عايزك تقعدي معايا في البيت دقيقة واحدة بعد كدة. انتي طالق .

هزَّ كريم رأسه في ذهول وظل يسأل نفسه هل قالها والده حقًا أم خُيل إليه؟

لم يصدق أن الطلاق وقعَ فعلاً إلا بعد أن رأى والده يترك حجرة المعيشة ويدخل حجرته، بينما جلست والدته على الكنبة ودخلت في نوبة آخرى من البكاء .

اقترب منها ونظر لها بعينين حزينتين. عندما رأته أمسكت بيديه وقالت له وهي تقاوم دموعها:

-أنا أسفة يا كريم .

هزَّ رأسه بالنفى وقال لها:

-إحنا اللي أسفين يا ماما إننا خليناكي تتحملي كل السنين دي.

ذهبَ كريم ووالدته وشقيقاه للإقامة في منزل جدتهم، ولم يشعروا بالذنب لتركهم أبيهم المريض بمفرده في المنزل، لأنهم كانوا يعلمون أن يستحق البقاء وحيدًا جزاء على ما فعله بأمهم .

سكت كريم ونظر لسها، فرأها تسند رأسها بكفها وتنظر له باهتمام. انتظر أن تعلق على ما حكاه، ولكنها اكتفت بتوجية ابتسامة غامضة له.

سألها عن سِرِّ ابتسامتها فمالت برأسها ناحية اليمين، وفتحت فمها وقبل أن تتحدث سمعت ولد وبنت يضحكان بصوتٍ عال لفت انتباهها.

التفتت وراءها لكي تبحث عن مصدر الصوت، فرأت أخيها تامر يجلس ناحية باب المقهي مع فتاة شقراء مهوشة الشعر .

قامت مفزوعة من مكانها وتوجهت إلى الباب الجانبي للمقهى، فقام كريم بدفع الحساب ثم خرج وراءها .

وقفت سها وراء زجاج المقهى تحدق في تامر والفتاة التي تجلس أمامه. رأته يلكز الفتاة في كتفها ويهمس في أذنها ثم تبادلا الضحكات مجددا.

يا تُرى ماذا سيكون رد فِعل رضوى المسكينة لو رأت هذا المشهد؟ لقد كان هائمًا بها من أيام قليلة، فهل يمكن أن يكون تركها بهذه السرعة؟

لا، إنه على الأرجح يملك قلبا كبيرًا يمكنه أن يتسع لحُبِّ كل حسناوات الإسكندرية.

لقد اتضح لها أن قلقها الدائم من انكشاف أمرها لم يكن مبالغًا فيه بعد أن كادت أسوأ مخاوفها أن تتحقق اليوم . ولكن كيف اكتشف تامر هذا المقهى؟ ولماذا لم يأتِ إليه إلا اليوم؟

الإجابة لأن حظها سيء، ولأن الحياة لا يمكن أن تمنحها لحظة من السعادة بدون أن تجعلها تتجرع بعدها الخوف والمعاناة.

خمَّن كريم من نظرات سها الخائفة للمقهى أنها رأت شخصًا تعرفه، ولذلك لم يسألها عن سبب رغبتها المفاجئة في مغادرة المكان.

سألها:

-هو إحنا مش هنعرف نتقابل تاني؟

فحدقت فيه وعلى وجهها علامات الحيرة ثم غمغمت:

-مش عارفة .

لو سألها كريم هذا السؤال بالأمس لطلبت منه التوقف عن مقابلتها حتى يصبح ارتباطهما رسميًا، ولكن بعد أن جلست معه وعرفت ظروفه الأسرية تغيرت نظرتها له تمامًا، وأدركت أنها لن تستطيع الابتعاد عنه.

لقد اكتشفت سِر نظرته الحزينة وسِر خجله وسِر اعتذاره الدائم على كل شيء بسبب وبدون سبب، واكتشفت أن انجذابهما له لم يكن من قبيل المصادفة، واكتشفت أنها أقرب له مما كانت تتصور. من الواضح أن الأرواح المتشابهة في المعاناة تنجذب لبعضها. أخبرته أن عليه أن يفكر في مكان آخر يتقابلان فيه غير المقاهى. ثم ودعته ومشت بخطوات سريعة وهي تتلفت حولها .

ظلَّ الخوف مسيطرًا عليها وهي جالسة في الترام عندما فكّرت في احتمال أن يكون تامر لمحها وهي تخرج من المقهى. دخلت الشقة بخطوات مرتعشة وهي تتساءل إذا كان تامر عاد للمنزل أم مازال جالسا في المقهى .

فوجئت عند دخولها حجرة المعيشة برضوى تجلس على نفس الكنبة المواجهة للتليفزيون. اجتهدت لكي تداري شعورها بالشفقة عليها وهي ترحِّب بها .

دخلت والدتها الحجرة وهي تحمل صينية عليها كوب من عصير الليمون وقِطع من البسكويت من أجل رضوى .

أحسَّت سها بالذنب عندما رأت رضوى تتحدث مع والدتها عن طيبة قلب تامر وخفة ظله. أرادت سها أن تقول لها أنت ِفتاة طيبة وأخي لا يستحقكِ.

ألحَّت عليها رغبة قوية في الإفصاح لأمها عن رؤيتها لتامر اليوم.

كانت متعطشة لرؤية رد فعلها عندما تكتشف أن ابنها الذي تظنه غير كل الأولاد مشروع ممتاز لزير نساء، ولكن عقلها ضغط على فرامل رغبتها.

أدركتْ أنها لو أرادت أن تكشف سِرّ أخيها لابد أن تخترع أكذوبة تبرِّر وجودها في المقعى معه، وهي ليست موهوبة في تأليف القِصَص، لذلك عليها أن تلتزم الصمت ولا تخبر أسرتها بأي شيء.

وصلَ تامر للمنزل ودخل مباشرة لحجرة المعيشة بخطواتٍ سريعة وابتسامة ازدادت اتساعًا لرؤية رضوى. سلَّم عليها بلهفة العاشق الولهان كأن ليس في القلب غيرها.

ثبَّتَت سها نظرها عليه في انتظار أن ينظر لها أو يتصرف معها بطريقة تؤكد لها أنه رآها، ولكنه لم يتحدث معها بل لم ينظر لها أصلا كل اهتمامه كان مركزًا على الحديث مع رضوى. لم تهدأ مخاوف سها، فربما رأها ولكنه قرَّر أن يؤجل التصريح بما رآه لحين انصراف رضوى.

بعد مغادرة رضوى للمنزل وصلَ والد سها من أجل تناول الغداء. ساعدت سها والدتها في الطعام على المائدة، بينما جلسَ والدها وتامر وأختها روان أمام منضدة السفرة.

بدأ الجميع في تناول الطعام، فأخذت سها تحدِّق في تامر بتحفز وانتظرت أن ينظر لها أو يتحدث معها، ولكن عندما راته منشغلاً في التهام أصابع المحشي وقِطع الكفتة في تلذذ تأكدت أنه لم يرها، فقررت أن تنسى الموضوع وتستمتع بتناول غدائها.

ابتسم والدها لتامر وسأله عن أخبار الثانوية العامة والدروس.

هزَّ تامر رأسه للأمام بثقة يُحسَد عليها وقال:

-كله تمام الحمد لله.

-رحت المدرسة النهاردة؟

-طبعا أنا ما اقدرش أغيب، لأن المدرسين بيشرحوا وأنا بستفاد منهم، وبعد لما طلعت من المدرسة رحت خدت درس الفيزياء، وكمان شوية هروح درس الإنجليزي.

ارتسمت على وجه سها ابتسامة ساخرة وهي ترى والدها يقول لتامر بصوت حنون:

-ربنا يوفقك يا ابني، أنا شايفك بتبذل مجهود جامد السنة دي.

لم تستطع منع نفسها من الضحك وتامر يقول وهو يتنهد متظاهرًا بالتعب والإرهاق ويعقد حاجبيه بجدية:

-أنا مصمم إني أركز في المذاكرة وما أضيعش وقتي عشان أجيب مجموع كبير وأدخل كلية التجارة.

ياترى ماذا سيكون رد فعل أبيها عندما يعرف أن ابنه المجتهد كان يذاكر دروسه اليوم مع فتاة شقراء؟ وكيف مازال يصدق أنه يبذل مجهود في المذاكرة رغم أنه حصل على(70%) فقط السنة الماضية؟

وياترى ماذا سيحدث عندما تظهر نتيجته هذا العام ويفشل في الحصول على مجموع يدخله كلية التجارة؟ على الأرجح سيغضب والدها منه ويؤنبه قليلاً كما فعل السنة الماضية، ثم سيدفع له مصاريف الدراسة في أي جامعة خاصة. وفي النهاية فإنَّ فشل تامر في الدراسة لن يؤثر على حياته بالسلب، لأن مستقبله مضمون، إذ ينوي والدها أن يجعله يذهب معه للمحل ابتداءً من هذا الصيف، حتى يعدُّه لكي يساعده في إدارته.

انتهى الغداء ودخلت سها حجرتها مع روان وقد غمرها ارتياح عميق بعد أن مرَّ هذا اليوم العصيب بسلام. تمددت فوق فراشها وأخذت تتساءل إذا كانت ستستطيع أن تتحمل كل هذا الخوف المميت والقلق القاتل من أجل أن تبقى علاقتها مع كريم مستمرة.

* * *

- 19 -

خرجت سها مع صديقتها نهلة من مبنى الكلية بعد انتهاء المحاضرات في الساعة الثانية ظهرًا، ثم ودعتها على باب الجامعة حيث ذهبت نهلة لتبحق عن ميكروباص لتركبه، بينما مشت سها باتجاه الترام. ولكنها فجأة غيَّرَت اتجاه سيرها ودخلت شارعًا خلفيًا، ثم دلفت منه إلى شوارع آخرى. أخذت تقرأ اسم كل شارع قبل أن تدخله حتى تطمئن أنها تمشي في الطريق الصحيح.

في النهاية وصلت لشارع سد هادىء تقع فيه عمارات متوسطة الارتفاع وتحّه الأشجار على الجانبين. نظرَتْ يمينًا ويسارًا بقلق، وأخذت تحدِّق جيّدًا في السيارات الواقفة على جانبي الشارع. دقَّ قلبها بعنفٍ عندما رأت سيارة حمراء صغيرة تقف في منتصف الشارع ينطلق منها صوت موسيقى الروك الصاخبة .

مشيت نحو السيارة كالسلحفاة الخائفة، وبعد أن وصلت وقفت بجوارها ثم طرقت على النافذة الأمامية بأصابع يدها اليمنى طرقات خفيفة .

تهلل وجه كريم عندما رأها. خفض صوت الموسيقى، ثم مال ناحية المقبض وضغط عليه وفتح الباب بسرعة. دخلت السيارة وجلست في المقعد المجاور له ثم أخذت تتنفس ببطء لكي تهدأ من أعصابها المتوترة.

هدوء الشارع وقلة عدة المارة فيه جعل سها وكريم يشعران أنهما يجلسان بمفردهما لأول مرّة، فاستولى عليهما الخجل وعطَّل قدرتهما على الكلام. حاولا أن يهربا من الصمت باستكشاف الشارع.

انشغلت سها في تأمل واجهة الجاليري الذي كانت السيارة تقف على مقربة منه. أعجبتها لوحة لطفلة صغيرة تقف في حديقة عامرة بالورود الحمراء وتفرد ذارعيها

وتقلد أجنحة الطيور البيضاء التي كانت تحوم حولها لدرجة أنها أرادت أن تخرج من السيارة لكي تمتع نظرها بتأمل اللوحة عن قرب. بينما أخذ كريم يتأمل أرواق وجذوع الشجرة الكبيرة التي كانت تغطي السيارة بأغصانها الوارفة وتحميها من حدة أشعة الشمس كأنها مظلة خضراء.

كان كريم يشعر بالسعادة لنجاحه في حلِّ مشكلة المكان. والفضل يعود لريم التي لم تعد تحتاج سيارتها كثيرًا بعد أن حصلت على عملٍ قريب من المنزل فأعارته السيارة عن طيب خاطر. ظنَّ أن سها تشاركه سعادته لذلك انزعج عندما تطلع لوجهها ورأها تنظر من شباك السيارة في عبوس.

ظنَّ أن عبوسها ناتجًا عن شعورها بالملل من طول صمته، ولذلك قرَّر أن ينطق ويعبِّر عن أي شيء يجول بخاطره. هتف لها بصوت متحمس:

أنا مبسوط أوي إنك جيتي.

لم تردّ عليه، واكتفت بأن هزَّت رأسها للأمام. كان يريد أن يسألها عن سبب تجهمها. ولكنه سألها عن أحوالها فردَّت عليه بكلمة واحدة:

الحمد لله.

ثم وجّهَتْ له نظرة جادة وسألته:

-وإنت ازيك ومامتك ازيها؟

اختفت الابتسامة من وجهه ثم طأطأ رأسه وغمغم قائلاً:

-رجعت لبابا تاني.

هزت رأسها اندهاشًا من طريقته الحزينة في الإعلان عن الخبر.

-إنت زعلان انهم رجعوا لبعض؟

-لا أنا زعلان لأن كل حاجة رجعت زي ما كانت ومفيش حاجة اتغيرت .

لم تفهم ماذا يقصد بكلامه، فأضطر أن يشرح لها ما حدث بالتفصيل .

لقد فوجىء كريم عندما ذهب للإقامة عند جدته بعدم تعاطفها مع موقف والدته، فهي تنتمي للمدرسة التي تؤمن بأن الزوجة دائمًا مخطئة حتى لو كانت على حق والزوج دائمًا على حق مهما أخطأ، ولذلك لم تتأثر بالدموع التي ترقرت في عيني ابنتها فاطمة وهي تحكي عن استفزاز مختار المستمر لها، وإنما لامتها لأنها استجابت لمحاولاته استفزازها، وقالت لها أنها لو ظلت صامتة لما تطور الأمر وانتهى بالطلاق .

بالطبع لم يستطع مختار أن يبقى في منزله وحيدًا وهو رجلٌ عاجز مريض، فاتصل بأخته فوزية وأخبرها بما حدث فجاءت وأخذته لكي يقيم في منزلها .

لكنها لم تكن تريد لهذه الإقامة أن تمتد لأنها لم تستطع الجمع بين الاعتناء به والاعتناء بزوجها وأولادها. ولذلك سارعت بالاتصال بأم فاطمة واستنكرت ما فعلته فاطمة بمختار واعتبرته تصرّفًا قاسيًا ليس من المفترض أن يصدر عن زوجة تجاه زوجها المريض .

ساندت جدته عمته في موقفها، وحثت والدته على العودة لمنزلها، ولكن فاطمة لم تتصور أن تعود لمختار بهذه السهولة بعد إذلاله وإهاناته المستمرة لها، ولذلك اشترطت أن يأتي لكي يعتذر لها ويصطحبها للمنزل بنفسه .

شعر كريم بالفخر بوالدته لأنها أصرت على هذا الشرط ولم تتنازل عنه رغم محاولات إخواتها وأقاربها الضغط عليها من أجل التنازل عنه.

كان يظن أن والده لا يمكن بجبروته وتكبره أن يتنازل ويأتي معتذرًا لأمه .

ولذلك لم يصدق نفسه عندما رأى والده يدخل منزل جدته ويحييها بكل أدب واحترام، وبمجرَّد أن رأته والدته يدخل حجرة الصالون ويلقي عليها السلام تخلت عن رغبتها في أن يعتذر لها واعتبرت مجيئه للمنزل ردًّا كافيًا لاعتبارها. وعلى الفور لمت أشيائها وأخذت الأولاد وعادت معه للمنزل.

شعر كريم بالسعادة عندما رأى تغيّرا واضحًا في طباع أبيه بعد رجوعهم للمنزل .

لقد بات يطلب من أمه ما يريده بهدوء ويشكرها باحترام، كما توقف عن افتعال الشجارات معه ومع أخويه.

ولكن بعد مرور أسبوع، سمع كريم والده يصيح ويتهم والدته بالإهمال لأنها أحرقت ياقة قميصه وهي تكويه، فاعتذرت له والدته ووعدته بأن تشتري له قميصًا جديدًا .

بعد هذه المشاجرة عاد كل شيء بين والديه كما كان قبل الطلاق .

عاد والده يثور ويشكو ويفتعل معهم الشجارات لأتفه الأسباب. وعادت والدته تقول حاضر وطيب ونعم أو تلوذ بالصمت ثم تلقي اللوم على نفسها. وعاد كريم يشعر بالرغبة في الهروب من هذا المسلسل التراجيدي المكرر بأي شكل ويشعر بالإحباط من البشر الذين يستعصون عن التغيير .

اندمج كريم في الحديث والتعبير عن مشاعره لدرجة أنه لم يدرك أن سها لم تكن منتبهة لكلامه. لقد لفت نظرها وهي تنظر للشارع رجل أسمر نحيف شعره أسود مجعد يرتدي جلبابا أبيض فضفاض ويجلس على الكرسي القابع في الجهة المقابلة للسيارة. خمنت من الأريحية التي يجلس بها على الكرسي أنه حارس تلك العمارة .

رأته يدس يده في جيب جلبابه ويخرج منه عود ثقاب وعلبة سجائر .

أخرج سيجارة من العلبة وأشعلها بسرعة ثم وضعها بين شفتيه الغليظتين .

أخذ ينفث الدخان بهدوء من فمه وأنفه وقد ثبت عينيه السوداوين الواسعتين على سها، وأخذ يتأملها باهتمام وعلى وجهه ابتسامة ساخرة أزعجتها فقررت أن تتجاهله .

أدارت وجهها ناحية كريم، وحاولت أن تركز في الاستماع لحديثه، ولكن لم تستطع أن تقاوم رغبتها في التطلع ناحيته للتأكد أنه لا ينظر لها. ازداد شعورها بالضيق

عندما اكتشفت أنه مازال يحدِّق فيها بكل وقاحة. ألهبتها نظراته المتفحصة وأحسَّت أن عينيه ستخرجان من محجريهما وتخترقان زجاج السيارة من أجل الاستماع لما يقوله لها كريم.

أخذ يرتشف من كوب الشاي ثم فرد ظهره للوراء، ووضع قضبته تحت ذقنه وواصل التحديق فيهما كأنه يشاهد فيلمًا رومانسيًا وينتظر ظهور المشهد الساخن. اشتعلت أعصابها وانتباتها رغبة في الخروج من السيارة وسبّ هذا الرجل، ولكنها أدركت أنه سينكر بسهولة أنه كان ينظر للسيارة. رأها كريم تتململ على كرسيها وتفرك يديها وتهز ركبتيها بعصبية فسألها "مالك؟ "

حركت رأسها ناحية العمارة وأخبرته بمراقبة البواب لهما، ثم نهت عليه ألا يحدق فيه حتى لا يشعر أنهما يتحدثان عنه. اختلس كريم نظرة سريعة ناحيته ثم مطَّ شفتيه في ضيق .

طلبت منه أن يحرك السيارة ويقف بها في أي مكان آخر.

فقال لها:

-لا مش هنتحرك من هنا لأننا مهما رحنا في أي مكان مش هنقدر نهرب من نظرات الناس. إحنا زي أي اتنين بيحبوا بعض وقاعدين مع بعض عادي ومفيش حاجة غلط بنعملها ومحدش يقدر يمسك علينا فرصة .

تضرج وجه سها عندما سمعت كلمة "بيحبوا بعض ".

لم تتوقع أن يعترف كريم بحبه لها بهذه الطريقة. الحقيقة أنها لم تشعر باحتياج للاستماع لهذا الاعتراف، إنها تعلم جيّدًا أنه يحبها من عينيه اللاتي تتأملاها كأنها أجمل فتاة على وجه الأرض، والحيوية التي تظهر على ملامحه وحركة جسده عندما يراها قادمة نحوه.

ورغم أنها مثل كل فتاة تحب الاستماع للكلام الرومانسي، إلا أنها لم تتضايق لأنه لم يؤلف لها أغنية، ولم يحكِ لها عن الليالي الطويلة التي يقضيها في التفكير فيها،

لأن جزءا منها مازال يشعر أن الحُب شيء محرَّم ومُحرِج لا يصح أن يتحدث المرء عنه. كما أنها اكتشفت أن كل كلام الحُب الذي يقوله الشباب للبنات عادة ما يكون مبتذلاً ومبالغًا فيه، ومهما بلغ جماله وروعته لا يمكنه أن يعبر عن المشاعر الحقيقية التي تجيش بها قلوب المحبين، فمَن يتحدث كثيرًا عن الحُبِّ لا يشعر به فعلا، أما من يشعر به لا يستطيع أن يتحدث عنه كثيرًا.

شعر كريم بالإحراج عندما اكتشف الكلام الذي فلت منه بدون وعي، ولكنه اطمأن عندما رأى سها تبتسم له وتهز رأسها بالموافقة على كلامه.

تبادل معها الابتسامات ثم قال لها:

-أنا أسف لأني مش عارف أعبر لك عن مشاعري كويس .

ردَّت عليه هامسة:

-ماتتأسفش أنا مش مضايقة.

قررت سها الانصراف بعد أن أدركت أن الوقت داهمها. خرجت من السيارة فرأت البواب مازال يبتسم لها، فرمقته بنظرة مزدرية ثم غادرت الشارع بخطوات سريعة.

* * *

أصبحت سيارة ريم هي المقهى الذي يتقابل فيه كريم وسها مرّتين في الأسبوع بين المحاضرات. كانت سها في البداية ترتجف وتتلفت حولها وهي تمشي في الطريق لمقابلته، وبعد أن تجلس بجواره تسيطر عليها حالة من التوتر والقلق تعوقها عن الحديث معه، وعندما تعود للمنزل تفحص وجوه أهلها بحثًا عن علامات تشير إلى معرفتهم بما تفعله من ورائهم، ثم تهدأ مخاوفها عندما تجد كل شيء مازال على حاله.

وبمرور الوقت وتكرار المقابلات تعلمت سها أن تتأقلم مع الخوف فاتخذته صديقًا لها، وصارت تسمح له بالتواجد معها ومرافقتها حتى يجعلها منتبهة وحذرة دومًا، ولكنها أصبحت تعرف كيف تكبحه عندما تكون مع كريم حتى لا يفسد عليها جلستها معه.

في البداية كانا يقضيان وقتهما في الاستماع معًا لأغاني الروك والمناقشة حول معانيها. ولكن بعد أن تعودت سها على التواجد مع كريم والحديث معه تشجعت وحدثته عن نفسها. حكت له عن قسوة والدها وعن استبداد جدتها ونضال والدتها وغرور أخوها تامر وشقاوة أختها روان وارتباطها الشديد بها، ثم اعترفت له بالشيء الذي لم تعترف بها لأحد من قبل وهو أنها ظلت لفترة طويلة تظن أن والدها يكرهها وأعتقدت أنها تكرهه حتى تعرض لحادثة كاد أن يموت فيها .

أستولت الدهشة على كريم وهو يستمع لاعترافات سها، ولكنه عندما ربط بين حياتها وحياته أدرك مغزى الابتسامة الغامضة التي ارتسمت على وجهها عندما حكى لها عن طلاق والديه .

* * *

- 20 -

في منتصف شهر يوليو ذهبت سها لأحد المعاهد الخاصة لكي تأخذ دورة في الكمبيوتر، وبعد أن خرجت من المعهد في الساعة الواحدة والنصف ظهرا وجدت كريم ينتظرها بسيارة أخته لكي يوصلها. وقبل أن يتحرك اقترحت عليه أن يقف بالسيارة ناحية الكورنيش حتى يجلسا أمام البحر.

دار بالسيارة عند أول فتحة، ثم سار بها بمحاذاة الكورنيش حتى وجد مكانًا خاليًا فركن السيارة فيه. خرجت سها من السيارة وتوجهت ناحية سور الكورنيش وقفزت فوقه بخفة، ثم جلست عليه في مواجهة البحر. أغلق كريم السيارة ثم تبعها وجلس بجوارها على السور.

أخذًا نفسًا عميقًا وملأ رئتيهما بهواء البحر المالح المشبع باليود، وأخذا يتأملان بانبهار صفحة البحر الواسعة الهادئة التي غطاها اللون الأزرق بكل درجاته، ابتداءً من اللون الفاتح المائل للأبيض في المنطقة القريبة من الشاطىء، ثم اللون الفيزوي اللامع في منتصف البحر حتى اللون الأزرق الداكن الذي امتد حتى الخط الذي تتلاقى فيه مياه البحر بالسماء فتبدو كقطعة واحدة من لوحة ربانية مدهشة .

تسلطت أشعة الشمس فوق وجه كريم فألهبت بشرته وأعمته عن الرؤية .

تحرك كريم قليلاً بالقرب من سها، وبدون قصد اصطدم ذراعه بذارعها، فجفلت واهتز جسدها كأن تيارا كهربائيًا سرى فيه. كاد أن يتأسف لها لولا أنها منحته ابتسامة دافئة ردها لها بابتسامة أكثر اتساعًا.

أدت هذه الابتسامات إلى ولادة لحظة مفاجئة بينما توقفت خلالها الساعة عن الدق وتوقفت الأرض عن الدوران .

لحظة تطلعا فيها لبعضهما، فشاهدا ملامح أطفالهما الذين لم يولدوا بعد .

لحظة ذهبية اختلطت فيها داخل قلبيهما السعادة بالسلام النفسي وراحة البال وبدا فيها الكون قطعة مصغرة من الفرودس .

لحظة لم يتمكن أي منهما من التعبير عنها بالكلام لأنها لا توصف. ولكن الضحكة العفوية الحُرَّة التي أطلقتها سها أثناء مرورها عبّرَت عن جوهرها .

لاحظت سها مركب صيد صغيرة تبتعد ببطء عن الشاطىء وتتجه تدريجيًا ناحية الأفق البعيد. ابتسمت وتطلعت لكريم فرأته يمسح جبينه الذي تفصد منه العرق بمنديل أبيض صغير. أشارت بأصبعها لمركب الصيد وسألته:

-مفكرتش إنك تركب مركب زي مراكب الصيادين دي وتفضل ماشي بيها لغاية ما توصل البر التاني وتشوف فيه إيه؟

انفجر في الضحك معتقدًا أن الغرض من سؤالها المزاح، ولكنها لم تشاركه الضحك. أخبرها أن هذه الفكرة لم تخطر بباله أبدًا، ولكنه يعلم من خلال دراسته للجغرافيا أن الناحية الآخرى من الشاطئ تقع فيها قبرص وجزيرة كريت ولبنان وإيطاليا. كل هذه الدول بالطبع أجمل وأنظف كثيرًا من مِصر لأن الجانب الآخر من الشاطئ لابد أن يكون أجمل وأفضل.

لم تهئنه على معلوماته العامة وإنما قالت له:

-لا مش كفاية إننا نبقى عارفين أسامي الدول اللي موجودة الناحية التانية، لازم نستكشفها بنفسها ونعرف فيها إيه .

سألها مازحًا:

-يعني انتي فعلا عايزة تاخدي مركب صيد وتلفي بيها على كل الدول دي؟

-ليه لأ طالما مفيش معايا فلوس الأرخص أخد مركب .

نظر لها كريم باستغراب لأنه لم يعرف إذا كان يجب عليه أن يأخذ كلامها على محمل الجد أم يضحك عليها. اتسعت ابتسامتها وهي تقول له:

-أنا طول عمري بحلم إني أسافر لأني عمري ما طلعت من الإسكندرية أبدا، بس أنا مش عايزة أروح أي مكان في مصر. أنا ألف كل دول العالم واكتر دولة تعجبني أقعد فيها ومرجعش هنا تاني .

-وايه أكتر دولة نفسك تزوريها؟

-ياااه دول كتيرة. أنا محتارة أزور إيطاليا الأول ولا فرنسا بس أنا بحبهم الاتنين.

كانت تتحدث عن حيرتها في الاختيار بين هاتين الدولتين كأنها محتارة في الاختيار بين أصناف الطعام التي تريد أن تتناولها على الغداء .

أخذ ينظر لها كأنها خارجة لتوها من مصحة الأمراض العقلية، ولكنها لم تأبه لنظراته وسألته بجدية:

-محلمتش إنك تسافر أمريكا أو بريطانيا وتعمل فرقة روك تكسر الدنيا زي بينك فلويد؟

أدرك أنها ليست مجنونة. كل ما في الأمر أن خيالها جامح. ولكن حديثها عن السفر للخارج بدا له كأنه حديث عن السفر لكوكب المريخ.

-بتهزري، وأنا إيه اللي هيسفرني بره؟

رتبت شعرها الذي بعثره هواء البحر وهي تسأله:

-أمال عايز تحترف الموسيقى إزاي؟

-هسافر القاهرة مع الفرقة بتاعتي ونعزف هناك ونعمل ألبومات.

رفعت حاجبيها في دهشة وقالت له:

-هو ده أقصي طموحاتك، ده إنت لو رحت أمريكا هتبقى حاجة تانية خالص.

ندت عن كريم ابتسامة خجولة وشعر بالسعادة لأن سها تراه في موقع أفضل ولكنه لم يصدق مدحها.

-انتي هتلاقي العشرة مني بقرش في أمريكا، غير إنه أكيد في ناس كتير أحسن مني.

-كل واحد في واحد أحسن منه، بس ده مش معناه إنك مش موهوب ومتستاهلش فرصة أحسن.

إنها محقة، هذا ما قاله الأستاذ علاء. إنه يملك الموهبة، ولو كان يعيش في بلد تهتم بالموسيقى والعازفين لكان له شأن أخر. مشكلته فقط هي الخوف. الخوف من المجهول والخوف من الفشل والخوف من المتاعب والمعاناة والخوف أن يترك منزله الآمن وحياته التي اعتاد عليها.

طلبت سها منه أن يتخيَّل نفسه وسط ألاف المعجبين الذين يطلقون صيحات الإعجاب بمجرد أن تلمس أنامله أوتار الجيتار.. يؤلف أغنية تحقق نجاحًا ساحقًا ويرددها ملايين الناس حول العالم، فيصير نجمًا من نجوم موسيقى الروك ويكسب ملايين الدولارات، ويعيش معها في قصرٍ كبيرٍ مكوَّن من عشرات الحجرات، وتحيط به حدائق مترامية الأطراف وحمام سباحةوملعب تنس وصالة بلياردو ودار عرض سينيمائي. الله.. ما أجمل الأحلام!

إنها المكان الوحيد الذي يمكن فيه تحقيق ما تريده في غمضة عين. والأجمل أن كل ما تخيلتْه سها بدا لكريم حقيقيًا.. فها هو يجلس أمام الطاولة في حديقة القصر، تحت شمس هوليود مع سها والعصافير تصدح حولهما وأولادهما يسبحون في حمام السباحة.

إذا كان ما تحلُم به سها جنون، فهو أمير المجانين. فما أروع جنون الأحلام، والأروع أن تتحقق هذه الأحلام. سها محقة.. لماذا يرضى أن يكون أقصى أحلامه أن يصير عازف جيتار في مطعم أو ملهى ليليّ إذا كان بإمكانه أن يطير فوق السحاب ويكون نجمًا بالمعنى الحقيقي للكلمة. ولكن كيف يستطيع أن يسافر؟

تذكر أن الأستاذ علاء أخبره أن هناك جامعات في الخارج تعطي منحًا مجانية لدراسة الموسيقى. إنه مازال يتصل به ويطمئن عليه ويذهب لزيارته في المركز أحيانًا رغم أنه توقف عن أخذ دروس الجيتار بعد أن وصل لدرجة متقدمة من الاحتراف.

اتصل بالأستاذ علاء وأخذَ منه موعدًا، وفي المساء ذهبَ لمركز الموسيقى وهو يشعر بالثقة أن الرجل سيشرح له خطوات سهلة تساعده على الهجرة واحتراف الموسيقى بالخارج.

أخبره بحماس أن الفتاة التي يحبها والتي أخبره عنها من قبل، اقترحت عليه أن يهاجر معها لأمريكا، لكي يحترف الموسيقى وأنه يفكر في دراسة الموسيقى في الخارج عن طريق منحة مجانية .

ابتسم الأستاذ علاء وردَّ عليه بهدوئه المعتاد:

-بس المنح دي متنفعش إلا للمتخرجين من كلية التربية الموسيقية هنا

بدا عليه القلق ثم سأله:

-طب ممكن أسافر أمريكا وأحاول أحترف الموسيقى هناك؟

-ممكن طبعا، بس أهلك موافقين؟

-لا أنا لسه مقلتش لحد من أهلي، بس أكيد هما هيوافقوا على الأقل هيخلصوا مني ومن مصاريفي .

-لا المسألة مش بالسهولة دي، لازم يكونوا مستعدين يدفعوا لك خمسة ألاف جنية تمن تذكرة السفر. وكمان لازم يبعتولك فلوس تصرف هناك لأنك مش هتلاقي شغل على طول ولازم هتتهدل في الأول كتير لغاية ما تعرف تقف على رجليك .

حديث الأستاذ علاء عن الصعوبات التي سيواجهها عند سفره كان بمثابة صفعة قاسية طردته من أرض الأحلام، وردته لأرض الواقع .

كيف لم يفكر في تكاليف السفر وثمن التذكرة؟ أم ظن أنه سيذهب لأمريكا مشيًا على الأقدام؟ وكيف سيجرؤ على أن يطلب من أخته أو أمه أن تساعداه في السفر وهما تنفقان كل مرتبهما في المنزل؟ ولماذا لم يفكر في المجهول المخيف الذي ينتظره هناك حتى لو نجح في السفر؟ هل تصور أن أمريكا ستفتح ذارعيها له، فقط لأنه

يجيد العزف على الجيتار. الله يسامح جنون سها. هي من حثته على الحُلم وجعلته يتصور أن المستحيل يمكن أن يصبح حقيقة.

رأى الأستاذ علاء الإحباط واليأس مرسومان على وجهه، فربت على كتفه بحنان وذكَّره بالوعد الذي أعطاه له ألا ييأس أبدًا. لقد نسى هذا الوعد الذي وافق عليه في لحظة كان سعيد فيها، لكن هل يستطيع فعلا أن يمنع نفسه من اليأس الآن بعد أن أدرك أنه محاط بواقع قاتم خانق للطموح؟

اتصل بسها في اليوم التالي وأخبرها أن حُلمهما بالسفر للخارج مستحيل أن يتحقق بسبب الصعوبات والعوائق المادية التي ستواجههما إذا حاولاً السفر.

فوجىء بها تنطلق في الضحك ثم قالت له:

-إنت بتفكر في تفاصيل الهجرة دلوقتي ليه؟ إنت لسه قدامك سنتين، وأنا قدامي تلات سنين، وعقبال ما نتحرج يحلها الحلال خليها على الله وخلي عندك ثقة فيه .

استغرب من البساطة الزائدة التي كانت تتحدث بها، ولكنه لم يستطع أن يعارضها بعد أن طلبت منه أن يضع ثقته في الله. ربما هي ليست ساذجة ولكنها مؤمنة .

وربما عليه أن يفكر مثلها ويتوقف عن القلق ولا يسرع في التخطيط وحساب كل شيء بالورقة والقلم. ربما تظهر له فرص جديدة بعد التخرج وتُفتح له أبواب كان يظن أنها مغلقة. الحياة مليئة بالغرائب والعجائب وكم من أناس حققوا أشياءً ظنَّ الجميع أنها مستحيلة. أي شيء ممكن أن يتحقق بأمر الله. فلينتظر حتى التخرج ويتفاءل خيرًا .

* * *

- 21 -

الثقة هي كلمة السِر وراء استمرارعلاقة سها وكريم لمدة عامين، رغم كل الصعوبات والمخاوف والمعوقات التي اعترضت طريقهما .

الثقة هي التي جعلت سها تستمر مع كريم رغم انفصال صديقتها نهلة عن صديقه هيثم بعد أن رأته يقف مع فتاة آخرى غيرها في الجامعة. الثقة هي التي جعلتها تذهب لمقابلته وهي واثقة من أنه سيحافظ عليها ولن يتخطى حدوده معها. الثقة هي التي تجعلها تصدق أنه سيتقدم لها بعد التخرج، والثقة هي التي تجعلها مقتنعة أنه يحلُم مثلها باليوم الذي يجمعهما فيه منزل واحد.

وهو أيضًا كان يشعر بنفس الثقة تجاهها. كان واثقًا أنها صادقة في حُبّها له، وأنها لن تفعل مثل باقي الفتيات وتقبل أول عريس جاهز يتقدم لها، وأنها ستنتظره وستتحمل معه كل الصعوبات حتى يقف على قدميه ويستطيع أن يفتح بيت. علاقتهما مبنية على الثقة والثقة مبنية على الحُبِّ. فالحُبُّ يجعلك تثق في أخلاق من تحبه، ويجعلك تصدق أن وعوده ميثاق شرف مقدس لا يمكن أن يخرج عنه .

ولكن دائمًا يأتي وقت على المحبين يتعرض فيه أحدهما أو كلاهما لاختبارٍ صعب لكي يتأكد من خلاله من صدق وقوة مشاعره تجاه الطرف الآخر .

وقد جاء وقت الاختبار بالنسبة لسها عندما عادت لمنزلها في الظهيرة بعد أن انتهت من أداء آخر امتحان لها. لاحظت أن السجادة الصغيرة الخضراء الموضوعة أمام المدخل اختفت فشعرت بالارتياب. ثم تحول ارتيابها لخوف عندما فتحت باب المنزل ولم تجد السجادة الكحلي التي تغطي ردهة الشقة .

ولكن خوفها تبخَّر سريعًا عندما رأت أم سعد الخادمة تدخل الشرفة ومعها السجادة. خرجت أمها من المطبخ وبمجرَّد أن رأتها هرعت نحوها، وقامت باحتضانها بقوة كأنها لم ترها من زمن طويل، وأخذت تسألها عن أخبار الامتحان فطمأنتها أن الامتحان جاء سهلا، وأنها أبلت بلاءً حسنًا .

أحسَّت سها أن هناك شيئًا مجهولاً يربط بين ترحيب أمها المبالغ فيه بها، وتنظيف أم سعد للشقة اليوم. سألتها عن سِرّ إحضارها لأم سعد اليوم، رغم أنها لا تطلبها إلا قبل العيد بسبب ارتفاع أجرتها. ابتسمت والدتها في ارتباك ثم جذبتها من يدها ومشيت معها باتجاه حجرة نومها.

بعد أن أغلقت سلوى باب الحجرة، وضعت يديها فوق كتفي سها وازدادت ابتسامتها اتساعا لتكشف عن أسنانها التي اصفرت من كثرة تناولها للشاي والقهوة، وهتفت في حماسٍ:

-النهاردة في ناس جايين عندنا البيت علشان يشوفوكي.

-هه؟ مين الناس دول؟ وجايين يشوفوني ليه؟

ضحكت سلوى على سذاجة ابنتها التي لم تستطع رغم ذكائها أن تفهم لماذا يأتي أناس غرباء للمنزل من أجل رؤيتها.

صمتت للحظات وتركتها تفكِّر لعلها تفهم من تلقاء نفسها. ولكن عندما رأتها تهز رأسها في حيرة، مالت برأسها للأمام ونظرت لها والفرحة تقفز من عينيها وقالت:

-فيه عريس جايلك.

-أنا جايللي عريس؟

أشارت سها لنفسها في اندهاش، فردت عليها أمها ساخرة:

-لا جاي لروان

ضحكت سها رغما عنها، وأخذت تهز رأسها يمينًا ويسارًا كأنها بندول الساعة.

لم تعرف لماذا لم تستطع استعياب فكرة أن يأتي عريسًا لرؤيتها؟ إنها شابة في العشرين من عمرها، باهرة الجمال ومتعلمة ومن أسرة طيبة حسنة السمعة. فمِن الطبيعي بل من المتوقع أن يتهافت الشباب على الارتباط بها .

وهي لم تعد طفلة رغم أن هناك جزءًا منها يود لو ظلت طفلة .

إنها شابة ناضجة تعرف الحُبَّ، وتعرف كيف تقابل من تُحِبُّه من وراء أهلها وتعرف أيضًا أنها تريد أن تتزوجه، ولذلك قرَّرت ألا تقبل عريسًا سواه، ولكنها لم تتصور أن العريس سيأتي بهذه السرعة. عندما سألت والدتها عن شخصية هذا العريس رسمت ابتسامة غامضة على شفتيها ثم أكدت لها أنها رأت هذا العريس وتحدثت معه .

هل من المعقول أن يكون أحد زملائها في الجامعة، أو ربما يكون كريم أخبر أهله وجعل والده يكلم والدها؟ لا مستحيل أن يعد كريم مفاجأة بهذا الحجم من ورائها .

تأكدت سها أن العريس المجهول ليس كريم عندما أخبرتها أمها أنها رأته في محل والدها. رجعت بذاكرتها ليوم الجمعة الماضي، حيث لم يستطع والدها العودة للمنزل في موعد الغداء لأنه كان في انتظار وصول شحنة جديدة من أدوات المطبخ. فاتصل بالمنزل وطلب من سها أن توصل طعام الغداء له في المحل .

بعد وصلت سها للمحل، ووضعت لوالدها الطعام، جلست لدقائق لتشرب زجاجة مياه غازية اشترتها من محل البقالة المجاور للمحل، بينما دخل والدها الحمَّام ليغسل يده. رأت رجلاً طويلاً أصلع، مفتول العضلات ينظر لواجهة المحل، ثم دخله بخطوات بطيئة وأخذ يلقى نظرة سريعة على أجهزة التليفزيون .

ضحكت على التناقض العجيب بين رأسه الذي لا توجد بها شعرة واحدة وذقنه المغطاة بالشعر الكث الكثيف .

التفتَ إليها وأشار للتليفزيون الكبير القابع في منتصف المحل، وسألها بصوتٍ أجشٍّ جهوري عن سعره. أخبرته أنها لا تعرف الثمن لأنها ليست البائعة.

سألها بنبرة متهكمة:

-امال انتي بتعملي إيه هنا؟

ردَّت عليه بغيظ:

-وأنت مالك؟

سمع والدها ردها وهو خارج من الحمام، فوجَّه لها نظرة قلقة وسألها:

-فيه إيه يا سها بتتكلمي مع مين؟

ردَّ الرجل بنبرة ساخرة:

-إيه يا حاج البياعة اللي انت جايبها دي بترد عليا وحش أوي؟

صاحت فيه:

-قلتلك أنا مش بياعة.

فالتفت والدها ناحيته وقال له بطريقة رسمية:

-دي بنتي يا أستاذ.

تحولت ابتسامته الساخرة إلى ابتسامة اعتذار وتأسُّف لها عن سوء التفاهم، بينما نهرها والدها عن ردها الفظ على الزبون. أحسَّت من طريقته المصطنعة في الاعتذار أنه كان يعلم أنها لا تعمل في المحل، ولكنه عاملها كأنها البائعة لكي يتحدث معها .

أخذ والدها يعرض عليه أجهزة التليفزيون ويشرح له مميزاتها وأسعارها .

لاحظت أنه كان يسترق النظر بين الحين والأخر ويبتسم لها بسماجة. أشعرتها ابتسامته أنه من الأشخاص الذين يظنون أنفسهم ظرفاء، لكنهم يلقون نكاتًا لا يضحك عليها أحد سواهم. لم تحتمل البقاء مع هذا الرجل السخيف في نفس المكان لفترة أطول فاستأذنت من والدها وغادرت المحل.

وبينما كانت تبحث عن تاكسي لتركبه سمعت صوت بوق سيارة يتردد بقوة بجوار أذنيها كأن صاحبه يريد أن يلفت انتباهها .

أدارت رأسها للخلف فرأت سيارة رمادية ضخمة تقف وراءها. رأت الرجل الأصلع يخرج رأسه الضخمة من السيارة ويشير لها بيده، ثم خرج من السيارة وتوجه ناحيتها ليجدد لها اعتذاره .

أحسَّت بالضيق عندما رأته، فقالت له بنفاذ صبر:

-اعتذارك مقبول يا سيدي. عن إذنك أنا عايزة أروح.

-طب ما تخليني أوصلك أنا فاضي مفيش ورايا حاجة.

-إيه الوقاحة دي؟ بقولك إيه انت لو ما سبتنيش ومشيت هاروح أناديلك بابا ييجي يعرفك مقامك .

جذب صياحها نظر المارة إليه فتملكه شعور بالحرج، واضطر أن يتوقف عن الحديث معها، ولكنه لم يشأ أن يتركها قبل أن يودعها بابتسامته اللزجة .

حكت سها لوالدتها عن معاكسته السخيفة ودعوته لها للركوب معه وهي تظن أنها ستشاركها الامتعاض، ولكن فوجئت بها تقول لها وهي تغالب ضحكاتها:

-وماله تلاقيه كان بيختبر أخلاقك.

-نعم؟ بيختبر أخلاقي إزاي؟

نظرت لها والدتها في فخر وقالت:

-أيوه رجالة كتير بيعملوا كده علشان يتأكدوا من أخلاق البنت قبل لما يخطبوها .

لو كنتي ركبتي معاه كنت سقطتي في الاختبار ومكانش هييجي يخطبك. لكن انتي أثبتي له إنك متربية صح وعلشان كده هو جاي عندنا وهو مطمن .

لم تصدق سها أن هذه المعاكسة السخيفة كانت اختبارا لأخلاقها. بدا لها من نظراته الشهوانية وتصرفاته الوقحة أنه رجلا يجد متعة في مطاردة النساء ومصاحبتهن .

ولكن ماذا لو كان كلام أمها صحيحًا، فهل من المسموح لها أن تختبر أخلاقه كما اختبر أخلاقها؟ يمكنها أن تسلط عليه فتاة جميلة وتجعلها تعرض نفسها عليه ولو رفضها تطمئن لأخلاقه وتوافق عليه. ولكنها لا تريد الزواج منه حتى لو اتضح لها أنه أكثر شخص مستقيم في العالم .

قالت لأمها بضيق:

-ده دمه تقيل أوي ده أنا مقدرتش أقعد معاه في المحل دقيقين.

بدا على أمها الانزعاج من تعليقها فهمَّت بالدفاع عنه قائلة:

-ده عريس لقطة.

لم يتغير رأي سها في العريس بعد أن أخبرتها والدتها ببياناته التي حصل عليها والدها بشكل مباشر منه وبشكل غير مباشر بعد أن سأل عنه. اسمه«صلاح الدريني»، يعمل مهندسا في إحدى شركات البترول، والده مستشار على المعاش ووالدته تعمل موجهة اقتصاد منزلي، يملك شقة مكونة من ثلاث حجرات في المعمورة ومستعد لتحمل كل تكاليف الزواج .

-وإيه يعني؟ برضه دمه تقيل، وكمان شكله عامل زي العفريت، وكبير في السن.

-لا مش كبير أوي ده عنده 36 بس.

-ده الفرق بيني وبينه 16 سنة.

-وإيه يعني الفرق بين عمتك وجوزها 16 سنة ومع ذلك عايشين زي الفل. والفرق بين جدتك وجدك الله يرحمه كان عشرين سنة وكانوا عايشين مع بعض في منتهى

السعادة. والفرق بيني وبين أبوكي 12 سنة وأدينا متجوزين برضه. بلاش تعقديها بقي علشان حالك يمشي. ربنا يفرحنا بيكي قريب.

دعت سها في سرها ألا يستجيب الله لدعوة أمها. إنها لن تتزوج إلا كريم حتى لو اضطرت أن تنتظره طول حياتها. ثم إن علاقتها به لن تبقى طي الكتمان لمدة أطول.

لقد أوشك على التخرج بعد شهر وبعد تخرجه سيبحث عن عمل، وقريبًا سيكون جاهزًا للتقدم لها. هذا ما أكده لها وهذا ما تصدقه. قريبًا ستتحقق كل الأحلام التي رسماها سويًا. سيتزوجان ويهاجران سويا لأمريكا حيث سيعمل كريم في الموسيقى بينما ستعمل هي في مجال الترجمة. هذا ما خططا له وما اتفقا وتعاهدا عليه، وهذا ما سيحدث بإذن الله. فقط عليها أن تصبر وتثبت ولا تدع أي شيء يغير موقفها. ولتخترع لوالدتها أي عذر حتى ترفضه .

-أنا مش عايزه اتجوز دلوقتي. أنا لسه صغيرة وبتعلم.

-انتي خلاص داخلة على آخر سنة. خليه يخطبك دلوقتي وبعد سنة لما تخلصي كلية نعمل الفرح.

ارتجفت سها عند سماعها لكلمة الفرح، وأدركت أن رفضها لهذا العريس سيكون أصعب مما تصورت. يبدو أن والديها قد وافقا عليه مسبقًا، وحضرا لكل شيء حتى موعد الزفاف وجلوسها معه سيكون تحصيل حاصل .

فتحت سلوى دولاب سها وأخرجت منه فساتين السهرة الخاصة بها، وفردتها فوق الفراش ثم قالت لها بحماس:

-هه هتلبسي الفستان الأسود ولا الموف ولا الأزرق. أنا بقول الأسود هو أحلى واحد

نظرت سها لحبات الخرز المشعة من الفساتين، وقالت لأمها باستغراب:

-معقول ألبس فستان سهرة علشان فيه عريس جايللي. الفساتين بتتلبس في الأفراح.

-أمال عايزة تلبسي تي شيرت وبنطلون جينز كإنك رايحة الكلية؟ انتي هبلة؟ النهاردة أهم يوم في حياتك ولازم تباني قدام العريس وأهله على سنجة عشرة وكمان لازم تعملي شعرك عند الكوافير .

-ما أنزل اشتري فستان الفرح وأدخل عليهم بيه أحسن؟

انزعجت سلوى من سخرية ابنتها من العريس واستخفافها بزيارته، ولكنها بعد أن فكرت في موقفها التمست لها العذر. إنها ما زالت صغيرة ومن الطبيعي أن تظن أن شبابها لن ينتهي وجمالها لن يفنى وطوابير العرسان تنقطع، ولكنها عندما تتذوق فرحة الأمومة والحياة الأسرية المستقرة ستشكرها لأنها أقنعتها بالزواج.

بعد شد وجذب وصلت الأم والابنة لحل وسط. وافقت سلوى على أن ترتدي سها البدلة السوداء الفاخرة التي اشترتها من شهور قليلة، بينما وافقت سها على أن تصفف شعرها عند الكوافير.

* * *

جلست سلوى بجوار سها لتراقبها وهي تضع مساحيق التجميل أمام المرأة. طلبت منها أن تكثر من وضع كريم الأساس فوق جبهتها وذكرتها أنها يجب أن تضع أحمر الخدود على وجنتيها والكحل حول عينيها والألوان فوق جفونها .

نظرت سها لأمها باندهاش وتساءلت هل هذه هي أمي التي انزعجت عندما رأتني أضع البودرة وأحمر الشفاه عندما كنت في المرحلة الثانوية وأمرتني أن أغسل وجهي وإلا لن تخرج معي؟ وبعد دخولي الجامعة استطعتُ بصعوبة أن أقنعه أن تتركني أضع أحمر الشفاه والبودرة حتى لا أبدو أقل جمالاً من زميلاتي في الكلية. هل هذه هي أمي التي كانت تقول لي دائمًا لن أسمح للعرسان بالتقدم لكي إلا بعد أن تنتهي من دراستك؟ هل زيادة أعداد الفتيات اللواتي تأخرن في الزواج دفعتها لتغيير رأيها في مساحيق التجميل والزواج المبكِر؟ أم أن ثراء العريس جعلها تلقي بكل أفكارها القديمة في أقرب صفيحة قمامة؟

عندما بدأت سها في وضع أحمرالشفاه فوق شفتيها الوردتين طلبت منها والدتها أن تزيد منه حتى يبدو واضحًا. أطلقت سها ضحكة مكتومة ومرَّ بخاطرها فجأة فيلم الزواج على الطريقة الحديثة. قالت لنفسها لو أردت فعلا أن أفسد هذه الزيجة فيجب على أن أقلد سعاد حسنى وأضع دهان الحوائط على وجهي وأرتدي فستان مليء بالألوان الفاقعة حتى أبدو أمام العريس وأهله كمهرّجي السيرك القومي، فيعتقدون أنني مجنونة ويفرون مني. ولكن لماذا أقلد مشهدًا من فيلم كوميدي طالما أن أمامي وسائل أكثر ذكاءً لإفساد الزيجة؟

لا يوجد رجل بلا عيب أو نقيصة وما عليَّ إلا أن أراقب عريس الغفلة جيّدًا حتى أعثر على هذا العيب وأشير له وحينئذ سيكون رفضي مقنعًا ومقبولاً.

أوشكت سها على الانتهاء من رسم عينيها بالكحل، عندما دقَّ جرس الباب عدة مرَّات فأحدث صوته رعدة في جسدها، هزت أصابعها وأوقعت قلم الكحل على الأرض. ابتسمت لها أمها بتوتر، وقبل أن تخرج من الحجرة طلبت منها بعد أن تنتهي من تحضير نفسها أن تدخل المطبخ لإحضار العصائر ثم تأتي للجلوس مع الضيوف.

ألقت سها على نفسها نظرة آخيرة في المرآة بعد أن انتهت من وضع المكياج ثم رأت روان تدخل عليها الحجرة .

رفعت روان رأسها الصغيرة، وأخذت تحدق في وجهها المغطى بالمساحيق والبريق المشع من بدلتها السوداء وعلى وجهها ابتسامة حائرة ثم سألتها بفضول:

-إيه يا سها هو انتي ليه لابسة حلو كده هو انتي خارجة؟

توترت قبل أن تقول لها:

-لا أنا مش خارجة أنا هقابل الضيوف اللي جايين لنا.

-أنا نفسي أعرف هما مين الناس دول أنا أول أشوفهم؟

مرَّة آخرى احتارت سها في كيفية الرد على روان، ثم قالت لها بفرحة مصطنعة: - دول أصحاب بابا.

بينما كان لسان حالها يقول لها "لا تسألين عن أشياء لو عرفتيها الآن لن تفهميها، يومًا ما ستكبرين وتعرفين إجابات كل الأسئلة التي حيرتك عندما يأتي الدور عليكي وعندما تفهمين كل شيء ستقولين يا ليتني ما كبرت وما فهمت، ويا ليتني ظللت طفلة تنظر للحياة على أنها ملعب كبير.

نظرت سها بامتعاض للحذاء الأسود ذا الكعب العالي الذي أصرت أمها على أن ترتديه أمام الضيوف، ثم حشرت قدميها فيه بصعوبة. لم تفهم المنطق وراء أن ترتدي حذاءً أنيقًا كهذا في المنزل مع وجود غرباء.

أمسكت بالمقبض النحاسي للباب، وقبل أن تضغط عليه مرَّ طيف كريم بخاطرها، فشعرت بانقباض، وأحسَّت أن جلوسها مع هذا العريس خيانةله. طلبت منه في سِرّها أن يسامحها لانها لاتملك من أمرها شيئًا. إنها مجبرة على تلك الجلسة ولكنها ستفعل كل ما بوسعها لكي تجعلها الجلسة الأولى والأخيرة.

دخلت المطبخ، فوجدت خمسة أكواب من عصير المانجو موضوعة فوق صينية فضية فوق رف المطبخ. وصلَ لمسامعها صوت ضحكة والدها تختلط بضحكات رجال آخرين، فألقت أصداء الضحكات الخوف في قلبها. ارتعشت يديها وهي تمسك بالصينية، فمال العصير خارج الأكواب. لقد فهمت الآن لماذا تندلق أكواب العصائر من أيدي العرائس على ملابس العرسان.

إنه الخوف الطبيعي الذي يشعر به أي إنسان قبل أن يخضع للامتحان والفحص.

ورغم أنها تدرك أن الرسوب في الامتحان في مصلحتها إلا أن كبريائها جعلها ترفض أن تفعل شيئًا لإفساد الجلسة. أرادت أن تنجح في الامتحان بامتياز حتى تكون لها الكلمة العليا ويأتي الرفض من ناحيتها .

مشت ببطء شديد كأنها تمشى فوق حقل ألغام، وأخيرًا دخلت حجرة الصالون.

توقف الحديث ورأت عيون والديها وأخيها تامر والعريس وأهله مسلطة عليها .

لم تستطع احتمال الطاقة الخارجة من كل هذه العيون، فازداد ارتعاش يديها وتقطعت أنفاسها.

مالت الصينية منها مجدّدا وكاد العصير يندلق من الأكواب، لولا أن أمها جرت ناحيتها وأخذت منها الصينية، ثم رفعت الأكواب من عليها سريعًا ووضعتها فوق منضدة الصالون الرخامية وهي تبتسم للضيوف وتشير لها قائلة :

-أعرفكم يا جماعة على بنتي سها.

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجه«الحاجة عائشة »أم العريس. كانت سيدة بيضاء سمينة ترتدي عباءة سوداء مزخرفة باللون البني والأصفر، وتضع على رأسها طرحة بيضاء مزينة بالترتر الأسود. قامت الحاجة عائشة من مكانها ببطء واقتربت من سها ثم احتضنتها بقوة وهي تقول "بسم الله ما شاء الله تبارك الخالق. صلاح طول عمره ذوقه حلو"

هتف صلاح في حماس "أنا مش قلتلك يا ماما إنها هتعجبك" ثم قام من كرسيه وبسط يده لكي يصافح سها. ابتلت يدها من رطوبة أصابعه ورأت صلعته البيضاء تلمع من فرط العرق فتساءلت إذا كان متوتر مثلها أم أنه يشعر بالحر بسبب البدلة الزرقاء الثقيلة التي يرتديها؟ ومع ذلك لم تسمح لنفسها بالتعاطف معه .

تولى والدها مهمة تعريفها بوالد صلاح المستشار«كامل الدريني» وأخوه الصغير «فتحي» الطالب في كلية الصيدلة. رأتهما نسخة من صلاح في ضخامة الجسد والصلع. يبدو أن الصلع وراثي في عائلة صلاح وهذا سبب إضافي وإن كان تافها يجعلها ترفض الزواج منه.

رأت أخاها تامر يسند رأسه بكفه وقد علت وجهه ابتسامة متحمسة كأنه على وشك مشاهدة فيلم كوميدي أو مباراة. الفضول كان السبب الوحيد الذي دفع

تامر للتواجد في تلك الجلسة، وكان ينقصه فقط علبة الفيشار لكي تكتمل متعته وهو يشاهد خوف أخته وتوتر العريس وترحيب والديه المبالغ فيه بأهل العريس .

لم تكد سها تجلس لعدة دقائق حتى بدأت الأسئلة تتلاحق عليها من الحاجة عائشة التي كانت تجلس في المقعد المواجه لها.

-انتي في كلية إيه وفي سنة كام؟

-آداب انجليزي سنة تالتة.

-طب ليه اخترتي قسم انجليزي؟

-أصلي بحب الانجليزي جدا من صغري.

-وانتي شاطرة في الكلية؟

-أيوه الحمد لله أنا من العشرة الأوائل على الدفعة لغاية دلوقتي.

-طب وناوية تشتغلي بعد لما تتخرجي؟

-طبعا، اومال أنا بدرس وبذاكر ليه؟

تبخرت الابتسامة من على وجه الحاجة عائشة وتطلعت لابنها بقلق.

ثم نظرت لسها بجدية، وأخبرتها أن ابنها يريد أن تكون زوجته ربة بيت حتى تتفرغ لرعايته والاهتمام به، كما أنه لن يحتاج لمرتبها لأنه يستطيع الإنفاق على البيت بمفرده.

دارت سها فرحتها باعتراض الحاجة عائشة على رغبتها في العمل بأن تجهمت وعقدت حاجبيها وضيقت عينيها وهي تسألها:

-مش حضرتك بتشتغلي برضه؟ يبقى ليه الشغل يبقى حلال ليكي وحرام عليا؟

أحدث سؤالها صعقة في الغرفة تسببت في احتقان وجوه الجميع ما عدا تامر الذي أخذ يضحك على الحاجة عائشة وهي تعض على شفتيها من فرط الغيظ .

وجهت سلوى لسها نظرة حادة وقالت لها بلهجة زاجرة "عيب كده يا سها إيه قلة الذوق دي؟ فقاطعتها الحاجة عائشة وهي تتظاهر بالتسامح:

-سيبيها يا مدام سلوى ليها حق إنها تسأل السؤال ده. شغلي هو السبب اللي خلى صلاح عايز مراته تقعد في البيت، فرغم إني كنت مُدرسة لكني كنت برجع البيت دايما تعبانة وعايزة أنام، ومكنتش باعرف أخد بالي من ولادي كويس ولولا أمي الله يرحمها كان زمانهم اتهدلوا. اسمعيها نصيحة مني يا بنتي صاحب بالين كداب والست في النهاية ماعندهاش حاجة أهم من بيتها وأولادها.

أسرع محمود في الإقرار بصحة كلام أم العريس:

-عندك حق يا حاجة عائشة والله العظيم. أنا لو رجع بيا الزمن للوراء كنت قعدت سلوى في البيت، عموما موضوع الشغل ده مش هتختلف عليه، المهم يحصل قبول ووفق.

ضغطت سها على أسنانها السفلية وبدا عليها الحنق وهي ترى والدها يحاول إفساد حيلتها بمهادنته لأم العريس. إن القبول الذي يتحدث عنه لا يمكن أن يتحقق. إنها تشعر برغبة في التقيؤ كلما تفكر في إمكانية أن تستيقظ يوميًا لتجد هذا الرجل نائمًا بجوارها. كل شيء فيه ينفرها منه.. ضخامة جسده ورأسه، صلعته، شعر لحيته المهوش الذي يبدو كحشائش غير مشذبة، صوته الأجش القوي الذي يُحدث صدى قوي في الغرفة حتى عندما يهمس. عيناه السوداوتين اللتين تراقبان كل حركة ولفتة تصدر منها. إنه يتطلع ناحيتها متظاهرا بتأمل الآية القرآنية المعلقة فوق الحائط حتى يقوم بفحص كل جزء من جسدها بكل دِقة، والأدهى من ذلك أن أفراد أسرته الكريمة يتطوعون بمشاركته في الفحص من حين لأخر. يبدو أن هذا هو سوق النخاسة الحديث والزبائن يريدون الاطمئنان على أن الجارية التي سيشترونها لابنهم بحالة جيدة. والمدهش أن والديها يلاحظان ما يحدث، ولكنهما يتظاهران بعدم الاهتمام لأنهما يريدان إتمام هذه الزيجة بأي شكل .

* * *

شعرت سها بالاشمئزاز وهي تشاهد العريس وأهله يتحدثون عن الشقة الكبيرة التي اشتراها في المعمورة، والسيارة الفورد التي أشتراها مؤخّرًا والشقة التي يمتلكوها في مارينا من أجل التصييف، وعن حبهم للذهاب لمطاعم الأسماك والمأكولات البحرية كل أسبوع .

أمسكت برأسها وأغمضت عينيها وأخذت تفرك جبينها، ثم قامت من مكانها وهي تعلن أنها تشعر بصداع شديد ولذلك ستدخل حجرة نومها لكي ترتاح .

حدق لها والديها بغيظٍ، بينما تجهَّم العريس وأهله. يبدو أنهم فهموا أن الصداع مجرَّد حجة لصرفهم من المنزل وللإيحاء بأنها لا تريد ابنهم.

ولكنها لا تعبأ بمشاعرهم ولا برأيهم فيها. كل ما تريده الآن هو أن ينصرف هذا الرجل ويأخذ معه الأسرة المحترمة ولا يأتي مجدّدا.

حاولت والدتها أن تنقذ الموقف فقالت لها بلهجة آمرة:

-اوعي تقومي. أنا هدخل أجيب لك قرص مسكِّن.

ولكن الحاجة عائشة قامت من الكرسي وهي تقول:

-لا يا مدام سلوى إحنا خلاص كنا ماشيين.

ثم حدقت لسها بنظرة خبيثة وقالت لها:

-احنا أسفين يا حبيبتي لو كنا وجعنا دماغك.

نظرت سها للحاجة عائشة بوجوم، بينما قالت لها والدتها بلهجة معتذرة:

-اوعي تقولي كده يا حاجة عائشة ده انتم نورتوا البيت والله، إحنا مبسوطين جدا إننا اتعرفنا عليكم ولازم نتقابل تاني قريب.

ابتسمت لها الحاجة عائشة ببرود وقالت بصوت منخفض:

-إن شاء الله.

بينما كانت نظرة عينيها المنزعجة تقول "لن ندخل بيتكم مجددا "

وجه صلاح لسها نظرة مستنكرة، كأنه لا يفهم كيف ولماذا ترفض عريسا مثله. ثم أعطى لوالدها كارتًا صغيرًا وقال له:

-الكارت ده فيه نمرة موبايلي ونمرة البيت لو فيه أخبار جديدة كلمني.

لم تفهم سها كيف أنه مازال يريدها ويأمل أن توافق عليه بعد صدها له؟ لو كان يمتلك أي ذرة من الكرامة لما فكر فيها. يبدو أنه من الرجال الذين يعشقون الفتاة التي تتكبر عليهم وتعاملهم بغرور، أو ربما يرى في الأمر تحدي يريد الفوز به بأي شكل .

تنفست سها الصعداء عندما رأت والدتها تغلق باب المنزل بعد مغادرة صلاح وأهله. توجهت ناحية حجرتها بخطوات مسرعة، ولكن والدها أوقفها قبل أن تدخل الحجرة بصياحه:

-استني هنا إيه اللي انتي هببتيه ده؟ أنا ما كنتش فاكرك قليلة الذوق للدرجة دي.

هي أيضا لم تظن نفسها قليلة الذوق ولكن للضرورة أحكام.

أطرقت برأسها في ضيق وغمغمت:

-يا بابا العريس ده دمه تقيل جدا، وشكله وحش غير انه قليل الأدب، حضرتك شفته وهو بيبصلي ويفحصني هو وأهله؟

-ده بيبص لك لأنه بيحبك، وأهله كمان كانوا منبهرين جدا بجمالك. انتي عارفة انه لما جالي المحل قالي بصراحة انه وقع في حبك من أول نظرة. انتي محظوظة إن واحد زي ده اتقدم لك لأن الناس اللي زي دول مستواهم أعلي مننا بكتير. ده بيشتغل في شركة بترول وما أدراكي بمرتبات شركات البترول غير إن أهله محترمين ومرتاحين ماديا. لو اتسرعتي ورفضتيه هتندمي ندم السنين.

وقفت والدتها تستمع لكلام والدها وهي تومىء برأسها، وفجأة وجهت لها نظرة حادة ثم طلبت منها أن تدخل معها حجرة النوم لأنها تريد أن تقول لها كلاما مهمًا.

دخلت سها الحجرة مع والدتها رغما عنها كأنها تلميذة شقية تدخل حجرة المديرة. توقعت أن هذا الكلام المهم لن يكون إلا وصلة طويلة ومؤلمة من التأنيب واللوم والترقيع متبوعة بإعادة ذِكر مميزات صلاح .

بعد أن دخلت الحجرة وجهت لها والدتها ابتسامة حنونة، ثم وضعت يدها على كتفها، وقالت لها أنها تريد أن تقص عليها حكاية مهمة جدا.

تنهدت سها، ثم جلست مع والدتها على فراشها وهي في حالة تحفز لصد الهجمات التي سيتم شنها عليها بعد لحظات .

عادت سلوى تبتسم لها ثم طلبت منها أن تكف عن التجهم وذكّرتها بحقيقة أنها أمها. وهذا يعني أن لا أحد في هذه الحياة يحبها ويريد لها السعادة أكثر منها.

ذكرتها أن ما تقوله لها الغرض منه مصلحتها فقط، فهي لن تكسب شيئًا من وراء زواجها من هذا الرجل، ولن تخسر شيئًا إذا رفضته أو حتى إذا أضربت عن الزواج للأبد. ثم ذكرتها أنها تعلم جيّدًا أين تكمن مصلحتها لأنها أكبر منها وتعلم عن الحياة ما لا تعلمه .

طلبت منها أن تنصت جيّدًا للقِصَّة التي ستروبها لها وتفهم مغزاها.

ذكرتها بسميحة ابنة خالتها العجوز التي توفت العام الماضي بعد إصابتها بأزمة قلبية مفاجئة. قالت لها أن سميحة لم تكن عجوز طول حياتها، بل كانت في يوم من الأيام فتاة صغيرة مثلها. وكانت آية في الجمال والسِحر، وكان أفضل شباب الإسكندرية يتهافتون على التقدم لها، ولكنها رفضتهم جميعًا لأنها أصيبت بمرض الغرور الذي صوَّر لها أنها تستحق من هو أفضل منهم. كانت تتفنن في العثور على عيوب في كل عريس يتقدم لها. هذا سمين وهذا أصلع وهذا ثرثار وهذا بخيل وهذا قصير وهذا ظله ثقيل. لقد وضعت في عقلها مواصفات خاصة لفتى أحلامها. كانت تريده إنسانًا مثاليًا لا يوجد به عيب، لا في شكله ولا في شخصيته. ولم تدرك أن هذا الشخص ليس له وجود في الحياة لأن الكمال لله وحده.

ظلت تنتظر هذا الشخص الخيالي حتى مرَّ بها العمر وتزوجت كل شقيقاتها وقريباتها. وظلت هي الأنسة الوحيدة في العائلة بعد أن ذبلت زهرة شبابها

ولم يعد أحد يطرق بابها، ثم توفى والديها وأصبحت تعيش في الشقة بمفردها، فجنَّ جنونها وأصيبت باكتئابٍ شديدٍ، وظلَّت وحيدة وحزينة بقية عمرها حتى ماتت.

شعرت سها بالخوف وهي تستمع لتلك القِصَّة التي كان مغزاها واضحًا لها وضوح القمر في ليلة حالكة السواد. أرادت أن تطمئن أمها أنها لن تصير مثل سميحة لأنها عثرت على الشخص الذي تريد إكمال حياتها معه. ولكن مشكلته لا يملك شقة على البحر ولا سيارة على أحدث طراز ولا يعمل في شركة بترول. ولكن لأنها لا تستطيع أن تكشف عن تلك الحقيقة اضطرت أن تدافع عن نفسها بطريقة أخرى.

-يعني إيه يا ماما؟ عايزاني أقبل واحد مش طايقاه علشان مابقاش عانس؟

-لا أنا بس مش عايزاكي تتبتري على نعمة ربنا. عريس زي صلاح ده مش بيجي للبنت إلا مرة واحدة بس. هيجيلك عرسان بعده لكن مش هيبقوا في نفس مستواه وساعتها هتندمي انك رفضتيه .

-بس أنا مش طايقاه.

-إيه يعني، فيه بنات كتير بينفروا من عرسانهم أول مرة، ولما بيقعدوا معاهم أكتر من مرة بيتعودوا عليهم ويقبلوهم بالتدريج.

هل تتحدث أمها عن زواج أم دواء لابد أن يتجرعه الإنسان يوميًّا حتى يتعود على مذاقه ثم يستسيغه؟ وهل تريد لها السعادة فعلا أم تريدها أن تعيش نسخة آخرى من حياتها الزوجية البائسة؟

قرَّرت أن تلمح لوالدتها بالحقيقة.

-بصراحة يا ماما أنا عايزة أحب الراجل اللي هتجوزه .

اتسعت عينا سلوى في فزع ثم هتفت في دهشة "إيه؟ " .

بدا على ملامحها الانزعاج كأنها سمعت سها تتفوه بلفظ خادش للحياء.

لقد ربت سلوى ابنتها على نبذ الحُبِّ والعواطف لأنها تعلم جيّدًا ماذا يمكن أن يفعل الحُبّ بعقل الفتاة. أخذت تذكرها بنصائحها القديمة وطلبت منها ألا تفكر في موضوع الحُبِّ، فالزيجات المبنية على الحُبِّ عادة ما تتوج بالفشل لأن القلب متقلب وأعمي وأهوج. وحتى إن أرادت أن تتزوج عن حُبٍّ، فمن الأفضل لها أن تتزوج شخصًا يُحُبُّها بدلاً من أن تتزوج شخصًا تحُبُّه، لأن المرأة بطبيعتها لديها قدرة على الحُبِّ والعطاء أكثر من الرجل، وعندما ترتبط بشخصٍ عادة ما تعطيه أكثر مما يعطيها، ولذلك من الأفضل أن تتزوج شخصًا يحبها أكثر مما تُحِبُّه حتى يتساوى معها في كمية العطاء .

بدا على سلوى الانهزام عندما رأت سها غير مقتنعة بكلامها، فصمتت لثوان ثم قالت لسها بهدوء:

-بصى إيه رأيك لو نقابله بره وهنسيبك تقعدي معاه لوحدكم واحنا هنقعد على الترابيزة اللي جنبكم؟ ، ولو بعدها لقيتي نفسك لسه مش مستريحة له خلاص هنرفضه.

تنهدت سها في ضيق وصاحت:

-معقول يا ماما ليه عايزة تجبريني إني أقبله بالعافية؟

-أنا مش عايزة أجبرك على حاجة. أنا عايزه اديكي فرصة تانية تقعدي معاه يمكن تغيري رأيك. اسمعي الكلام .

قلّدت سها أختها روان في التعبير عن غضبها فدبت بقدميها في الأرض، وأخذت تهتف بكلمة "لا" عدة مرَّات بطريقة هيستيرية .

* * *

- 22 -

جلس كريم أمام طاولة معزولة في أحد المقاهي المواجهة لكورنيش البحر، وثبَّت عينيه على مدخل المقهى في انتظار وصول سها التي اتصلت به بالأمس وطلبت مقابلته لأمرٍ ضروري لم ترغب في الإفصاح عنه .

كلمة "ضروري" أطلقت داخله جرس إنذار وأيقظت كل مخاوفه وهواجسه المدفونة في الجزء المظلم من نفسه. كلمة ضروري لم تعن بالنسبة له إلا شيء واحد، أنها قادمة لكي تعلن عن النهاية، ربما لأن أهلها اكتشفوا علاقته بها، وربما لأنها أدركت فجأة أنها لن تأمن على مستقبلها معه.

حاول أن يمنع التشاؤم من التمكن منه بأن قال لنفسه لا يجب أن أتسرع في توقع الأسوأ. لقد وعدتني لن تتزوج غيري، ويجب أن أصدقها. سأضحك على خوفي بعد قليل وسيتضح أن الأمر الضروري شيء في منتهي التفاهة .

لقد كان من المفترض أن تأتي من ربع ساعة، ولكنها تأخرت، فهل تعمدت أن تفعل ذلك لكي تزيد على عذابي عذابًا؟

قرَّر أن يتصل بها بعد أن تلفت أعصابه من الانتظار. وقبل أن يضغط على رقمها رأها تدخل المقهى. الجدّية الشديدة التي بدت على وجهها ومشيتها وهي تقترب

منه أصابته بالانقباض. ألقت عليه تحيَّة الصباح بطريقة رسمية، فردَّ عليها السلام وهو يطقطق مفاصل أصابعه بعنف. ترجاها أن تدخل مباشرة في الموضوع الذي جاءت من أجله لأنه لن يستطيع احتمال المقدمات.

جالت ببصرها بين الجالسين في المقهى سريعًا، ثم مالت بجسدها ناحيته وقالت له بصوتٍ متوتر:

-جالي عريس إمبارح.

توقف نبضه لثانية وهربَ الدم من وجهه وجفَّ حلقه. أحسَّ أن المستقبل الذي بناه معها ينهار أمامه في ثوانٍ. لقد كانت شكوكه في محلها. من المؤكد أنها وافقت على العريس أو أهلها أجبروها على الموافقة، وهاهي تأتي على طريقة الأفلام الرومانسية والأغاني العاطفية الحزينة لتودعه وتتمنى له حياة سعيدة مع إنسانة تستحقه.

عندما رأت علامات الهلع على وجهه ابتسمت وهتفت:

-اطمن، أنا رفضته.

توقف قلبه عن النبض مجددا ثم عاد يدق بعد أن ردته هذه الجملة للحياة .

ابتسم لها في دهشة وسألها عن سبب حديثها عن العريس الذي تقدم لها طالما أنها لم تقبله؟

أطرقت برأسها في حزنٍ، ثم شرحت له المعاناة التي تعرضت لها منذ أن زارها هذا العريس وأهله من أيام قليلة. الرفض لم يكن أمرًا سهلا كما كانت تظن، بل كان معركة شرسة وغير متكافئة خاضتها ضد كل أفراد أسرتها وأقاربها الذين رأوا رفضها لهذا العريس الثري ضربًا من ضروب الجنون .

ورغم شدة الضغط والتخويف، ظلت ثابتة على موقفها ومتمسكة بكلمة"لا" حتى بعد أن خاصمها أبوها وأمها. وفي النهاية استسلموا لإرادتها بعد أن يئسوا من إمكانية زحزحتها عن موقفها.

إنها رغم الفوز تشعر بالخوف لأنها كسبت جولة واحدة فقط، ولكنها لا تعرف إذا كانت قادرة على كسب الجولات القادمة التي ستكون أشد وأعنف، خصوصًا لو طرق بابها عريسٌ بلا عيوب واضحة، وحينئذ سيبدو رفضها بلا منطق ولا حُجَّة وستخور قواها وتنهار وستضطر أن تقول نعم.

أخذ كريم يحدِّق في كوب الشاي الذي لم يشربه بقلق وهو يفكر في كلام سها.

أدرك أنها لا تزال ترغب في انتظاره، ولكن القوى التي تتحكم في حياتها ومصيرها لن تسمح لها بانتظاره .

إنها تخاف أن تضيع منه ، وهو لا يريد أن تضيع منه . إن حياته كلها أصبحت تدور حولها منذ أن دخلت حياته.

إنه يعيش في انتظار اليوم الذي سيتزوجان فيه ويحققان كل أحلامهما، ولقد اتخذ بالفعل أولى الخطوات لتحقيق هذه الأحلام .

لقد سأل عن طرق الهجرة لأمريكا أو كندا، فوجد شروطها صعبة ومعقدة، ولكنه أعد نفسه للتقديم في الهجرة العشوائية لأمريكا هذا العام بما أنه انتهى من دراسته وحصل على دورات لتقوية نفسه في اللغة الإنجليزية وينوي دخول امتحان(التويفل) قريبًا، ولكن المجهود الذي يبذله لا يبدو كافيا .

هناك خطرٌ يهدد أحلامهما، وهو لا يعرف ماذا يمكن أن يفعل للقضاء عليه؟

رشفت من كوب الماء ثم مسحت فمها وقالت له:

- مفيش حل غير إنك الأسبوع الجاي تروح عند بابا المحل وتطلب منه إيدي.

-بس والدك مش ممكن يوافق عليا.

-ما أنا عارفة، بس أنا هعرف إزاي أقنعه، مالكش دعوة.

هل تملك بالفعل حيلة سرية لإقناعه بالموافقة عليه، أم أنها تدعي ذلك حتى تدفعه للتورط في هذه الزيارة؟ وهل يوجد أبٌ عاقل يمكن أن يقبل أن ترتبط ابنته بشخصٍ بلا وظيفة ولا شقة ولا يملك المال اللازم لشراء خاتم الخطوبة؟

من المؤكد لو نفَّذ اقتراحها لن يناله إلا الإهانة والسخرية من والدها.

حاول أن يثنيها عن تلك الفكرة بأن طلبَ منها أن تنتظر بضع شهور حتى يتقدم في برنامج الهجرة العشوائية، وإذا حصل على الفيزا سيتقدم لها فورًا .

هزَّت رأسها بالنفى، وقالت له بطريقة صارمة وهي تضع حزام حقيبتها فوق كتفيها:

-لا، يا تتقدم الأسبوع ده يا إما مش هتشوفني تاني .

لم ترِد إعطائه مزيدًا من الوقت للمناقشة والاعتراض. انتفضت من الكرسي بسرعة ثم غادرت المقهى بدون أن تنظر له.

لم يظن أنها عنيدة لهذه الدرجة. إنها مصرّة على وضعه بين المطرقة والسندان، إما أن يذهب لوالدها من أجل إثبات جديته في الارتباط بها، أو يرفض حفاظًا على كرامته ويودعها للأبد.

الاختيار بين الأمرين صعب وهو الخاسر في كلتا الحالتين.

* * *

مرَّ يومان على سها وهي جالسة بجوار تليفونها المحمول تتطلع بين الحين والأخر لشاشته الردماية في انتظار أن تضيء برقمها المفضل، ولكنها ظلت تضيء بأرقام آخرى لا تريد الاستماع إلى أصوات أصحابها .

صمته أكَّد لها أن نهلة كانت محقة عندما حذرتها من الاستمرار معه، وأخبرتها أنه سيتشبه بصديقه ويهرب منها لو ذكرت له سيرة الزواج. ولكن شتان بين هيثم الذي اشترى له أهله شقة الزوجية وهو طفل، وبين كريم الذي تنفق عليه أمه وأخته. إنه معذور في خوفه من التعرض للإهانة من أبيها، ولكنه ينسى أنها وضعت نفسها معه في نفس الخندق لأنها ستضطر لبذل مجهود خرافي لو أرادت أن تحصل على موافقته. قرَّرت أن تنفِّذ تهديدها وتقاطعه إن لم يتصل بها لأنها لا تريد الارتباط بشخص ليس لديه القدرة على الدفاع عن حُبّه .

جلست طول الليل تحدق في التليفون وتبكي وتتساءل.. هذه هي النهاية فعلا؟

نامت قليلاً واستيقظت فجأة على رنين التليفون. هبَّت من فراشها عندما رأت رقمه. فشلت في إخفاء لهفتها وهي ترد عليه. حياها بطريقة جافة ثم طلب منها أن تصف له عنوان محل والدها. كانت تعلم أن فتوره في الحديث يخفي وراءه خوفًا من والدها. طمأنته أن والدها لن يهينه لأنه يعامل الغرباء بلطف، وأنه حتى لو رفضه سيرفضه بطريقة مهذبة .

ردَّ عليها بعصبية:

-طب إيه الفايدة إني اتقدم طالما إننا عارفين إنه هيرفض؟

-لوكنت واثق من نفسك وعرفت تشرح له ظروفك يمكن يقتنع ويوافق.

لم يجد كريم فائدة من معارضتها والجدل معها، طالما أنه ينوي تنفيذ طلبها. قبل أن ينهي الاتصال طلب منها أن تدعو أن يسهل الله عليه مهمته. فقالت له بنبرة حنونة:

-ربنا يوفقك.

* * *

- 23 -

خرج كريم من المسجد الذي يقع بالقرب من منزله بعد أن أدى صلاة الجمعة، ثم استقل المكيروباص متوجها للمنشية. فشل في تنسيق الكلام الذي سيقوله لوالد سها في ذهنه بعد أن تراءى في مخيلته شكل هذا الرجل الذي سمع منها الكثير عن صرامته وشدته وعصبيته، فتحول عقله لكمبيوتر مُعطَّل.

إنه مقبل على خطوة انتحارية لا يقدم عليها إلا المجانين، وهو موافق على أن يكون مجنونًا لمرَّة واحدة في مقابل أن ترضى عنه سها. ولكنه لم يستطع أن يعلن عن جنونه أمام كل الناس، ولذلك اكتفى بإخبار والدته بالأمر لعلها تستطيع مساعدته في إيجاد حلّ لهذه المشكلة. فرحت والدته عندما عرفت بعلاقته بسها، وتفهمت السبب وراء رغبتها في التعجيل بالارتباط، ولكنها أخبرته بالحقيقة التي يعرفها مسبقا وهي أن أبيه لا يمكن أن يوافق على الذهاب معه لمنزل هذه الفتاة، لأنه لم يحصل على شهادة تخرجه ولم يعمل بعد. كما أنه لا يمكن أن يعطيه أي نقود لمساعدته على الزواج لأن ينفق كل معاشه على الأدوية. فحتى أخته ريم التي ستتزوج بعد شهور قليلة ستدفع ثمن مفروشات شقتها من مرتبها .

عندما رأت الإحباط يكسو وجهه قالت له:

-روح لأبوها واشرح له ظروفك، واطلب منه إنه يستناك لغاية لما تطلع نتيجتك، وقوله إن فيه ناس هيشغلوني أول ما اتخرج بمرتب كبير .

-طب تفتكري انه هيقتنع وهيخليها تستناني؟

-طبعا، يمكن لما يحس بصدقك وحبك لبنته قلبه يلين ويقتنع.

ظلَّ يذكر نفسه بكلام والدته، وبأنه يفعل ذلك من أجل سها كلما تسللت إليه الرغبة في الانسحاب والرجوع لمنزله .

تذكر أن حاله لا يختلف عن حال أي عاشق. كل العشاق يصارعون الوحوش ويتعرضون لشتى الأهوال والمخاطر، ويحاربون العالم كله من أجل الفوز بمحبوبتهم. إنما والد سها ليس وحشًا. إنه إنسان طبيعي يمكن إقناعه بالمنطق والحجة. صحيح أن طباعه حادة، لكنه لن يهينه ويحط من كرامته لأن طلبه مشروع وغرضه شريف.

قلة الزحام في الشوارع يوم الجمعة أتاحت لسائق المكيروباص الفرصة لأن يسرع فوصل للمنشية خلال نصف ساعة. نزل كريم من المكيروباص ثم أخرج من جيبه الورقة التي كتب فيها عنوان المحل. أخذ ينظر للافتات المحلات التي تكتظ بها شوارع المنشية، وفجأة وقعت عيناه على لافتة"محل العيسوي فدق قلبه كالطبول الإفريقية وشعر برأسه تدور ورأى كل شيء حوله يتحرك بسرعة ويهتز .

أمسك برأسه محاولاً إيقافها عن الحركة، وأسند جسده بجوار سيارة بيضاء كانت مركونة بالقرب منه.

رأى محل عصائر بالقرب منه، فسال لعابه ومشى ناحيته.

طلب كوبًا من عصير القصب، ثم تجرَّع العصير كله على مرَّة واحدة. سرى سكر القصب المثلج في شرايينه، فأعطاه جرعة من الطاقة والشجاعة كان في أمسِّ الحاجة إليها. أخذ نفسًا عميقًا، ثم اقترب من محل العيسوي للأجهزة الكهربائية بخطوات بطيئة وأنفاس متقطعة وهو يحاول كبح مخاوفه .

حدق في الواجهة الزجاجية للمحل، وأخذ يتأمل أجهزة التليفزيون والمكانس وأدوات المطبخ. تسربت لأنفه رائحة بخور أدخلت في نفسه إحساسًا بالسكينة وهدّأت من روعه. قال بسم الله الرحمن الرحيم في سره ثم وضع قدمه اليمين في المحل.

رأى شابًا صغيرًا يقف مع زبون أمام تليفزيون كبير الحجم ويشرح له مزاياه بحماس. لمح رجلاً سمينًا يرتدي قميصًا أبيض وبنطلونًا أسود يجلس بعيدًا على كرسي خشبي صغير أمام تليفزيون صغير ويتابع مباراة كرة قدم باهتمام. أدرك أنه محمود العيسوى. بدت له ملامحه أكثر وادعة مما تخيَّل .

أخذ يسعل عِدّة مرَّات، فالتفت له محمود ثم هبَّ من كرسيه وعدل وضع نظارته السميكة، وتوجه ناحيته بابتسامة مرحِّبة معتذرًا على عدم انتباهه له .

سأله محمود عن طلبه معتقدا أنه زبون، فانعقد لسانه وأخذ يفكر في الإجابة .

أوحى له السؤال أن يتظاهر أنه يريد شراء أي شيء من المحل ثم يترك الرجل ويمشي.

لا، لا يجوز أن يتراجع بعد أن دخل عرين الأسد. لابد أن يكمل مهمته للنهاية. ولكنه لا يعرف ماذا يقول؟ إنه بالكاد يتذكر اسمه .

نظر له محمود بارتياب ثم سأله:

-انت مش بتتكلم ليه هو انت تايه يا بني ولا إيه؟ .

وقعت عيناه على صورة سها مع أخوها وأختها المعلقة على حائط المحل، فاستردَّ ذاكرته المفقودة. ابتلع ريقه وأغمض عينيه ثم قذف بالجملة مرَّة واحدة كأنها قطعة من الطعام محشورة في حلقه:

-لا يا عمي أنا جاي علشان أتقدم لبنت حضرتك .

توقف عن الحديث عندما رأى الرجل ينظر له بذهول، ثم انطلق في الحديث عندما طلبَ منه أن يعرفه عن نفسه. بعد أن أخبره باسمه وأنه خريج كلية التجارة حكى له أنه كان يذهب لكلية الأداب كثيرًا لزيارة أصدقائه وأنه رأى سها هناك عدة مرَّات، وأعجب بها، وقرَّر أن يتقدم لها فأخذ منها عنوان المحل حتى يزوره .

ازدادت ثقته في نفسه عندما رأى الابتسامة تعلو وجه والدها وهو يخبره أن والده عميد متقاعد من الجيش ووالدته تعمل طبيبة أسنان في التأمين الصحي وأخته تعمل في العلاقات العامة في أحد شركات التليفون المحمول وأخوه طالب في كلية الحقوق .

ولكنه عاد للتردُّد والخوف عندما سأله محمود الأسئلة المعتادة التي يسألها كل أب لكل عريس.. بتشتغل؟ عندك شقة؟ طب تقدر تدفع مهر وشبكة؟

نفذ نصيحة أمه، وأخبره أن أحد أصدقاء والده عرض عليه وظيفة بمرتب كبير سيتسلمها بعد أن تظهر نتيجته ويحصل على شهادته .

نظر له محمود باستغراب وقال له:

-طب يا بني ما كنت تأجل الزيارة دي لغاية ما تستلم الوظيفة ويبقى عندك استعداد للجواز .

أراد أن يقول له معك كل الحق يا عمي ولكن ابنتك هي التي أجبرتني على أن أزروك، ولكنه ردَّ عليه بارتباك:

-ما أنا خايف إن سها تتخطب.

ابتسم محمود وهو يقول له:

-يعني انت جاي علشان تحجز سها؟

ابتسم كريم في ارتباك ولم يشأ أن يخبره أنه يعلم بموضوع العريس الذي تقدم لها مؤخرًا. ترك مشاعره تتحدث بالنيابة عنه فهتف بلهفة:

-أنا أصلي معجب بها جدا يا عمي.

نظر له محمود بإشفاق ثم قال له بهدوء:

-بص يا بني انت باين عليك شاب طيب ومؤدب وابن ناس. انت بس الأول خد شهادتك واشتغل وحوش لغاية ما يبقى معاك حق الشقة والمهر والشبكة .

-طب حضرتك ممكن توعدني إن سها ما تتخطبش لحد تاني غيري لغاية ما أبقى مستعد؟

-اه أوعدك.

* * *

خرج كريم من المحل كأنه طالب متفوق خارج لتوه من امتحان سهل .

أدب وتهذيب ولطف الأستاذ محمود فاق كل توقعاته. لقد تجنَّت سها في وصفها لطباع والدها. إنه أبعد ما يكون عن القسوة والغلظة والشدة .

كل أسئلته كانت في محلها وكل ردوده كانت منطقية ومقنعة. كان يمكن أن يرفض طلبه بشكل قاطع وحاد، ولكنه تعاطف معه وأعطاه الأمل في الموافقة عندما يحصل على وظيفة ويملك الإمكانيات للزواج .

المشكلة الوحيدة أنه لا يعرف متى سيمتلك تلك الإمكانيات. لكنه على الأقل فعل ما يتوجَّب عليه فعله وتقدَّم لسها، والآن يأتي دورها في إقناع والدها أنه يستحقها .

* * *

- 24 -

استلقت سها فوق فراشها، ثم وضعت(الوكمان) حول أذنيها وأخذت تستمع لألبوم أعطاه لها كريم لأحد فرق الروك الحديثة .

كانت عيناها مثبتتان على التليفون المحمول، وعقلها مشغول بعمل سيناريو تخيُّلي للطريقة التي ستسير بها المقابلة بين كريم ووالدها. أخذت تنظر لساعة الحائط كل خمس دقائق ثم تتنهد في ضيق وتتساءل عن سبب تأخر كريم في الاتصال بها وتخاف أن يكون أسوأ ما توقعته تحقق.

وأخيرًا رنَّ جرس تليفونها فأمسكته وفتحته بسرعة .

أخذت تلهث وهي تسأله"إيه الأخبار طمني؟"

انفرجت أساريرها عندما سمعته يضحك وهو يحدثها ويقول لها "الأخبار كويسة اطمنى" .

شعرت بسعادة ممزوجة بالدهشة وعدم التصديق وفي هذه اللحظة ازداد مقدار حبها لوالدها أضعافًا مضافعة. هنأته على نجاحه في المهمة ووعدته أنها ستبذل أقصى ما في وسعها حتى تقنع والدها به. أنهت معه المكالمة عندما سمعت والدتها تناديها. خرجت من الحجرة وهي تكاد تقفز من الفرحة .

إن الأحلام التي رسمتها مع كريم ليست مجرَّد أوهام ولا تخيُّلات مراهقين. إنها أهداف واقعية على وشك أن تتحقق قريبًا، فقط لو بذلتْ بعض المجهود وتمسكت بها جيّدًا وآمنت أنها قادرة على الوصول لها .

احتضنت والدتها وقبّلتها على وجنتيها بشكلٍ لا إرادي وهي تضحك .

ابتسمت والدتها وسألتها:

-إيه ده كله، إيه اللي مخليكي مبسوطة أوي كده؟ فرحيني.

فتحت سها فمها وكادت تفصح لوالدتها عن سِرِّ سعادتها، ثم تذكرت أن الوقت لم يحن بعد لكشف السِرِّ فسكتت وفكّرت للحظات، ثم قالت لها وهي تحاول أن تهدّئ من حماسها.

-أصل واحدة صاحبتي اتصلت بيا وقالت لي إنها هتتخطب الشهر الجاي.

-مين صاحبتك دي، نهلة؟

-لا واحدة تانية ماتعرفيهاش.

-ياه وللدرجة انتي فرحانة علشان صاحبتك؟

-طبعا أصل صاحبتي بتحب خطيبها أوي، وكانت مستنية بفارغ الصبر اليوم اللي يتخطبوا فيه، فعلشان كده أنا فرحانة لها .

ضحكت أمها بسخرية وقالت لها:

-مش لو كنتي قبلتي صلاح كان زمانك اتخطبتي زيها، وبقت الفرحة فرحتين.

تبخرت الابتسامة من على وجه سها وحل محلها الامتعاض. كيف كانت الفرحة ستصبح فرحتين إذا كانت هي لا تريد هذا العريس؟ أم أن أمها تتكلم عن فرحتها الشخصية لو كانت نجحت في إقناعها بالموافقة عليه؟

ولماذا تستغل والدتها أي فرصة حتى تذكرها أنها ارتكبت جريمة عظمى لأنها رفضته، كأنها تريد أن تعذبها معنويًا لأنها قالت لا لأول مرَّة في حياتها .

تأففت وهي تترجى أمها أن تتوقف عن الحديث عن صلاح لأنها لم ولن تندم يومًا على رفضها له، ثم تركت المطبخ وعادت لحجرتها وهي تشعر بالندم لأنها تسرعت في

إعلان فرحتها، فالفرحة كائن هشّ، ولذلك كان يجب عليها أن تخبئها حتى لا تُسرق منها .

* * *

تهللت سها عندما رأت والدها يدخل الشقة ويلقي التحيَّة على والدتها.

كانت متلهفة للجلوس معه على مائدة الغداء لأنها كانت تعلم أنه سيسرد تفاصيل زيارة كريم له، وهنا سيأتي دورها للحديث عنه والمدح في أخلاقه وإقناعه بأنه أنسب شخص لها، وكل ذلك بدون أن تُظهر له علاقتها به .

تعمدت أن تجلس أمام والدتها مباشرة لكي تتمكَّن من مراقبة نظراته ولفتاته.

ملأت طبقه بالملوخية والأرز وقِطع اللحم كنوع من الامتنان له على معاملته الطيبة لكريم. لاحظت أنه يرمقها بابتسامة كانت ستبدو لها غريبة لو لم تعلم سِرها.

ظلت تراقبه حتى توقف عن التهام الطعام ثم التفت ناحيتها وسألها:

-انتي تعرفي ولد في الكلية اسمه كريم؟

رتّبَت كل كلمة في ذهنها جيّدًا، ثم أخبرته بلهجة جادة خالية من أي عواطف أنه كان يمشي وراءها وهي في طريقها لركوب الترام وحاول أن يكلمها، لكنها رفضت بشدة وعندما يأس من الحديث معها طلب أن يتقدم لها، فأعطته عنوان المحل. تظاهرت بالدهشة وهي تسأله:

-هو زار حضرتك في المحل؟

ردَّ عليها بالإيجاب ثم أنفجر في الضحك. كان يتكلم ثم يتوقف كل عدة ثوان ليقهقه ثم يعود لاستكمال كلامه كأنه يحكي قِصَّة فيلم لاسماعيل ياسين.

-الولد ده تحفة فعلا، تصوروا جاي يتقدم وهو مفيش حيلته أي حاجة حتى ما تخرجش من الكلية وبيقولي ممكن يا عمي تخلي سها تستناني لغاية ما أكون

نفسي، صِعِب عليا لأني لقيته غلبان ومش عارف يتكلم، فقلت له كوِّن نفسك بسرعة وتعالى وأنا أجوزها لك .

نظرت له سلوى باستغراب وسألته:

-وأنت فعلا هتجوزها له لو كون نفسه لوجه يتقدم لها تاني؟

-ما هو مش هيقدر يكون نفسه إلا لو قعد يشتغل أربعين سنة وساعتها هيكون كوم نفسه .

ضجت حجرة السفرة بضحكات أبيها وأمها وتامر. حتى روان الصغيرة شاركتهم الضحك رغم أنها لم تفهم على ماذا تضحك.

أخذت سها تتطلع لضحكات أسرتها في صمتٍ ووجوم، فأنتابها نفس الشعور القديم أنها لا تنتمي لتلك العائلة بأي صلة، وأنها ضيفة قادمة عليهم من مكان بعيد.

كانت كل ضحكة ترن في أذنيها تجرح قلبها وتزيل منه طعم الفرحة. لم تحتمل أن ترى من تُحِبُّه يتحول إلى مادة للسخرية والتهكُّم بين أفراد أسرتها .

حاولت أن تدافع عنه بدون أن تكشف عن مشاعرها فهتفت:

-والله يا بابا أنا شايفة أن له مستقبل. ده وهو ماشي ورايا قعد يقولي أنه هيقدم على هجرة السنة دي لأمريكا، وإنه يعرف ناس هيساعدوه لما يروح هناك.

-كان غيره أشطر، كل الناس عايزه تهاجر أمريكا ومفيش حد بيعرف يروح هناك،

هو صحيح ولد مؤدب بس ساذج وبكرة الحياة تعلمه إن اللي معهوش ما يلزموش .

الحقيقة أنها هي من تستحق أن يقال عليها ساذجة لأنها لم تفهم أن شخصًا مثل والدها من المحال أن يقبل بشخص مثل كريم زوجًا لها. إن والدها تاجر والتاجر لا يفهم إلا لغة البيع والشراء، ولا يفهم كيف يمكن أن يأتي شخصٌ لشراء بضاعة

وهو لا يملك ثمنها؟ وهو يراها بضاعة ثمينة في سوق العرائس مثل المجوهرات والأحجار الكريمة لا يمكن أن يقتنيها سوى الأثرياء .

لقد كان والدها يدعي دائمًا أنه يريد تزويجها من شخص ذو أصل طيب وعلى خلق ولكنه في الحقيقة يريدها أن تتزوج من صاحب المال الذي يضمن لها حياة مريحة لأن الأخلاق لا تساوي شيئًا. هذه هي حقائق الحياة التي يخشى الكبار إعلانها لأولادهم لأنها تتناقض مع المبادىء والأخلاقيات التي يتشدقون بها ليلاً ونهارًا أمامهم رغم أنها لا يؤمنون بها حقًّا.

ادّعت سها أنها تشعر بالإرهاق وتريد النوم حتى تترك مائدة السفرة. هرعت لحجرتها واستقلت على فراشها، وفجأة استولت عليها رغبة شديدة في البكاء. غطت وجهها بيديها وأخذت ترتعش، ثم بدأت تئن كالقطة الجريحة.

انسابت قطرات الدموع من عينيها فبللت قميص نومها الوردي، وأحالت عينيها الخضراوتين للون الرمادي. وقعت عيناها على الجيتار الأسود الصغير المعلَّق في سلسلة المفاتيح الخاصة بها، الذي أهداه لها كريم في عيد ميلادها.

لمسته برفق ونظرت له بحزنٍ، ثم احتارت بين الضحك والبكاء عندما تذكّرت الشجار الذي نشبَ بينهما وبين كريم عدة مرَّات بسبب اختلافهما على أسماء أولادهم .

كان كريم يريد لو أنجبا فتاة أن يسميها ريم على اسم أخته، أما هي فكانت تريد أن تسميها سماء .

بعد شجارٍ طويل اتفقت معه أن يتركها تسمي البنت سماء، مقابل أن تدعه يسمي الولد شريف. لماذا انشغلا في الشجار حول أسماء الأولاد بدلا من أن يتساءلا كيف سينفقان عليهم، وكيف سينفقان على أنفسهما وأين سيعيشان بعد الزواج؟

فحتى لو عثر كريم على وظيفة غدًا، فلن يستطيع أن يشتري شقة الزوجية لأن سعر أصغر شقة في الإسكندرية لا يقل عن(150 ألف جنية) وسعر شقق الإيجار لا يقل عن ألف جنية .

لماذا لم يدركا أن زواجهما محال؟

لأن المُحبين لو فكروا بطريقة واقعية في احتمال استمرار حُبّهم لانتهت كل قصص الحُبِّ قبل أن تبدأ. ولكن هل هذا يعني أن قِصّتها مع كريم لابد أن تنتهي؟ من المؤكد أنه سيتصل بها قريبًا ليعرف إذا نجحت في إقناع والدها به، فماذا ستقول له؟

لا يمكن أن تصدمه كما صدمها والدها. لا يمكن أن تقول له لقد تلاعب والدي بك وجعل منك أضحوكة، وتعامل معك كأنك طفل آبله. إنها لا تريد أن تكون سببًا في إحداث انكسار نفسي جديد داخله. يجب أن تتعامل مع حُبها له كما يتعامل الطبيب مع المريض الميئوس من شفائه، فيبتسم له ويوهمه أن العلاج أجدى نفعًا، وأنه في حالة صحيَّة ممتازة وعلى وشك التعافي، ثم يدعه يكتشف الحقيقة وحده، عندما يجد صحته تضعف بالتدريج ويشعر باقترابه من الموت .

ولكنها لا تريد لحُبها له أن يموت. تريده أن يعيش لأنه يستحق الحياة، ولكنها تعلم أن استمراره يتطلب معجزة إلهية، لذلك لم يعد أمامها شيء سوى الدعاء. الدعاء أن يحصل كريم على وظيفة مرموقة بمرتبٍ كبير، أو أن يربح في القرعة العشوائية للهجرة، أو تنزل على أهله ثروة من السماء، والأهم من كل ذلك ألا يتقدم لها عريسًا مناسبًا في الفترة القادمة .

* * *

- 25 -

بعد أن حصلَ كريم على شهادة تخرجه، قرَّر أن يؤجل احترافه للموسيقى وأن يحصل على وظيفة بمرتب محترم حتى يستطيع أن يجهز نفسه لكي يتقدم لسها .

كان يعتقد أن عملية البحث عن وظيفة ستكون عملية سهلة وبسيطة. كان يذهب للمقابلات متحمّسًا بشوشًا، ويظن بعد كل مقابلة أنه سيحصل على الوظيفة ثم يفاجيء أنه لم يتم قبوله فيشعر بالإحباط ثم يحاول استعادة تفاؤله ويقدم في وظيفة جديدة .

و لكن مع مرور الوقت أصبح التفاؤل أمرًا عسيرًا عليه، بعد أن ألقت عليه الحياة مفاجأت متتابعة غيَّرت عالمه بشكل عنيف .

أولى هذه المفاجأت كانت حصول زوج أخته ريم على عقد عمل في الكويت وسفرها معه. وبعد شهر واحد فقط، اتصل به بالأستاذ علاء ليودعه ويخبره أنه سيقوم بنقل مقر مركز الموسيقى من الإسكندرية للقاهرة بعد زواجه من فتاة قاهرية.

وبعد أسبوعين سافر صديقه هيثم للسعودية بعد أن حصل على عقد عمل عن طريق عمه.

وفي النهاية سقطت عليه المفاجأة الأكبر عندما أخبره هاني وسامر وأيمن أنهم ينوون التوقف عن العزف وإقامة الحفلات في المقاهي بسبب انشغالهم في وظائفهم التي تلتهم كل وقتهم، وشعورهم أن موسيقى الروك ليس لها مستقبل في مِصر بسبب قلة عدد محبيها .

وجدَ كريم نفسه فجأة وحيدًا بلا أحد يحكي له أسراره ويطلب منه النصيحة أو يقضى معه الوقت ويخفف عنه همومه. كما صار بلا مكان يخرج فيه موهبته ويشعر فيه أنه نجم .

شعر أن هناك مؤامرة كونية خفيّة دُبرت من أجل إفساد حياته وإتعاسه وتحويل حياته لجحيم، وأحسَّ أن الأرض تدور بسرعة مخيفة وكل الناس حوله حياتهم تتغير وظروفهم تتبدل للأفضل، بينما يلعب هو دور المتفرج فيشاهدهم ويعجز عن الحركة مثلهم لأسباب خارجة عن إرادته.

لقد حصل زملاؤه على وظائف في شركات وبنوك ومكاتب محاسبة، بينما ظلَّ هو يتصل بالشركات ويقدم أوراقه ويذهب للمقابلات، ورغم أنه كان يجيب بطريقة صحيحة على كل الأسئلة لم يتم قبوله.

كان السبب المعلن لرفضه هو أنه مازال خريّجًا جديدًا، ولا يمتلك الخبرة التي تؤهله للعمل. تساءل عن سِرِّ حصول زملائه على وظائف رغم أنهم يشاركونه في انعدام الخبرة. هل هي الواسطة أم الحظ؟ أم أنه يبحث في الأماكن الخاطئة؟

بخلَ عليه الجميع بالنصيحة والإرشاد، فظلَّ يدور في نفس الدائرة المفرغة، حتى مرَّ على تخرجه خمسة أشهر وهو بلا وظيفة .

داهمه القلق أن يتقدم عريسٌ لسها قبل أن ينجح في الحصول على عمل .

حُبه لها وخوفه عليها من قسوة الحقيقة، دفعه للامتناع عن مصارحتها بحقيقة ظروفه.

أصبح كلما يقابلها يرسم على وجهه ابتسامة بلاستيكية عريضة كابتسامات الموديلز في الإعلانات.

تسأله باهتمام:

-إيه أخبار الوظيفة اللي قدمت فيها؟

يرد عليها وهو متمسك بالابتسامة البلاستيكية والحماس الزائف:

-مردوش عليا بس عملت مقابلة في شركة تانية من يومين، وقالولي إنهم هيبعتولي قريب وأنا متفائل خير إن شاء الله .

تتبادل معه الابتسامات وتتظاهر بتصديقه، بينما تحاول كتم خوفها من أن يطول أمد بحثه عن عمل. يسألها عن أخبار البيت، فتسرع بطمأنته أن كل شيء على ما يرام وتخفي عنه الشجارات التي تندلع بينها وبين والديها بعد أن ترفض عريسًا جديدًا .

و بمجرَّد أن تنتهي تلك الأسئلة المعتادة يتظاهران بالانشغال في تناول المشروبات، وبعد أن يطول الصمت يملأن الوقت بالكلام الفارغ "قرأت الخبر الفلاني، اتفرجت على البرنامج الفلاني، سمعت الأغنية الفلانية".

تظل الردود مقتضبة والجلسة غير مريحة، ويظل الحديث متوترًا غريبًا، وتظل العيون حزينة رغم الابتسامات العريضة والضحكات الرنانة، ويستولي عليهما شعور مزعج أن هناك شيئًا مخيفًا يختبىء داخل لحظات الصمت المفاجىء التي تفصل بين الكلام المنمق. استمرَّت هذه الجلسات شهورعديدة حتى لم تعد سها تسأل كريم عن نتيجة تقدمه لأخر وظيفة لأنها كانت تستطيع معرفة الإجابة بالنظر لعينيه المتحجرتين الحزينتين.

و بعد مرور سبعة شهور من البحث المضني والمقابلات المتكررة، زحف اليأس على قلب كريم واحتله، كما تسلل إليه شعورٌ بالخزي والعار نتج عن التعليقات المؤلمة والجارحة التي كان يتلقاها من والده .

كان كلما يراه يخرج من حجرته في الصباح أو يجلس أمام التليفزيون في الظهيرة أو يطلب المصروف من والدته يمطّ شفيته في امتعاض ويقول له:

-هو انت ناوي تتجوز وتقعد في البيت؟ طب ما تساعد أمك في شغل البيت بدل ما أنت قاعد كده ولا شغلة ولا مشغلة.

كانت والدته تتخلى عن خوفها من والده حتى تدافع عنه وتؤكد له أن عدم عثوره على عمل ليس ذنبه، لأن البطالة مشكلة يعاني منها كثير من الشباب وهو يفعل ما عليه ويبحث عن وظيفة بشكل مستمر .

ولكن والده يصر على رأيه ويعترض:

-ده بيكذب عليكي وتلاقيه مش بيقدم في أي وظيفة. أصل أنا عارفه يحب الكسل وهو أكيد مبسوط بأنه قاعد كده وبيتصرف عليه. والدليل على كده إن كل زمايله اشتغلوا وهو الوحيد اللي لسه قاعد تفتكري إيه السبب. وبعدين لو عايز يشتغل فعلا المفروض يدور على أي وظيفة إن شاء الله يشتغل عامل نظافة أو يشيل طوب ورمل. أنا لما طلعت معاش من الجيش دورت على شغل كتير، ولما مالقتش قبلت إني اشتغل في الأمن رغم اني كنت كاره الشغلانة دي.

كانت تلك الكلمات تخترق قلب كريم كأنها خناجر صدئة، فتقتل داخله ما تبقى من ثقة أو إيمان بنفسه، وتزيده اقتناعًا أنه فاشل وكسول وغبي، وإلا لماذا لم يجد عملاً حتى الآن؟

كان يجلس في حجرته يلوم نفسه ليلاً ونهارًا على كل شيء خاطئ فعله في حياته، وكل شيء صحيح لم يفعله، حتى يشعر بالإنهاك من فرط تعذيبه لذاته .

كان يخرج هائمًا في الشوارع بدون هدف، حتى يغلبه التعب وتؤلمه قدميه، ويعود ليلاً ليرتمي على الفراش ويغوص في نوم طويل تتخلله كوابيس وصور مزعجة،

ثم يستيقظ في الصباح بصعوبة وكل خلية في جسده تؤلمه كأنه تلقى علقة ساخنة .

كان كل يوم يمرُّ عليه بدون عمل يسحبه تدريجيًّا من شاطئ التفاؤل، ويجرّه بدون أن يشعر إلى دوامة الاكتئاب، حتى اكتشف فجأة أن المياه اقتربت من أنفه، وأنه لو أراد أن ينجو من الدوامة لابد أن يستغيث طلبًا للنجدة، أو أن يبحث عن مركب تنقذه وتعود به للشاطىء.

ظلَّ يبحث عن هذه المركب لمدة طويلة، وعندما لم يجدها قرَّر أن يبحث عن عوامة أو قطعة من الخشب أوأي جسم قادر على الطفو على سطح الماء.

وفي النهاية وجدَ قشَّة يتعلق بها عندما قرأ في أحد الجرائد إعلان عن سوبر ماركت كبير يطلب عمال نظافة. نسى بكالوريوس التجارة الذي حصل عليه بتقدير جيد، ونسى الوقت والجهد والأموال التي أنفقها في دورات اللغة الانجليزية والكمبيوتر والمحاسبة .

تذكّر نظرات والده التي تزدريه وكلماته التي تقتله كل يوم ألاف المرَّات .

تذكَّر انحناءه ونظرته للأرض وهو يمدّ يده لكي يأخذ المصروف من أمه .

تذكَّر الإحراج والضيق الذي ينتابه كلما سألته سها إذا كان عثر على وظيفة،

ورغبته في أن تبتلعه الأرض وهو يكذب عليها للمرَّة المائة، ويؤكد لها أنها ستُفرج قريبًا .

تذكر دوامة الاكتئاب التي سيسقط فيها حتمًا إذا لم يتقدم لتلك الوظيفة، فارتدي ملابسه على عجل، وأخذ معه أوراقه وذهب فورًا للسوبر ماركت .

تعرض المسئول عن شئون العاملين لصدمة عندما قرأ سيرته الذاتية، وقال له:

-الوظيفة دي مش مناسبة لك إحنا عايزين ناس معاهم إعدادية أو مؤهل متوسط. تنهد كريم وقال للرجل بنفاذ صبر:

-ما أنا دورت على وظائف كتير تناسب مؤهلي وملقتش لأني لسه خريج جديد ومعنديش خبرة. أرجوك أنا محتاج الوظيفة دي بأي شكل علشان أعتمد على نفسي وأساعد أهلي في المصاريف.

انشرخ صوته وهو يتحدث، ولكنه تمكن من منع نفسه من البكاء.

أحسَّ أنه شحاذ يستجدي الفتات قبل أن يموت جوعًا. كيف انحدر حاله لهذه الدرجة وتبخرت كل أحلامه، فبعد أن كان يظن أنه سيصير عازف جيتارعالمي، أصبحت أقصى طموحاته أن يمسك بالممسحة وينظف سوبر ماركت .

ما الخطأ الذي ارتكبه لكي ينزلق إلى هذا الحال البائس؟

نظر له الموظف بإشفاق وهزَّ رأسه في حزن ثم قال له:

-لا مش معقول إني أرضي أعنيك عامل نظافة بص احنا عايزين موظف أمن.

قاطعه كريم قبل أن يكمل جملته خوفا من أن يغير رأيه "ماشي أنا موافق أخد الوظيفة دي"

ابتسم له الرجل وقال مشجّعًا:

-أنا عاجبني فيك إنك مش بتتعالي على أي شغل. وعلشان كدة أول ما تفضى عندنا وظيفة كاشير هيعنيك فيها.

شكره كريم على طيبته وتعاطفه، ودعا الله أن يكرمه ويبارك له .

قبل أن يخرج من السوبر ماركت، سمع صوتًا مألوفًا لأذنيه يهتف باسمه، نظرَ حوله بحثًا عن مصدر الصوت، فوجد ماجد ابن الجيران يقف في مواجهته ومعه سلة مليئة بالمشتريات. حيَّاه بابتسامة هادئة ثم سأله:

-انت جاي تشتري حاجات للبيت؟

شحب وجهه، ونظر في الأرض، ثم قال له وهو يتظاهر بتأمُّل علب الجبن المرصوصة فوق الأرفف:

-أيوه أنا جاي علشان أشتري جبنة بيضاء.

لم ينس ماجد أن يوجّه له السؤال المعتاد الذي وجهه له كل معارفه منذ أن تخرج:

-وأخبارك إيه؟ اتعينت ولا لسه بتدورعلى شغل؟

-لا اتعينت الحمد لله.

تهلل وجه ماجد وقال له بحماس:

-والله ألف مبروك. طب فرحني اتعينت فين؟

-أنا اتعينت في شركة كبيرة اسمها يونياتيد.

-والله، دي شركة كويسة جدًا وسمعت إن مرتباتهم كبيرة كمان. ابسط يا عم مين قدك بس الحمد لله إنك صبرت ونلت في الأخر ألف مبروك يا كيمو .

ارتسمت على وجه كريم ابتسامة مريرة وهو يقول لماجد"الله يبارك فيك"

* * *

خرجَ كريم من السوبر ماركت وهو يشعر بالخجل من نفسه لأنه كذب على ماجد. المفروض أن يفرح بوظيفته التي ستعطيه لأول مرَّة في حياته دخلاً خاصًا به.. صحيح أن المرتب(300 جنية) فقط ولكنه أفضل من لا شيء، وصحيح أن هذه الوظيفة ليست الوظيفة التي يحصل عليها خريجون كلية التجارة، ولكنها أفضل من جلوسه في المنزل بلا عمل .

سارع بإخبار والده بقبوله في الوظيفة معتقدا أنه سيرضى عنه بعد أن نفذ نصيحته، ولكنه رأه يطلق ضحكات مكتومة ويسأله

-هي شغلانة الأمن مكتوبة على العيلة كلها ولا إيه؟

نظر كريم له باستغراب وذكره بكلامه عن أن العمل مهما كان متواضعا ليس عيبا.

هز رأسه والده في ضيق ورد عليه بعصبية

-أيوو أنا قلت الكلام ده بس الوظيفة دي مستاهلش إنك تبقى مبسوط لأنك أخدتها، ومرتبها مش كبير(300 جنيه) يعملوا إيه في الزمن ده، غير إن ملهاش مستقبل بس طبعا هي أحسن من مفيش .

بخل عليه بكلمة مبروك، واكتفى بأن وجه له ابتسامة فاترة . أما والدته فاستولت عليها الصدمة عندما عرفت بما فعله:

-ليه كده ما كنت تدور وتستنى لغاية لما تلاقي وظيفة مناسبة لك؟

-دورت كتير واستنيت كتير، وخلاص معادش ينفع أفضل قاعد في البيت .

ربتت على كتفه بحنان ووجهت له نظرة مواسية كأنها تعزيه في أحلامه المكسورة .

أراد أن يخبر سها بحصوله على وظيفة حتى تعرف أنه لم يعد عاطلاً، ولكنه تردد بين إخبارها بحقيقة الوظيفة وبين إخفائها.

شعرَ بالخوف عندما تخيل رد فعلها عندما تعرف أن وظيفته هي حراسة سوبر ماركت. من المؤكد أنها ستغضب منه بعد أن تكتشف أن وعوده لها بقرب حصوله على وظيفة مرموقة كانت محض أكاذيب. ومن المحتمل أن تخاف على مستقبلها معه وتتراجع عن الارتباط به، بل وتلوم نفسها لأنها رفضت العريس الجاهز الذي تقدم لها وانتظرته .

اتصل بها في نفس اليوم، وطلب مقابلتها في المقهى الذي اعتادا على الاجتماع فيه، وبشّرها أن هناك خبرًا سارًا في انتظارها. وفي طريقه للمقهى قام بعمل بروفة في ذهنه على الكلام الذي سيقوله لها.. (باركي لي يا سها أنا هستلم وظيفة في شركة استيراد وتصدير كبيرة اسمها يوناتيد)

لقد اعتاد طول حياته أن يقول الصدق، لأنه يعلم أن الصدق منجاة والكذب ليس له قدمين. ولكن صدقه لن ينجيه تلك المرَّة من احتقار سها له ولن ينفعه إذا رحلت عنه، وطالما أنه تورط في انتهاج طريق الكذب لابد أن يمشي فيه حتى نهايته .

وصل للمقهى فوجدها تجلس أمام نفس الطاولة البعيدة التي تقع في آخر المقهى بجانب حوض الأسماك. قالت له بتوسل وهي تصافحه:

-أرجوك قولي إنك أخيرًا لقيت وظيفة.

هزَّ رأسه بالإيجاب:

-أنا فعلا لقيت وظيفة.

رسمت على شفتيها ابتسامة واسعة، وكادت تقفز من فوق كرسيها وتعانقه، ولكنها اكتفت بأن أمسكت بيديه وهزتهما كالأرجوحة وهي تهتف:

-ألف مبروك، أخيرًا. مش دي برضه الوظيفة بتاعة البنك اللي كنت قولت لي عليها؟

بنك؟أي بنك؟ إنه لا يتذكر أنه تقدم للعمل في بنك. هل كثرت أكاذيبه لدرجة أنه لم يعد يتذكرها؟

فشلَ في رسم ابتسامته البلاستيكية بعد أن شعرَ بالتقزز من نفسه.

حاول أن يتكلم، ولكن أحباله الصوتية تعطلت. حاول أن يفكر، ولكنه وجد عقله يمتلىء بضجة مجهولة المصدر.

ظلَّ يحدِّق في زجاجة المياه المعدنية المواجهة له، وحاول أن يشحذ ذهنه حتى يتمكن من قول كلمة واحدة يروي بها عطش سها، ولكن الكلمات كانت تخرج منه مبتورة. هزَّت سها رأسها في دهشة، ثم بدا على ملامحها الشك والارتياب وهي تسأله:

-انت فيه حاجة مخبيها عني وخايف إنك تقولها؟

فلتت منه كلمة "أيوه" بدون أن يشعر.

وبعد أن أدرك أن لسانه خانه، أحسَّ بسخونة في رأسه وبصعوبة في التنفس. وضع يديه على رقبته وحنجرته في محاولة لإزاحة الشيء الخفي الذي يمنعه من التنفس بشكل طبيعي. حدجته سها بنظرة خائفة وحثته على الكلام .

طالما أنه لمح بالحقيقة، فهذا يعني أنه مضطر للكشف عنها بدون مواربة.

لم يعد بإمكانه أن يستمر في التمثيلية لأنه ليس كاذبًا محترفًا، ولا يملك موهبة التمثيل. حكى لها عن معاناته في إيجاد وظيفة منذ أن تخرج وعن شعوره بالوحدة بعد أن ابتعد عنه كل أحبائه، وعن اليأس الذي دفعه للتقديم في وظيفة عامل نظافة.

كانت كل كلمة تخرج من فمه تزيح معها حجرًا كبيرًا جاثمًا على أنفاسه. تصور أن سها ستشعل ضده ثورة عارمة من الغضب، ولكنه وجدها تنصت له في هدوء واهتمام وفي عينيها نظرة جادة .

بعد أن فرغ من الاعترافات عادت له قدرته على التنفس بشكلٍ طبيعي، ولكنه ظلَّ قلِقا من ردِّ فعلها. حاول أن يستبق اتهاماتها بتكرار الاعتذار، والتأكيد أنه كذب خوفًا عليها من قسوة الحقيقة .

فوجئ بها تبتسم له وتقول:

-أنا مش زعلانة منك، انت ملكش ذنب في اللي بيحصلك. واللي انت عملته ده كويس لما تاخد وظيفة مش مناسبة لمؤهلك أحسن لما تقعد في البيت. وبعدين أنا مش أحسن منك كتير، أنا كمان كذبت عليك .

لم تجد سها توقيتًا أفضل لترفع كل الستائر الثقيلة التي تغطي الحقيقة. أدركت أن الانتصار على الحقيقة مستحيل لأنها تطل برأسها في أي لحظة وبضربة واحدة تفك كل خيوط الأكاذيب مهما كانت مغزولة ببراعة.

بعد أن انتهت سها من الاعتراف بحقيقة موقف والدها من كريم، رأت ألمًا عارمًا يغطي وجهه. إنه الألم الذي يشعر به الإنسان بعد أن يكتشف أنه تم الإيقاع به في أحد مقالب برنامج الكاميرا الخفية، ولكن المشكلة أنه لم يسامح من خدعه بعد، ولم يسمح له بالتصوير. عندما استرجع كريم تفاصيل حواره مع والد سها أحسَّ أنه أغبى إنسان في الوجود، وتساءل كيف لم يفهم من ضحكه المستمر أثناء الحوار أنه ليست جادًا في الموافقة عليه. وكيف تصوَّر فعلاً أنه سيكون قادرًا على تدبير تكاليف الزواج بمجرَّد أن يحصل على وظيفة. هل أعماه الحُبُّ لهذه الدرجة عن رؤية الواقع؟ لا يجب أن ينزعج من استهزاء والد سها به، ولا يجب أن يلوم إلا نفسه، فلا أحد يحترم المغفلين والسُذَّج. ولا يجب أن يلوم سها على إخفائها الحقيقة عنه، لأنه ارتكب نفس خطأها .

لقد عاشا خلال الفترة الماضية وسط مجموعة من الأكاذيب التي كبرت وانتفخت ثم انفجرت اليوم بشكلٍ غير متوقع، وتسرب منها الهواء المزيَّف الذي يملأها .

"طب هنعمل إيه؟" ظلت سها تسأل نفسها هذا السؤال عدة مرات، وعندما لم تجد ردًّا مقنعًا في ذهنها ألقته على كريم .

تنهد ورفع كتفيه، وهزَّ رأسه يمينًا ويسارًا في حيرة، ثم ردَّ بصوت يقطر يأسا:

-مش عارف.

-هنعرف نستمر إزاي مع بعض؟

-مش عارف؟

-طب هنسيب بعض؟

-مش عارف.

-إنت مفيش عندك رد إلا مش عارف؟

-أيوه لأني مش عارف حاجة، مش عارف أفكر ومش عارف أقول إيه. لو انتي عندك حل قوليه.

-أنا كمان مش عارفة ألاقي حلول.

-خلاص متلوميش عليا.

كانت مشكلة سها وكريم أنهما يكرهان المواجهة ويعشقان الهروب. وعندما وجدا نفسهما مجبرين على الوقوف أمام الحقيقة وجهًا لوجهٍ لم يستطعيا احتمالها. وعندما حاولا التفكير في إجابة وجدا أن الإجابات المتوفرة كلها خاطئة .

البديل الوحيد أمامها في هذه اللحظة هو التوقف عن البحث عن إجابة سريعة، وإعطاء العقل فرصة لتأمل الموقف من كل ناحية واستيعابه من أجل التوصل لحل مبتكر .

* * *

- 26 -

في اليوم التالي عادت سها من الكلية مبكّرًا في الساعة الواحدة والنصف ظهرًا بعد أن أُلغيَت آخر محاضرة لها. قبل أن تفتح الباب سمعت أبيها يتحدث بصوتٍ عال مع أمها. إنه عادة لا يأتي قبل الساعة الثالثة، فما الذي ما جاء به للمنزل في هذه الساعة المبكرة؟

دخلت الشقة، وأطلت برأسها على حجرة المعيشة، فانقبض قلبها عندما رأت أبيها وأمها وأخيها يرمقونها بنظراتٍ عدوانية متحفزة. شعرت أنها غزال يقف أمام ثلاثة ثعالب على وشك الانقضاض عليه .

انكمشت في مكانها والتصقت رأسها بكتفها، واختلجت شفتيها كأنها مصابة بالبرد. لمعت شرارة الغضب في عينيّ والدها وهو يرحِّب بها بنبرة متهكمة:

-أهلًا وسهلا يا هانم شرفتي البيت.

قبل أن تهرب لحجرتها أمرها بعدم التحرك وسألها:

-انتي كنتي فين؟

ردَّت تلقائيًا:

-كنت في الكلية طبعا.

اقترب منها وصاح فيها:

-وأنا إيش عرفني إنك مش بتكذبي ورحتي في حتة تانية .

أمسك بذارعها وهزها بعنفٍ:

-انتي بتستغفلينا وماشية مع الولد اللي جالي المحل من كام شهر.

حاولت أن تنقذ ذارعيها من قبضته وهي تقول مستنكرة:

-حرام عليك يا بابا أنا مش بمشي مع حد.

ضغط على أسنانه في غيظ وهو يقول:

-أومال يعني صلاح كداب ده شافك إمبارح وإنتي قاعد معاه وكنتم ماسكين إيد بعض وبتضحكوا.

ازداد غضب محمود تأججا عندما تخيل منظرها وهي تجلس مع كريم في المقهى، فضربها على رأسها بقبضة يده .

صرخت من الألم وهي تتساءل عن سبب دخول صلاح لحياتها مجددا؟

ما لم تعرفه أن صلاح لم يخرج من حياتها أصلا. لقد استخسر محمود أن تذهب أموال صلاح وأسرته لفتاة آخرى غير ابنته. رأى أن سها فتاة صغيرة مغفلة لا تعرف مصلحتها، فقرَّر أن يحميها من تهورها بأن اشترك مع أمها في إيهامها أن العريس تمَّ رفضه، بينما أخبره أنها تريد أن تؤجل الارتباط به لوقت قصير حتى تنتهي من استكمال دراستها، وبعد ذلك يمكنه أن يزروهم مجددا للاتفاق على التفاصيل وتحديد موعد للخطوبة.

كان محمود يعلم أن صلاح سيوافق على الانتظار لأنه يحب سها ويريدها بشدة. رأى أن هذه الخطوة مريحة لكل الأطراف. فهو بذلك يبقى الرجل معلّقًا ويعطي فرصة لسها لعلَّ أمها تنجح في تليين الحجر القابع داخل عقلها ويبقى بابها مفتوحًا لعلَّ عريس أفضل منه يتقدم لها .

الصدفة دفعت صلاح للذهاب إلى المقهى الذي جمع سها وكريم بالأمس لمقابلة أحد أصدقائه. لمحها وهي تضحك مع كريم وتهنئه على الوظيفة، فغلى الدم في عروقه وأحسَّ أنه تعرَّض لخديعة من والدها .

ذهبَ له في المحل في اليوم التالي غاضبًا ليواجهه بما رآه، وسأله إذا كان الشاب الذي كان جالسا معها هو خطبها. أصيب محمود بصدمة شديدة ثم سأله "الشاب اللي انت بتقول عليه ده شكله إيه؟

بمجرَّد أن وصفَ صلاح له شكله، قفزت لذهنه صورة كريم. ربط بين حديث كريم عن حُبّه الشديد لها، وبين دفاعها عنه وإصرارها على رفض صلاح، وشرودها الزائد في الفترة الأخيرة، فاتضحت له الصورة الكاملة.

ضرب رأسه بقبضة يده وتملكه الغيظ. كيف عمى بصره لهذه الدرجة؟ حاول إخفاء شعوره بالخزي بأن أصر أمام صلاح أن هناك سوء تفاهم فيما رآه، لأنه ربَّى سها تربية جيدة، ويعرف كل تحركاتها ويعلم أنها لا يمكن أن تجرؤ على الارتباط بعلاقة مع شاب.

سأله صلاح إذا كان ضحك عليه كل هذه الفترة عندما وعده بالارتباط بسها، فأقسم له محمود بأغلظ الأيمان أنه صادق في وعده، وأنه مستعد للوفاء به في أي وقت. انتهز صلاح الفرصة وقال له:

-لو كنت صادق فعلا يبقى نقرب معياد الخطوبة.

ردَّ عليه محمود بلا تردد:

-لو عايز تخطبها الأسبوع الجاي أنا موافق.

اتفق مع صلاح أن يأتي مع أهله غدا من أجل الاتفاق على التفاصيل وقراءة الفاتحة، وهكذا أصبحت سها مخطوبة لصلاح بدون علمها .

لم يهتم محمود بأخذ رأى سها، لأنه رأى أنها لا تستحق أن تقرِّر مصيرها بعد أن ارتكبت تلك الخطيئة الكبرى، ولكنه أدرك أنه ارتكب خطأً يفوق خطأها لأنه حسَّن معاملته لها، وخفف من الحصار الذي كان يفرضه على تحركاتها .

لقد استغلت أنه ترك لها الباب مواربًا، وتسللت منه حتى تلهو وتعبث كيفما تشاء .

لم يستطع محمود البقاء لحظة واحدة في المحل بعد أن ما عرفه عن سها.

عاد للمنزل وهو يشعر أن هناك بركانًا يغلي داخله، وعندما وجدَ سلوى في المنزل صبَّ عليها جام غضبه واتهمها أنها اشتركت مع سها في جريمتها، وأنها لم تضغط عليها لكي توافق على صلاح بسبب علمها بعلاقتها بكريم .

أقسمت له سلوى وهي تعبِّر عن صدمتها أنها لا تعرف أي شيء عن هذه العلاقة فاحتد عليها قائلاً:

-لو ماتعرفيش إيه يبقى ذنبك أكبر إزاي متعرفيش بنتك بتروح فين وبتكلم مين امال شغلتك إيه في البيت؟

عندما رأى سها تقف أمامه أحسَّ أن مخه يوشك على الانفجار.

شعرَ أن لا شيء يمكن أن يشفي غليله منها ويهدئ من غضبه عليها سوى أن يسحق عظامها بيديه. ظلَّ ممسكا ذراعها بعنفٍ بقبضة يده اليسرى، بينما أخذ يضربها فوق رأسها وعلى وجهها عِدّة مرَّات، فأخذت تصرخ وتتوسل له أن يتركها.

وقف تامر يشاهدها وهي تتأوه باستمتاع كأنه يشاهد مباراة مصارعة حُرة، بينما أشفقت أمها عليها من قبضة والدها، توسلت له أن يتركها فردَّ عليها صائحًا:

-أوعي تدافعي عنها دي كذابة، أنا مش هسيبها إلا لما تعترف بكل حاجة. انطقي وقولي الحقيقة بتعرفيه بقالك قد إيه؟

كان من الصعب على سها أن تدافع عن نفسها وهي تتلقى ضربات متتابعة على رأسها ووجهها. صراخها لم يردع والدها، وإنما صبَّ على غضبه مزيدًا من الوقود، فسدَّد قبضته نحو فمها لإسكاتها، ولكن قبضته أصابت أنفها بعد أن حرَّكَت رأسها لأعلى .

منظر الدم وهو يسيل من أنفها، ويتسرَّب فوق فمها وشفتيها أفزع والديها. ابتعد عنها والدها بينما صرخت والدتها وهرعت نحوها لكي تفحص أنفها .

دقَّ جرس الباب عدة مرات كأنه سارينة إسعاف .

استغلت سها ذهاب والدها لفتح الباب فهرعت لحجرتها وأغلقت عليها الباب بالمفتاح.

سمعت جدتها وعمها جمال يقولان "هو فيه إيه احنا سمعنا صوت صريخ طالع من عندكم؟"

رأت بقع الدم تغطي فمها ورقبتها وياقة قميصها. أخذت منديل من السرَّاحة وسدت به أنفها. استلقت على السرير بعد أن شعرت بدوارٍ وبرودة في أطرافها، ثم دخلت في نوبة بكاء هستيري، وتمنَّت أن يكون ما حدث لها مجرَّد كابوس ستستيقظ منه لتجد كل شيء كما كان قبل أن تدخل البيت .

أحسَّت أن الباب يتحرك، فرفعت رأسها من على السرير وتملكها الخوف مجددا. سمعت أمها تهتف بلهفة:

-افتحي يا سها ارجوكي أنا عايزة اطمن عليكي.

-اطمني، أنا كويسة النزيف قل.

-طيب افتحي، أنا عايزة اتكلم معاكي.

-لا أنا مش عايزة اتكلم مع حد أرجوكي سيبني في حالي .

سمعت بعد دقائق صوت عمها جمال يهتف باسمها ويترجاها لكي تفتح له الباب وتعطيه الفرصة لكي يتكلم معها..

-أنا عارف إنك متربية كويس ومش ممكن تعملي حاجة غلط. أنا بس عايز أعرف منك الحقيقة بهدوء وأوصلها لبابا، أرجوكي افتحي .

كان عمها جمال هو الشخص المفضل لسها في عائلة والدها. كانت تعتبره أخيها الكبير لأنه يكبرها بست سنوات فقط، كما أنه الوحيد في العائلة الذي يفهمها

ويحترمها، وهو الوحيد الذي يقف في صفها ويدافع عنها في المشاجرات التي تقع بينها وبين والدها وجدتها .

نزعت المفتاح من الكالون، ثم فتحت الباب ببطء شديد. اتسعت عينا جمال من الهلع عندما رأى الدم المتناثرعلى وجهها وملابسها. بدا على وجهه الألم ثم ربت على رأسها بلطف. بعد أن دخل الحجرة، وضعت المفتاح في الباب وأغلقته جيّدًا، فطمأنها أن والدها لن يدخل عليها لأنه نجح في تهدئته .

جلس على سرير روان، وظل صامتًا لعدة دقائق في انتظار أن تمسح سها دموعها وتنظف أنفها ووجهها. وجه لها نظرة عطوفة ثم سألها:

-أنا عايزك تحكي لي إيه اللي حصل بالضبط إمبارح؟

كانت تدرك أنها لابد أن تقول له أي شيء إلا الحقيقة. لم يكن لديها الطاقة ولا الوقت لاختراع قِصّة طويلة، فقرَّرت أن تقول أول تبرير يمرُّ على ذهنها .

شرحت له أنها ذهبت للمقهى بالأمس مع إحدى صديقاتها، وتصادف وجود كريم هناك، وعندما رآها ذهب لكي يسلم عليها وجلس معها ومع صديقتها لوقت قصير، ثم رحل ولم تراه بعد ذلك. وأكدت له أن علاقتها به لا تتعدى السلام والكلام في الكلية أحيانًا، ولكنها لم تخرج معه أبدًا .

رأت في عينيه علامات الشك، فأجهشت بالبكاء وهي تقول:

-أنا كنت عارفة إنك مش هتصدقني برضه، كلكم شاكين فيا مش عارفة ليه مع إني عمري ما عملت حاجة غلط .

بدا على جمال الشعور بالذنب لأنه شكَّ فيها، فأومأ برأسه وقال لها أنه مقتنع بكلامها، ثم وعدها أن يدافع عنها أمام والدها ويحثه على مسامحتها .

بعد أن تركها وخرج أخذت تراجع ما قالته. لم تشعر بأي ذنب على إنكارها للحقيقة لأنها كانت تعلم أن الاعتراف بالحقيقة يساوي الموت، ومع ذلك داهمها

الشك في قدرة عمها على إقناع والدها ببراءتها مما نُسب إليها، لأنها كانت تعلم أن والدها سيصر على تصديق عريس الغفلة وتكذيبها .

انتفضت عندما سمعت والدها وعمها يتنافسان في الصياح. وضعت أذنيها بجوار باب الحجرة في محاولة لاستخراج كلمات مفيدة بين ضجيج الأصوات.

دقَّ قلبها بعنفٍ ونفرت عروقها عندما سمعت عمها يصيح:

-حرام عليك اللي بتعمله فيها ده.

ردَّ والدها عليه بعنف:

-بلاش تدخَّل انت يا جمال دي بنتي وانت مش ممكن تعرف مصلحتها أكتر مني.

سمعت جدتها تقول:

-سيبه يا جمال هو حر في بنته.

ازداد قلبها انقباضًا عندما سمعت عمها يقول بنفاذ صبر:

-انت فعلا حُر، بس أنا بحذرك إنك بطريقتك دي هتضيعها منك.

سمعت صوت ارتطام الباب، فأدركت أن عمها وجدتها قد غادرا المنزل.

ظلت جالسة في حجرتها في حالة ترقُّب كأنها متهم ينتظر إصدار الحُكم عليه.

سمعت والدها يطرق على الباب ويأمرها بأن تفتح قائلاً بنبرة جادة هادئة:

-أنا مش هضربك. أنا عايز أقول لك كلام مهم.

* * *

- 27 -

جلست سها أمام المرآة، بينما وقفت أمها وراءها وأخذت تمرّر مكوى الشعر فوق خصلات شعرها بعناية. فحصت نفسها في المرآة فرأت فتاة لا تشبهها.

سألت نفسها: لماذا ارتديتُ هذا الفستان الأسود الفاخر، وغطَّيت وجهي بكل هذه الأصباغ والألوان، وتركت أمي تصفف لي شعري؟ نعم لقد تذكرت.

اليوم هو موعد قراءة فاتحتي. أليس من المفترض أن يكون هذا اليوم أسعد يوم في حياتي؟

إذن، لماذا أشعر كأني على وشك الذهاب إلى مأتم؟ ربما لأني فعلا على وشك الذهاب للعزاء في قِصة حُبّي، في أحلامي، في حريتي وفي حياتي.

لماذا هادنتُ ووافقت واستسلمت لقرارات أبي؟ لماذا لم أحارب وأقاوم وأصارع؟ لأن الرفض لم يعد موجودًا في قائمة الاختيارات!

لم يعد أمامي سوى اختيارين فقط، السجن مدى الحياة في المنزل أو الحرية المشروطة. ممنوع عليَّ بعد اليوم الخروج إلا مع خطيبي أو أخي أو أمي .

لقد أُنتزِعت منّي مساحة الحُرية المحدودة التي كنت أتمتع بها للأبد، وأصبحتُ أَمَةً ذليلةً .

لقد ظللتُ لمدة طويلة أختبئ من عيون الناس خوفًا من مجيء هذا اليوم، وعندما أعطيت الأمان للحياة وتوقفت عن أخذ احتياطاتي انكشف أمري. أبي لم يصدقني لأن لم أَخبُك قِصّتي جيّدًا. إنه يرى نفسه متسامحًا لأنه سيتركني أخرج من المنزل مجددًا.

رأى والدي أنَّ خروجي مع كريم دليل على انحرافي الأخلاقي، وأن علاج هذا الانحراف لا يكون إلا بالزواج، والحمد لله أن العريس المناسب مازال في انتظاري وكما تقول أمي "إنتي محظوظة إن واحد زي صلاح لسه عايزك بعد لما شافك قاعدة مع واحد تاني". إذا كان هذا هو الحظ السعيد، فأنا لا أريد أن أكون محظوظة .

بعد أن انتهت سلوى من تصفيف شعر سها ووضع مساحيق التجميل على وجهها، تطلعت لها بانبهار كأنها تشاهد أمامها تمثالاً جميلاً قامت بنحته وتزيينه.. أحسَّت أن هذا التمثال البديع ينقصه شيءٌ واحدٌ حتى يبدو كاملاً.. الابتسامة .

من الجيِّد أنها قادرة على تحريك التمثال كما تشاء. وضعت أصابعها فوق شفتي سها وقامت بشدها وقالت لها ابتسمي. بعد أن ظهرت الابتسامة فوق شفتيها، شعرت الأم بالارتياح. الآن يمكن الكشف عن التمثال أمام الجمهور .

أمسكت سها بيد أمها، وأخذت تمشي بخطوات بطيئة بجوارها كأنها إنسان آلي.. دخلت حجرة الصالون، فرأت والدها وأخيها يجلسان مع العريس وأهله .

رحَّبَ صلاح بها وعلى وجهه نفس الابتسامة السمجة، فسلمت عليه وعلى أهله ببرودٍ، ثم جلست بجوار أمها .

كان والدها يتناقش بحدة مع والد صلاح في أهم موضوع يدور بين أي عائلتين على وشك المصاهرة ألا وهو الشبكة. رأى والدها أن ثمن الشبكة يجب ألا يقل عن ثلاثين ألف جنية، لأن سها يجب ألا تكون أقل من باقي البنات في عائلتها اللواتي حصلن على شبكة تساوي ثلاثين وأربعين ألف جنيه .

تدخلت الحاجة عائشة في الحوار معترضة:

-المبلغ ده كبير أوي البنات عندنا في العيلة كلهم شبكتهم ما زادتش عن عشرين ألف جنيه.

ولكن صلاح انزعج من تدخلها فقاطعها قائلاً:

-خلاص يا ماما مش مشكلة. يا أستاذ محمود إحنا عندنا استعداد ندفع تمن الشبكة اللي انتم تختاروها. أنا المهم عندي إن العروسة تبقى مبسوطة.

وجَّه بصره ناحية سها، ففوجئ بها توجه له ابتسامة لطيفة. تملكه فرحٌ عارمٌ، لأن هذه هي أول مرَّة يرى نور ابتسامتها التي حتمًا تدل على رضاها عنه.

ما لم يعرفه أن ابتسامتها الجميلة لم تكن موجهة له.

لقد ظنت للحظات أن كريم هو العريس. رأت أسرته يجلسون أمامها في حجرة الصالون. رأت أخته ريم التي باركت علاقتهما من البداية تجلس بجواره، بينما تجلس والدته مع والدتها وتجري معها حديثًا لطيفًا .

حتى والده القاسي، رقَّ قلبه ووافق أن يأتي معه للتقدم لفتاة أحلامه، وهاهو يجلس أمام والدها لكي يتفاوض معه على ثمن الشبكة، وأخوه عمرو يجلس بجوار تامر وهاهما يتحدثان ويضحكان. بينما يختلس كريم النظر لها ويغدقها بالابتسامات، فيتضرج وجهها وتنظر في الأرض وتغمرها السعادة، لأن اليوم الذي انتظرت قدومه تحوَّل لحقيقة .

ظلَّت تبتسم، ثم تحوّلَت ابتسامتها لضحكات متقطعة لطيفة، حتى سمعت صلاح يقول لها "ما شاء الله ضحكتك جميلة"

رنين صوته الأجش اخترق أذنيها، فأزال عنها تأثير مخدِّر الأحلام الذي استولى على ذهنها. استفاقت وأخذت تحدِّق جيّدًا في كل الوجوه التي تجلس معها، فشعرت بضيق في صدرها وألم في معدتها وانتابتها رغبة في البكاء. لاحظت والدتها أن الحاجة عائشة تنظر لها، بينما كانت الدموع تترقرق في عينيها. لكزتها بنظرة قاسية. فهمت أن عليها التحكُّم في زمام مشاعرها. أمسكت بالمنديل لتمسح دمعة هربت من عينيها، ثم اجتهدت لكي ترسم على وجهها ابتسامة العروس السعيدة.

رأت علامات الرضا تبدو على والدها بعد أن أتفق مع صلاح وأهله على كل التفاصيل، وقرروا أن يكون موعد الخطوبة الشهر القادم. أما الزفاف فسيكون في الصيف بعد انتهائها من الامتحانات .

أعلن والدها بسعادة أنه الآوان قد أن لقراءة الفاتحة .

أخذت سها تحدِّق في والديها وفي صلاح وأهله، بينما أغمضوا عيونهم وبسطوا كفوفهم، وأخذوا يهمسون بالفاتحة بأصوات خاشعة. وبعد انتهائهم من قراءتها وضعت أمها يديها على فمها، ثم أطلقت زغرودة عالية، فردت عليها الحاجة عائشة بزغرودة أعلى .

بدت هذه الزغاريد لسها صراخًا مزعجًا مؤلمًا، فأغمضت عينيها وسدت أذنيها حتى توقفاعن مباراة إطلاق الزغاريد .

هاجمتها هذه المرَّة نوبة من الصداع الحقيقي وهي تسمع التهاني والدعوات بالرفاء والبنين والذرية الصالحة تنطلق في أرجاء الحجرة. كانت تعلم أن مغادرة المكان ممنوعة عليها حتى تنتهي الجلسة وينصرف الضيوف. تجرعت شربات الورد فخفف السكر من حِدة الصداع.

قبل أن ينصرف صلاح طلب منه والدها أن يأتي كل يوم لكي يوصل سها للكلية قبل أن يذهب لعمله، متعللا بأنه يخاف عليها من ركوب المواصلات العامة.

وافق صلاح على المهمة بحماس، وأعطاها رقم تليفونه المحمول، وأخبرها أنه سيتصل بها عند وصوله أمام باب البيت غدًا حتى تنزل.

بعد مغادرة صلاح وأهله للمنزل، هرعت سها لحجرتها وهي تمسك رأسها بيديها وتتأوه. دخلت أمها ورائها وأخذت ترمقها بنظرات لائمة متعجبة، ثم قالت لها:

-أنا مش فاهمة إنتي ليه مضايقة أوي كده، دي واحدة غيرك ترقص من الفرحة، إنتي عارفة إن مفيش بنت في العايلة أخدت المهر والشبكة اللي انتي هتخديها. أبوكي كدب على العريس، علشان هو عارف إنه يقدر يدفع .

شعرت سها بإشفاق غريب على صلاح. من الواضح أن تلهفه على الارتباط بها أعماه عن التفاوض والفصال للحصول عليها بسعرٍ مناسب .

أخذت سلوى تتحدث بحماس عن أشكال الخواتم والمحابس والسلاسل التي رأتها في محلات المجوهرات مؤخرا. ثم سألت سها عن شكل الشبكة التي تريدها.

ردَّت عليها بلامبالاة:

-مش مهم، أي حاجة.

-يعني إيه مش مهم ده أهم حاجة هي الشبكة.

-أنا مليش في المجوهرات لأني مش بحبها.

ضربت سلوى كفًا بكف ونظرت لسها باندهاش كأنها مجنونة.

-في واحدة في الدنيا مش بتحب المجوهرات، أنا مش عارفة إنتي طالعة فقرية لمين؟

-مش قولتلك قبل كدة إني مش من العيلة دي. هو إنتم متأكدين إنكم مالقتونيش على باب جامع!

* * *

قضَت طول الليل تتقلب في الفراش وتحدق في السقف، بينما اختلطت داخل عقلها اللحظات الجميلة التي قضتها مع كريم باللحظات المؤلمة التي قضتها اليوم وأمس. أخذت تفكر في أي طريق يمكن أن تسلكه حتى تهرب من المصير الذي ينتظرها بعد شهور قليلة، لكنها اكتشفت أن كل الشوارع والحارات سدٌّ، وأن ليس أمامها بديلاً سوى الاستسلام ورفع الراية البيضاء.

نامت رغمًا عنها قبل الفجر بوقت قليل، ثم سمعت أمها تناديها معلنة أن الساعة الآن السابعة والنصف صباحًا. تظاهرت أنها لم تسمعها وتركت عينيها مغمضتين، لأنها لم تقو على مغادرة الفراش .

فتحت أمها باب حجرة النوم ودخلت عليها ثم قامت بفتح الشيش. تسلط شعاع الشمس بقوة على وجهها فاضطرت أن تفتح عينيها رغما عنها. أمرتها أمها للمرَّة الثانية أن تقوم من الفراش.

دفنت رأسها في المخدة وقالت بصوتٍ واهن:

-أنا جسمي واجعني ومش هقدر أروح الكلية النهاردة.

-إنتي عمرك ما غبتي عن الكلية أبدا، حتى لما بتبقى عيانة برضه بتروحي إشمعني النهاردة؟ أيوه أنا عرفت ليه؟ علشان عريسك هيوصلك بالعربية صح؟ انتي لسه عايزة تطفشيه .

-لا والله أنا مش عايزة أطفشه، أنا فعلا تعبانة قوي انتي مش شايفة منظري .

كان شحوب وجهها وانتفاخ عينيها واضحًا ورغم ذلك قالت لها أمها:

-إيه يعني لما تبقى تعبانة شوية، برضه متغبيش عن الكلية النهاردة، على الأقل علشان خاطر عريسك اللي هييجي ياخدك بعد ساعة، يلا قومي.

رفعت عنها الغطاء وأخذت تشد ذارعها حتى تقوم، فحركت جسدها ببطء وصعوبة. أخذت تترنح وهي في طريقها للحمام. لم يكن لديها شهية للأكل، فجلست تحدق للخبز وكوب الشاي بعيينين زائغتين لدقائق ثم قامت لتغيِّر ملابسها. صففت شعرها على عجل بدون أن تنظر في المرآة، ثم ربطته بمشبك صغير ولم تضع أي مساحيق تجميل على وجهها. خرجت من حجرة نومها وهي تبدو كمريضة خرجت لتوها من حجرة العمليات .

نظرت لها أمها بفزع وهتفت:

-مالك عاملة ليه كده؟ ما تسرحي شعرك عدل وتحطي شوية مكياج، مش ممكن تقابلي عريسك بالمنظر ده.

-أنا مليش نفس أعمل أي حاجة. أنا أصلا هنزل من هنا بالعافية، لو مش عجبك منظري ممكن أغير هدومي وأقعد في البيت .

-أه إنتي بتعملي كده علشان أسيبك تقعدي في البيت، لا أنا مش هنولك مرادك وهتنزلي ورجلك فوق رقبتك، وشكلك ده أنا هصلحه بنفسي .

جرت سلوى على حجرة النوم وأخذت تصفف لسها شعرها وتضع لها البودرة وأحمر الشفاه حتى رأت أن منظرها بات مقبولاً. ظلت سها جالسة في الصالة حتى اتصل بها صلاح فدفعتها أمها للنزول فورًا .

خرجت من مدخل العمارة لتجد سيارة صلاح(الفورد) الرمادية الضخمة تحتل نصف الشارع في انتظارها. رأت المارة وأصحاب المحلات المجاورة للعمارة يحدقون في السيارة وعندما رأوها على وشك أن تركبها وجهوا لها نظرات حاسدة، وسألوها بأعينهم يا لكِ من فتاة محظوظة! كيف استطعتي اصطياد صاحب هذه السيارة؟

من الواضح أن كل الناس يرونها محظوظة وهي المغفلة الوحيدة التي ترى نفسها سيئة الحظ .

مدَّ صلاح يده لكي يفتح لها الباب، وبمجرَّد أن دخلت السيارة استقبلتها رائحة العطر الرجالي النفاذ الذي يضعه .

أخذ يتأملها وعلى وجهه علامات الابتهاج الممزوج بالدهشة كأنها نجمة سينمائية نزلت من عليائها وشرفته بالركوب بجواره. نظراته أخجلتها وداعبت غرورها فمنت عليه بابتسامة رقيقة. لقد اعتادت طول عمرها أن تركب سيارات(الفيات، والنصر) المتهالكة التي يمتلكها والدها وأقاربها. لذلك كان غريبًا عليها أن تشعر بكل هذا الارتياح وهي جالسة على مقعد السيارة. لأول مرَّة تجلس في سيارة لا تهتز مائة مرَّة، ولا تقذف بها للأمام كلما تعبر فوق مطب صغير .

لقد فهمت الآن لماذا دفعها والديها من أجل الزواج بصلاح، ولماذا يحسدها الناس على ركوبها سيارته الفورد؟

لم تكد تستمتع بهذا الارتياح حتى رأت صلاح يشغل مسجل السيارة .

انطلقت منه أغنية لفريق(الروك الأمريكي لينكيك بارك). سرت في بدنها رجفة بمجرَّد أن سمعت الأغنية وعادت بذاكرتها سنة للوراء، عندما عزف كريم هذه الأغنية مع فريقه في إحدى حفلاته .

أخذت تفتش بضيق بين أزرار المسجل عن زر الإغلاق.

نظر لها صلاح باستغراب وسألها:

-انتي عارفة الأغنية دي ولا إيه؟

-أيوه عارفاها ومش بحبها.

-طب خلاص على راحتك تحبي أشغلك أغاني عربي. أنا عندي شريط عمرو دياب الجديد تحبي تسمعيه .

-لا مش عايزه أسمع حاجة، أنا عندي صداع .

-سلامتك أنا شفتك برضه إمبارح ماسكة دماغك، تحبي أشتري قرص مسكِّن من الصيدلية. أنا أعرف نوع بيضيع الصداع على طول .

صوته زاد من توتر أعصابها فصاحت فيه:

-أرجوك كفاية كلام أنا مش عايزه حاجة منك، أنا عايزه أقعد في هدوء.

صياحها أحرجه، فلاذ بالصمت وسدد بصره للطريق وبدا عليه التجهم .

سرعان ما وخزها ضميرها، وأدركت أن انفعالها عليه كان زائدًا وبلا داع .

اعتذرت له على عصبيتها، وطلبت منه أن يعذرها لأن الصداع قلبَ مزاجها. فوجئت به يبتسم لها ويقول بصوتٍ حنون:

-أنا مش زعلان منك، أنا عارف الصداع قد إيه بيكون غلس. على فكرة أنا عارف كويس إنك لسه كشة منّي ومش مرتاحه ليا، بس أنا متأكد إننا لما نقضي وقت أطول مع بعض هتغيري رأيك فيا وهتعرفي إني استاهلك. أنا كل هدفي في الحياة إنك تكوني سعيدة.

اتسعت عيناها في دهشة وهي تستمع له، ثم وجهت له ابتسامة عطوفة. أدركت أنه ليس شيطانًا أرسله لها القدر ليفسد حياتها ويقيّد حريتها ويهدم قِصَّة حُبها. إنه رجل رأى فتاة أعجبته ورغب في الزواج منها، فتقدم لها ووافق أهلها عليه وتصور أنها وافقت عليه بمحض إرادتها. ولكن هناك مشكلة صغيرة تقف في طريق تلك الزيجة وهي أن هذه الفتاة لا تبادله الحُب.

إنه ليس رجل عادي، إنه جنّي المصباح السحري الذي تحلم به كل فتاة ولا تعثرعليه إلا المحظوظات، ولقد استحوذت على قلب هذا الجِنّي وهو الآن يقول لها "شبيكي لبيكي عبدك وملك يديكي، اطلبي واحلمي وسوف أحقق لكي كل أحلامك".

الجِنّي في مقدوره أن يعطيها كل شيء.. شقة كبيرة، سيارة فاخرة، وفوق كل ذلك المجوهرات التي يقال عنها أنها أعز صديقة لكل فتاة. جزءٌ منها يشتهي كل ما يملكه هذا الجِنّي، ولكنها إن أرادت أن تأخذه يجب أن تبقى معه للأبد وهذه هي المعضلة .

إنها لا تستطيع أن تتصور نفسها زوجة له، ولكن هذا يمكن أن ينجح التعود في تحويل النفور إلى قبول؟

وقفت سيارة صلاح أمام باب الجامعة، فشكرته سها على توصليها ثم ودعته .

دخلت الجامعة وقبل أن تقترب من باب الكلية. سمعت الصوت الذي تعرفه جيّدًا يناديها. واصلت المشي بدون أن تردّ عليه، ولكنه كرَّر نداءه عِدة مرَّات.

نظرت حولها في حذر وخوف. لقد سمعت والدها يطلب من تامر أن يذهب لكلية الأداب لكي يراقبها بدون أن تشعر حتى يتأكد أنها لا تقف معه. إنه يدرس في كلية الحقوق وهذا يعني أنها يمكن أن تجده أمامها في أي وقت .

ومع ذلك توقفت لأن قلبها لم يطاوعها أن تتجاهله .

لقد اتصل بها بالأمس عِدة مرَّات، ولكنها لم ترد، ليس خوفًا من مراقبة أهلها للمكالمة، ولكن لأنها كانت تعلم أن الاستماع لصوته سيزيد من أحزانها.

وقف يتأملها باستغراب، وسألها بصوتٍ خائف:

-مالك يا سها فيه إيه حصلك. انتي ليه مردتيش عليا امبارح؟

طأطأت رأسها في الأرض وهي تكلمه لأنها كانت تعلم أنها لو نظرت إليه ستضعف وتبكي وتنهار. ثبتت نظرها على الأرض حتى تظل متماسكة وقالت له بصوت يائس:

-فاتحتي اتقرت إمبارح .

إنها تعلم كيف سيكون وقع تلك الجملة عليه ولكنها لم تجد طريقة أخف لقولها .

ظلَّ يسألها بذهول "إزاي، مش ممكن، مستحيل"

لو كان لديها وقت لحكت وباحت له بكل شيء حتى يتفهم موقفها ويعرف أنها لم تخلف وعدها له، ولكنها لم تكن تملك سوى دقائق معدودة، لذلك قرَّرت الاختصار وأخبرته بكل شيء في جمل صغيرة مفيدة .

أكدت له أن ما حدث كله كان رغمًا عنها، وأنها لو رفضت لما استطاعت أن تخرج من البيت. قالت له كان يجب علينا أن نتوقع مجيء هذا اليوم ونعد له العدة، ولكننا فوجئنا به وقد جاء رغمًا عنّا وهدم كل أحلامنا .

لقد كنا سُذَّج عندما تصورنا أن الحُب الصادق والأحلام المجنونة يمكنها أن تخرجنا من واقعنا الضيق وتحقق لنا السعادة التي نصبو إليها، ولكن الحقيقة هي

أن أحلامنا كانت سرابًا نسجته العواطف الجياشة والمشاعر الملتهبة، والنهاية كانت لابد أن تأتي في يوم ما، ولكنها جاءت أسرع مما توقعنا. يجب أن نستسلم للأمر الواقع ولا نضيع مزيدًا من سنوات العُمر في انتظار تحقق المستحيل.

هزَّ كريم رأسه في حيرة وقال:

-أوهام إيه وأمر واقع إيه؟ أنا مش فاهم، يعني انتي عايزة تقولي إنك خلاص قبلتي العريس ده وعايزانا نسيب بعض؟

أرادها أن تهز رأسها بالنفي، ولكنها أومأت برأسها ثم أشاحت بوجهها بعيدًا عنه.

* * *

- 28 -

أخذ كريم يراقب سها وهي تبتعد عنه بالتدريج وتصعد على سلالم الكلية حتى دخلت المبنى واختفت بين الطلبة. أحسَّ أن الفتاة التي تحدثت معه ليست سها .

سها التي يعرفها يشع الأمل من صوتها وتشع الشمس من وجهها ويشع النشاط في حركتها. هذا ليس أسلوب سها في الكلام .

سها التي يعرفها لا تعبأ بالواقع ولا تتنفس إلا بالأحلام. من المؤكد أن روح فتاة يائسة تسللت لجسدها واحتلته، أو ربما أهلها قاموا بعمل غسيل دماغ لها حتى حولوها إلى هذه المومياء .

سها التي يعرفها لا يمكن أن تخلف وعدها، ولا يمكن أن يطاوعها قلبها على أن تودعه مهما كانت الظروف. لقد اتفقت معه على أن تتمسك بالانتظار حتى يفرجها الله عليه.

لا يمكن أن يكون أهلها أقنعوها بتغيير رأيها بهذه السرعة، لا يمكن أن تكون هذه هي نهاية القِصة. لا يمكن أن تكون هذه هي آخر مرَّة يراها. يجب أن يعذرها، إنها تمر بلحظات من الاكتئاب والإحباط بعد أن قُيدت حريتها، ولكن بعد أن تمر عليها الأيام وتسترجع ما قالته ستشتاق له، وستدرك أن ما فعلته كان خطأً فادحًا وستطلب الرجوع إليه. لابد أن يمتنع عن الاتصال بها أو زيارتها في الكلية ويعطيها مساحة للتفكير حتى تسترد صوابها وتطلب منه السماح .

كرَّس كريم معظم ساعات يومه للانتظار .

كلما يرن جرس تليفونه يطلق قلبه الملهوف دقات الفرحة متوهمًا أنها المتصلة، ولكن سرعان ما يتمخض عن اللهفة إحباط عندما يكتشف أن المتصل شخصًا

آخر، ثم يتحول الإحباط إلى قلق عارم، ويبدأ عقله في ممارسة لعبة التخمينات والتوقعات والشكوك. اليومان تحولا إلى أسبوع، ثم تحول الأسبوع إلى عشرة أيام، وتحولت العشرة أيام إلى أسبوعين.

شعرَ من طول الانتظار أنه يجلس وحيدًا في صحراء جرداء في انتظار هطول الأمطار، فتراجع عن قرار مقاطعته لسها واستسلم لأشواقه، وقرَّر أن يتصل بها بعد منتصف الليل كما تعود حيث يكون أهلها نائمين .

تلاحقت أنفاسه وارتجف جسده وهو يستمع لرنين التليفون. تتابعت الرنات بدون توقف وبدون ردّ. ظل يصيح " افتحي التليفون يا سها" متخيلا أن ستسمعه من الطرف الآخر.

توقف رنين التليفون فأضطر أن ينهي المكالمة. لم يصدق أنها رأت الرقم وقررت ألا ترد عليه. ربما لم تسمع رنين التليفون. ربما دخلت الحمام أو دخلت لتصلي .

ربما خرجت ونست التليفون في المنزل. انتظر لدقائق قليلة ثم عاود الاتصال. هذه المرَّة سمع رسالة "الرقم المطلوب غير متاح مؤقتا"

هناك تفسيران لهذه الرسالة، إما التليفون تعطَّل فجأة أو أنها أغلقته بمحض إرادتها حتى لا يتصل بها. المنطق يقول أن التفسير الثاني هو الأصح، ولكن قلبه أختار التفسير الأول. فشله في الاتصال بها ألقى به مجددا في ملعب الانتظار الذي لم يعد يستطع تحمله، فلم يجد إلا طريقة واحدة لكي يهزم الشكوك التي احتاجته بعد أن طال انتظاره .

* * *

في اليوم التالي استقل كريم الترام متوجها للجامعة. كانت كل حواسه في حالة انتباه وخوف من المواجهة المرتقبة التي ستقع بينه وبين سها. نزل من الترام ومشى

باتجاه الجامعة، وبينما كان يفكر في الكلام الذي سيقوله لها عندما يقابلها مرَّت بجواره سيارة فورد رمادية، ثم وقفت أمام باب الجامعة .

رأى رجلاً ضخمًا أصلعًا، يجلس في مقعد السائق، ورأى فتاة جميلة تجلس بجواره وتتبادل معه الابتسامات. أحسَّ أنه رأى تلك الفتاة من قبل، ثم أصيب بالصدمة عندما حدق في وجهها. رأها تودع صاحب السيارة بيديها وتقول له:

-تعال الساعة 2.

وبعد أن مشت السيارة انتبهت إلى وقوفه أمامها.. اتسعت عيناها هلعًا، وتقلصت عضلات وجهها كأنها لص تمَّ ضبطه متلبسًا بالجُرم المشهود، ثم فرَّت من أمامه سريعًا ودخلت الجامعة .

وقف كريم متجمّدًا في مكانه للحظات، ثم شعر أن هناك شيئًا داخل جسده يتلوى ويتمزق، فداهمته رغبة مفاجئة في الخروج من الشارع فورًا .

سارع من خطواته فتسارعت دقات قلبه لتجاري حركته. أخذ يعدو كأنه يهرب من خطر داهم أو من شخص يطارده حتى شعر بألم شديد في قدميه، فاستقل الأتوبيس وعاد به للمنزل .

كان المنزل كعادته خاليًا إلا من والده الذي لم ينتبه لدخوله. أغلق حجرة النوم وارتمى فوق فراشه. وبمجرد أن توقف عن الحركة واستسلم للرقاد، قفزت أمامه صورة سها وهي تبتسم لصاحب السيارة.

لم يتمكن قلبه هذه المرَّة من الدفاع عنها. إن العين لا تخطيء. وما رآه ليس له سوى تفسير واحد وواضح كان يعرفه جيّدًا رغم أنه حاول مرارًا وتكرارًا إنكاره.

لقد أصر على صد كل المخاوف والشكوك رغم أنها كانت حقيقية ومنطقية، وظلَّ متمسكًا بتلابيب الأوهام التي غزلها قلبه المجنون .

ولكن شاءت الأقدار أن يمشي أمام سيارة عريسها ويراها وهي تجلس بجواره، كأن الحياة أرادت أن تقول له قم واستيقظ من غفلتك. سها لم تعد فتاتك.. إنها الآن مخطوبة لشخصٍ آخر. لقد أعلنتْ عن انتهاء قصتها بك من أيام عديدة، ولكنك رفضت أن تصدق أن هذا هو الوادع لأن مخدر الحُب مازال يسري في شراييناك. هل صدقت أنها سترفض العريس الثري صاحب السيارة الفاخرة وستضيع شبابها في انتظارك حتى تتمكن من شراء حجرة فوق السطح لها بعد عشرين سنة؟

أنت الذي أخطأت عندما تعديت حدودك وأحببت فتاة وطلبت منها أن تنتظرك وأنت تعلم جيّدًا أنك لا ولن تملك أي شيء لإعطائه لها.

هل صدقت فعلا كلمات أغنية فريق"البيتلز" التي تقول كل ما تحتاجه هو الحُبُّ. أغاني الحُبِّ يكتبها موسيقيون أثرياء لا يدرون أن الحُبَّ يُعد رفاهية بالنسبة للفقراء. نعم أنت فقير.. رغم أنك لم تجرب الجوع ولا ترتدي ملابس مهترئة، وأسرتك لا تعيش على الإعانات، إلا أنك تعتبر فقير لأنك لا تملك سيارة فاخرة، وأبوك لم يشتري لك شقة الزوجية وأنت طفل، ولا يستطيع أن يدفع لك ثمن شبكة محترمة.

أمثالك يجب أن يكتفوا بمشاهدة الفتيات الجميلات من بعيد كما تشاهد الملابس الفاخرة من وراء زجاج العرض. سها استفاقت من الوهم الذي عاشته معك واستردت وعيها، وأدركت أن بإمكانها الزواج من شخص ثري لأنها فتاة جميلة... لقد قرَّرت أن تكون عملية وواقعية بعد أن رأت معاناة ملايين المحبين الذين يعيشون في الفقر، فاختارت أن تتفادى مصيرهم وتؤمّن مستقبلها مع شخص يستطيع أن ينفق عليها وعلى أولادها وهذا حقها. يجب أن تحيها لأنها أحسنت التصرف وانقذت نفسها من جحيم الفقر قبل فوات الأوان. قِصتك معها ليست مميزة ولا فريدة من نوعها، بل هي قِصَّة حُب عادية مكررة يحدث مثلها كل يوم. إنها مثل أي قِصَّة في الحياة بدايتها سعيدة ونهايتها حزينة ومأساوية .

* * *

لم يبك كريم على انتهاء علاقته بسها، ليس لأنه رأى في البكاء ضعفًا، ولكن لأن ما يشعر به كان أشد وأقوى من أن تعبر عنه أو تخفف من وطأته قطرات من المياه.

انغلقت شهيته تمامًا عن الطعام، فبات يأكل وجبة واحدة بصعوبة. حتى الموسيقى التي يحبها توقف عن الاستماع لها ولم يعد لديه أي رغبة في لمس أوتار الجيتار. كان يذهب يوميًّا للعمل مرتديا قميصًا كحلي وبنطلونًا أسود، وبعد انتهاء ساعات عمله يعود ليحبس نفسه في حجرته ويستسلم للوحدة التي باتت صديقته الوحيدة. كل من حوله لاحظوا حالته، ولكنهم لم يفعلوا شيئًا لإخراجه من هذه الحالة.

والده لم يعبأ بالأمر. عمرو سخر من حاله كعادته، ثم نصحه أن يصادق فتاة آخرى على طريقة "داويني بالتي كانت هي الداء". زملاؤه كانوا يتأملونه عن بُعد ويتحدثون عنه، ولكن لا يتحدثون معه .

والدته هي الوحيدة التي حزنت على حاله بصدق. حاولت أن تشجعه لكي يخرج من حجرته ويجلس معها ولكنه رفض .

ترجته ألا يترك نفسه فريسة للحزن، وأن يحاول ممارسة حياته بشكل طبيعي، ووعدته سينسى سها مع مرور الأيام، ولكن ما حدث له كان العكس.

كلما مرَّت عليه الأيام عليه يزيد شعوره بألم الفراق. وعندما كان يحاول العودة لحياته الطبيعية ينفتح صندوق ذكرياته فجأة، وتتراءى في مخيلته ذكرياته مع سها فيعود للمربع رقم صفر مرَّة آخرى.

أحزان كريم امتدت لتؤثر على أدائه لعمله، فأصبح يقف أمام باب السوبر ماركت في حالة شرود دائم، لا يشعر بمن دخل المحل ولا بمن خرج منه، حتى وقعت في أحد الأيام سرقة في السوبر ماركت، واكتشف المدير من خلال متابعته لكاميرات الفيديو أن السارق دخل المحل حاملاً أكياس بلاستيكية. نادى على كريم وعرضَ

عليه الفيديو، ثم صاح فيه "كنت بتعمل إيه لما الراجل ده دخل المحل بالأكياس؟" غالبا كان منشغلا بالتفكير في سها أو ندب حظه العاثر .

حدق كريم في المدير بوجه جامد خال من أي تعبير. صمته كان الشيء الوحيد الذي أنقذه من الطرد. فبعد أن نفس المديرعن غضبه أخبره أنه سيسامحه هذه المرَّة، وسيخصم منه ثمن المسروقات التي تساوى نصف مرتبه. لم يبد على وجهه فرح أو حزن. اكتفى بأن أوما برأسه وترك الرجل وغادر السوبر ماركت .

لاحظت أمه أنه دخل الشقة بدون أن يلقي عليها السلام وتوجه لحجرته مباشرة. دخلت وراءه الحجرة، وسألته ممازحة:

-انت ليه مقلتليش السلام عليكم، انت مخاصمني ولا إيه؟

حدجها بنظرة زائغة، ثم تساءل كيف لم ينتبه لوجودها في البيت؟ إنه حتى لم يشعر بنفسه وهو يدخل الشقة كما لو كان تحت تأثير التنويم المغناطيسي.

اعتذر لها وأخبرها أنه أصبح عاجزًا عن التركيز في أي شيء. تطلعت والدته لوجهه الشاحب، فانتابها القلق وأحسَّت أن مكروها وقعَ له .

اقتربت منه وسألته:

-فيه حاجة حصلت لك النهاردة؟

اتسعت عيناه في اندهاش، وتساءل كيف عرفت، ثم أخبرها بتردد بالخصم الذي تعرض له بسبب إهماله. توقع أن تلقى عليه مزيدًا من اللوم، لكنها صمتت للحظات ثم فتحت له ذارعيها فدس رأسه في حضنها بدون أن يشعر. غمره الدفء الخارج من جسدها فمنحه إحساسًا بالأمان لم يختبره منذ أن كان طفلا. أدرك أن سبب عدم قدرته على التغلب على أحزانه والأمه ألمه هو أنه كان يشعر بالوحدة والخوف .

لقد ظلَّ يبحث عن الأمان في كل مكان ولم يدرك أنه موجود عند أقرب الناس إليه. لم يدرك أنه مازال طفلاً صغيرًا في حاجة لأحضان أمه لتخفف عليه قسوة الحياة. لم يكن يعلم أن دفء أمه هو الدواء الشافي الوحيد لجراحه. اتخذ من صدر أمه وسادة وترك الدموع تنساب من عينيه. أخذت تداعب شعره وتقول له بصوتٍ رقيق:

-ماتزعلش، انا عذراك وعارفة انت حاسس بإيه كويس. إنت تستاهل شغلانة أحسن من دي. صدقني أنا بدعي لك كل يوم إن ربنا يسعدك ويخفف عنك همومك ويرزقك من وسَع، وانا متأكدة أنه هيستجيب لي قريب لأنك تستاهل كل خير.

كانت تقول له هذا الكلام بثقة متناهية كأنها عرّافة تقرا الغيب. منحته ثقتها فيه شعاعًا من النور كان في أشد الحاجة إليه. ولأول مرَّة من شهر ارتسمت ابتسامة صادقة على وجهه. ولأول مرَّة أحسَّ أن الظلام الحالك الذي يحيط به من كل جانب سيبتعد عنه يومًا ما.

* * *

- 29 -

لم تستطع سها أن تمسح من ذاكرتها الصدمة التي رأتها على وجه كريم بعد أن أخبرته أن علاقتها به انتهت. كانت تشعر وهي تبتعد عنه أن جزءًا من جسدها ينفصل عنها. ومع ذلك واصلت المشي والابتعاد واحتملت التمزق الذي كانت تشعر به وهي تقرأ اسمه على شاشة تليفونها بدون أن ترد عليه .

أدركت أن انفصالها عن كريم أمرٌ حتمي، لأن الاستمرار معه لم يعد له معنى بعد أن ارتبطت بغيره. أقنعت نفسها أن الوقت قادر على أن ينسيها الحياة التي حلمت بها معه، وأنها ستعتاد على الحياة التي يريدها لها أهلها، خصوصًا أن الرجل الذي سيكون شريك حياتها مجنون بحبها ويريد أن يسعدها بأي طريقة .

كانت تراه يضع أمواله ووقته تحت قدميها حتى ترضى عنه وتمنحه قلبها.

وكل يوم يدعوها للغداء في أرقى المطاعم والتسوق في أغلى المحلات والنتزه في أجمل الأماكن. أثر كرمه ولطفه واحترامه لها في نفسها وأجبرها على التخفيف من تحفظها في التعامل معه، فبدأت تبادله الابتسامات وتشاركه الحوارات .

وبعد أن وضع الخاتم الذهبي في إصبعها، بدأت تتقبل فكرة أنها ستشاركه الحياة للأبد، وبدأت تقنع نفسها أنها فعلاً سعيدة الحظ لأنها ستتزوج شخصًا مثله.

ولكن بعد أن عُقدت الخطوبة لاحظت أن معاملته لها اختلفت قليلا.

بدأ يكثر من زياراته لمنزلها ويكثر من اتصالاته بها متحججا بأنه يشتاق لها ويريد الاطمئنان عليها .

كانت تضيق بأسئلته الكثيرة عن تحركاتها وبرغبته في معرفة أتفه تفاصيل يومها، ولكنها أخفت اعتراضها، ظنًا منها أن هذه التصرفات دليل على حُبُّه واهتمامه بها، حتى حدثت بينهما أول مشادة عندما اصطحبها عصر يوم الخميس بعد انتهائها من امتحانات نصف العام لأحد مطاعم المأكولات البحرية من أجل تناول الغداء .

لاحظت وهي تجلس بجواره في السيارة أنه يحدق في البنطلون الجينز الأزرق الذي ترتديه وعلى وجهه علامات الامتعاض، ثم قال لها وهو يتظاهر بالنظر للطريق:

-البنطلون ده ضيق أوي وماسك على جسمك متبقيش تلبسيه تاني.

نظرت له باستغراب، وردَّت عليه بانفعال:

-أنا لبست البنطلون ده كتير قبل كده، وما كنتش بتقول عليه حاجة اشمعنى دلوقتي بقى بيضايقك.

-لا كان مضايقني من الأول بس مكنتش عايز أقولك علشان متزعليش لكن بما إنك خلاص هتبقى مراتي، لازم أعرفك طبعي. أنا مش عايزك تلبسي أي حاجة ضيقة أو قصيرة أو مكشوفة. ولا تحطي مكياج كتير. ويا ريت تبدأي تتعودي تلبسي حاجات طويلة وواسعة لأني عايزك تتحجبي .

اتسعت عينا سها في دهشة:

-أتحجب؟

نطقت بتلك الكلمة كأنها أول مرَّة تسمع عن الحجاب.

نظر لها صلاح بحدة، ثم ردَّ عليها بانفعال:

-ايوه تتحجبي. ده فيه بنات أصغر منك وأقل منك في الجمال ومتحجبين. إيه اللي منعك عن الحجاب كل ده؟ انتي مش عارفة ان الحجاب فرض على كل مسلمة، ولا انتي مش خايفة من عذاب ربنا؟

انزعجت من طريقته في الحديث معها كأنه شيخ يتكلم مع فتاة كافرة .

دافعت عن نفسها بعصبية:

-أنا مش محتاجة منك انك تعرفني ديني. أنا الحمد لله بصلي وبصوم وطول عمري لبسي محتشم بس موضوع الحجاب ده موضوع شخصي يخصني أنا بس. أنا اللي أقرر إن كنت عايزة البسه وامتى ألبسه مش انت .

برقت عيناه وبدا عليه الغضب:

-لا حجابك يخصني زي ما يخصك. انتي هتبقى مسئولة مني لأنك هتبقى مراتي وربنا هيحاسبني عليكي لو سبتك متبرجة .

-لا اطمن انت مش هتشيل ذنبي، ربنا بيحاسب كل إنسان لوحده.

-يعني عايزة تقولي إنك مش ناوية تتحجبي.

-لا عايزة أقول ملكش دعوة أتحجب أو ما تحجبكش. انت اتقدمت لي وأنا مش محجبة ومتحاولش تجبرني إني أمشي على مزاجك. لو عايز تتجوز واحدة محجبة المحجبات على قفا من يشيل .

قررت أنه لو رد عليها بأي كلمة تهينها، ستعطيه دبلته وتطلب منه أن يعيدها للمنزل، ولكنه لاذ بالصمت وكتم غضبه داخله.

جلست أمامه في المطعم، وأخذت تتأمله وهو يلتهم بشراهة السمك والأرز

والسلطة. أحسَّت أنه ليس نفس الرجل الذي قال لها من وقت قريب أن هدفه الأكبر في الحياة هو سعادتها .

هل تغيرت شخصيته فجأة؟ أم أن هذه هي شخصيته الحقيقية التي ظهرت بعد أن اطمأن إلى أنها ستتزوجه؟ هل رغبته المفاجئة في حجابها دليل تديُّن مفاجيء؟ أم هي دليل تحكم ورغبة في السيطرة؟

بعد أن انتهى صلاح من تناول طعامه، انتبه أن سها لم تلمس طبقها، فأشار للطعام وسألها بضيق عن سبب عدم تناولها الغداء.

أشاحت بوجهها بعيدًا عنه وقالت له باشمئزاز:

-مليش نفس، أنا عايزة أروح البيت .

بعد عودتها للبيت بساعتين فوجئت بأمها تدخل عليها حجرة النوم وهي تحمل في عينيها نظرات لائمة، ثم اقتربت منها وسألتها:

-إيه انتي عملتيه مع خطيبك النهاردة ده؟ الحاجة عائشة اتصلت بيا وحكت لي اللي حصل. معقول تزعقي له علشان طلب منك تتحجبي بدل ما تشكريه لأنه عايز يساعدك على الهداية. احمدي ربنا إن أبوكي كل الوقت ده مش عايز يغصبك على الحجاب، وسايبك لغاية ما ربنا يهديكي وتقرري تلبسيه لوحدك. أنا مش عارفة انتي إزاي بتصلي وتصومي ومش عايزة تلبسيه يعني مستنية إيه؟

-مستنية لما أكون عايزه ألبسه بمزاجي. مش عايزه حد يجبرني عليه . حضرتك متعرفيش الطريقة اللي كان بيتكلم بيها معايا كانت وحشة أد ايه. ده قعد يقولي إني بنطلوني الجينز ضيق. وحضرتك شوفتيني وأنا لابساه وعارفة إنه مش ضيق .

-معلش برضه كان لازم تكلميه بطريقة أحسن من كدة. أنا اعتذرت لأمه بالنيابة عنك، ووعدتها إنك هتسمعي كلامه وهتلسبي الحجاب بس بالتدريج، وقلت لها إنك هتتصلي بيه وتعتذري له .

-مستحيل اعتذر له أنا مش طايقة اسمع صوته أصلا .

-خلاص مش عايزة تعتذري له انتي حرة، بس أنا هحكي لأبوكي على اللي حصل وأسيبك منك له، وهو هيعرف يتصرف معاكي بطريقته .

* * *

"أنا أسفة اني اتعصبت عليك. انت معاك حق. أنا إن شاء الله هتحجب قريب" .

قالت سها هذه الكلمات لصلاح، بينما كانت أمها تجلس أمامها لتراقب كل

كلمة تتلفظ بها. لم يهتم صلاح أنها كانت تقول هذه الكلمات وهي تجز على أسنانها، لأنه اعتبر أن اعتذراها في حدّ ذاته انتصارًا له، ولكنه لم يشأ أن يظهر لها سعادته بالاعتذار وقال لها بلهجة الداعية الورع:

-أنا مش عايزه أضغط عليكي، بس عايزك تتعودي على إنك تلبسي جيبات واسعة وهدوم بكم طويل.

قالت له حاضر بضيق، وبعد أن انهت المكالمة قالت لها أمها بلهجة آمرة:

-من أول بكره مش هتلبسي بنطلونات ولا بلوزات نص كم تاني. أنا هديلك الجيبات بتاعتي لغاية ما نروح علشان نشتري لك هدوم جديدة .

* * *

لمعت عينا صلاح عندما رأى سها تدخل عليه السيارة وهي ترتدي جاكيت بني فوق بلوزتها الزرقاء وجبية أمها السوداء الواسعة .

حدَّق لملابسها بنظرة راضية وقال لها:

-أيوه كده برافو عليكي إنك سمعتي الكلام. فاضلك بس إنك تحطي الايشارب على راسك وتبقى مية المية. ربنا يهديكي ويثبتك على الطريق المستقيم.

أخذ طول الطريق يحدثها بنفس طريقة دعاة الفضائيات المتحمسة الانفعالية، ويقول لها أن الله سيرضى عنها وسيبارك لها في كل صحتها ووقتها بعد أن ترتدي الحجاب.

لم تشأ الدخول معه في جدل جديد، فأخذت تشاهد الطريق من شباك السيارة حتى لا تشاركه الحديث. طلبت منه أن يزيد من سرعته حتى تتمكن من اللحاق بأول محاضرة، وبعد أن أوصلها ورأت سيارته تبتعد قامت بخلع الجاكيت، ثم حملته على ذراعها وتنفست الصعداء .

* * *

- 30 -

جاء يوم عيد ميلاد فاطمة والدة كريم هادئًا كالعادة، حيث أنها توقفت عن الاحتفال به من زمن طويل، ولكنها تلقت التهاني والدعوات بالصحة وطول العمر من زملائها وصديقاتها وأهلها. كان كريم هو أول من هنأها بعيد ميلادها، وقدَّم لها علبة صغيرة ملفوفة في ورق هدايا ملون .

شكرته بابتسامة ممتنة وفتحت العلبة، فوجدت فيها مجموعة من الدبابيس الملونة. اعتذر لها لأن ميزانيته المحدودة لم تتح له شراء هدية أفضل لها، فضحكت وقالت له أنها سعيدة بأي هدية يقدمها لها حتى لو كانت علبة مناديل، لأن قيمة الهدية لا تنبع من ثمنها وإنما تنبع من حُبِّ الشخص الذي يقدمها، ثم أخبرته أنها تريده أن يشاركها الاحتفال بعيد ميلادها بالخروج معها .

ارتسمت على وجهه علامات التعجب، ثم سألها عن سبب رغبتها في الخروج .

لم تخبره أنها ترغب في الترفيه عنه وإخراجه من الجو الكئيب الذي يعيش فيه من وقت طويل حتى لا يرفض الخروج، وإنما قالت له أنها تشعر بالملل والتعب من طهي الطعام في المنزل كل يوم، ولذلك تريد استغلال مناسبة عيد ميلادها لكي تتناول الغداء معه في أي مطعم يختاره .

لم يستطع أن يرفض عرضها، فاتفق معها على أن يصطحبها لأحد مطاعم المشويات بعد رجوعه من عمله .

* * *

مرَّت ثلث ساعة على كريم وهو جالس في حجرة المعيشة في انتظار أن تغير أمه ملابسها وتعد نفسها للخروج .

انتابه الشعور بالضجر وتساءل عن سبب تأخرها رغم أنها ليست من السيدات اللواتي يأخذن وقتًا طويلاً في التزيُّن باعتبار أنها محجبة. نادى عليها وهو يطرق على الباب طرقات خفيفة. تسلل إليه القلق عندما لم يسمع ردًا، فأضطر أن يفتح الباب عليها.

توقف قلبه عن الخفقان عندما رآها مستلقية على الجانب الأيسر من الفراش بقميص النوم وعينيها مغلقتين. اقترب منها وأخذ يطرق على وجهها بأصابعه وينادي عليها ولكنها لم تتحرك. ازداد خوفه عندما رأى بشرتها صفراء كورقة شجرة ذابلة.

جرى على المطبخ سريعًا وأحضر كوبًا من الماء ثم ألقاه على وجهها. سقط الماء فوق عينيها وبلل وجهها وأنفها وذقنها ورقبتها ونزل جزء منه على قميص نومها، ولكنه لم يحرك فيها ساكنا.

أدرك كريم أن حالة أمه أخطر مما تصور، فانطلق إلى الشرفة حيث كان يجلس والده ونادى عليه وأخبره أن أمه ملقاة فوق السرير بلا حركة. قام مختار مفزوعًا، ثم دق عكازه في الأرض، وتحرك نحو حجرة النوم بأسرع ما يمكن .

أخذ مختار يطرق بأصابعه على وجه فاطمة وينادي عليها فصاح فيه كريم "أنا عملت كل ده وما ردتش عليا، أكيد هي حالتها الخطيرة، لازم نوديها المستشفى بسرعة " .

رفع مختار ذراعها الأيمن وأمسك بمرفقها فشعر بقليل من الارتياح عندما وجد نبضًا، طمأنه أنها مازلت على قيد الحياة، وربما تكون المسألة بسيطة.

انزعج كريم من رد فعل أبيه الهادىء وأخبره أنه سيطلب لها الإسعاف، ثم تذكر أن هناك مستشفى تقع على بعد شارعين منهم، ولكن المشكلة أنهم لا يملكون سيارة لنقلها إلى هناك. خرج كريم من الشقة وطرق على باب الشقة المواجهة له .

فتح له الأستاذ «سيد» صاحب الشقة، فأخبره على عجل بحالة والدته الصحية، وقبل أن يكمل جملته أبدى الأستاذ سيد استعداده لنقلها، وطلب منه أن ينتظره حتى يجلب المفاتيح. حمل كريم أمه بمساعدة الرجل، بينما تبعهما والده للسيارة وخلال دقائق كانوا في المستشفى .

لم يكد يمر على جلوس كريم ووالده وجاره في صالة الاستقبال عشر دقائق، حتى خرج الطبيب من الحجرة واقترب منهم وعلى وجهه علامات الأسى والحزن،

وقال لهم "البقاء لله، شدوا حيلكم" .

استوعب مختار خبر وفاة زوجته بسرعة فطأطأ رأسه في حزن ولاذ بالصمت، أما كريم فأخذ يهز رأسه يمينًا ويسارًا في ذهولٍ، ثم صاح في الطبيب:

-ماتت إزاي ده حضرتك ملحتقش تكشف عليها، وبعدين إحنا لما جيبناها كانت عايشة، إيه اللي حصل لها؟

-لا أنا لما كشفت عليها لقيتها متوفية. تقريبا هي ماتت في السكة. جالها أزمة قلبية مفاجئة.

-وجاتلها من إيه؟ دي طول عمرها صحتها كويسة وعمرها ما اشتكت من أي مرض، أنت متأكد إنها ماتت يا دكتور؟ اكشف عليها تاني أرجوك. يمكن تكون غلطت وتلاقي لسة فيها نبض.

مطَّ الطبيب شفتيه في تأثر، وأطرق برأسه في حزن بدون أن يرد على كريم.

طلبَ مختار من كريم أن يتوقف عن طرح هذه الأسئلة وأن يستسلم لقضاء الله، ولكنه أصرَّ على أن يطلب من الطبيب معاودة الكشف عليها. لم يتجاوب معه

الطبيب تقديرا لحجم المصيبة التي ألمَّت به، وإنما وجه كلامه لمختار وسأله إذا كان يريد إخراجها الآن أم في الصباح من أجل دفنها.

انزعج كريم عندماسمع كلمة الدفن، فصاح في الطبيب مجدَّدًا:

-دفن ايه؟؟؟ أمي لسة عايشة، والدكتور لو كشف عليها دلوقتي هيلاقي لسة فيها نبض. أنا متأكد.

رمقه أبوه بنظرة زاجرة وصاح" اسكت كفاية جنان فرجت علينا الناس"

تطلع كريم حوله، فرأى زوار المستشفى يحدقون فيه بعيون يمتزج فيها الحزن بالشفقة. نظرات الناس ألقت في قلبه الرعب، فتجمَّد في مكانه، ثم خارت قواه وانهار على الكرسي.

جلسَ كريم بين أخيه عمرو ووالده في الصالة، بين مجموعة كبيرة من الرجال، بينما انطلق صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد من المسجِّل ليملأ أرجاء الشقة .

نظرَ كل من حوله بذهول كأنه كان غائبًا عن الوعي واستفاق فجأة، ثم تساءل كيف عاد للمنزل؟ هل نام؟ هل أكل؟ كيف ارتدى ملابسه؟ وكيف خرجت أمه من المستشفى؟ هل حضر دفنها؟ هل صلى عليها؟ لقد غطت ذاكرته طبقة كثفية من الضباب فمنعته من تذكر أي شيء. الشيء الوحيد المؤكد هو أن هناك حادثًا مؤلمًا وقع له بالأمس، ولكنه مازال غير متأكد إذا كانت أمه توفت فعلا؟ أم أن ما يراه هذيان ناتج عن لوثة عقلية مفاجئة أصابته؟

لم يستطع أن يستوعب أن أمه التي كانت تنوي الخروج معه بالأمس من أجل الاحتفال بعيد ميلادها دخلت حجرة نومها، ثم خرجت منها جثة هامدة.

تطلع لحجرة نومها التي ألقت عليها أنوار الصالة ظلالًا مرتعشة، وتمنى أن تخرج منها فجأة وتبتسم للحاضرين وتقول لهم "ضحكت عليكم، لقد مثلت الموت لكي أعرف مقدار محبتكم لي"

ولكن العزاء قارب على الانتهاء، وظلت الحجرة التي كانت آخر مكان تطأه قدميها مغلقة كالتابوت .

تطلع لوجوه الرجال الجالسين حوله. رأى وجوه مألوفة كالأستاذ سيد جاره وأزواج خالاته وأولاد أعمامه، ورأى وجوهًا لم يرها من مدة طويلة، مثل أصدقاء والده القدامى من أيام الجيش، وخاله عزمي الذي لم يكن يأتي لزيارتهم كثيرًا بسبب إقامته في القاهرة. كانوا جميعًا يجلسون مطأطئين رؤوسهم والحزن يغطي وجوههم. تطلع بعيدا لغرفة المعيشة، فرأى جدته ترتدي عباءة سوداء وتتطلع لخالاته وللسيدات الجالسات حولها بعيون حمراء منتفخة.

بعد انتهاء العزاء، قام الرجال وأخذوا يشدون على يده ويقولون له "شِد حيلك والبركة فيك". احتضنه خاله عزمي وهو يبكي ويبدي ندمه على تقصيره في السؤال على والدته وأخذ يقول له "لو احتجت أي حاجة اتصل بيا ".

رغم أن جملة عزاء وكل نظرة شفقة وكل مصمصة شفاه وكل دمعة عين كانت تؤكد لكريم أن ما يعايشه حقيقة أقسى من أبشع الكوابيس، إلا أنه ظلَّ رافضًا أن يصدق أن أمه غادرت الحياة، حتى اتصلت به أخته ريم وأخذت تبكي وتهتف في التليفون "أنا مش قادرة أصدق أرجوك قولي إنها لسه عايشة"

عندئذ أجهش بالبكاء وقال لها "لا. صدقي يا ريم، ماما ماتت".

* * *

انتصف الليل وتوقف صوت القرآن وانطفأت الأنوار. استلقى كريم فوق الفراش وحدق في الظلام، ثم تطلع لضوء الشارع المنعكس على زجاج شباك الغرفة .

سرت في بدنه رجفة البرد، رغم أن الطقس كان معتدلا. وضع الغطاء فوق جسده بينما اصطدمت أسنانه ببعضها. استغلت الذكريات وحدته في الظلام وقامت بشن هجوم مفاجيء عليه. كان أول شيء تذكره هو الحضن الذي منحته له أمه

قبل أن تتوفى بأسبوعين. لو كان يعلم أنها سترحل لاتخذ من حضنها مسكنا أبديًا له .

سأل نفسه لماذا ماتت أمي وتركتني؟ ولماذا أخذها الله مني بهذا الشكل المفاجيء؟ وكالعادة لام نفسه على ما حدث لها. شعر أن موتها غضب من الله عليه لأنه لم يقدرها حق قدرها. لقد تعامل مع وجودها على أنه من المسلمات مثل الشمس والهواء والماء، ولم يدرك أنها يمكن أن تختفى من حياته في أي لحظة .

كم كان قاسيًا معها عندما ترجته وتوسلت له مرَّات عديدة حتى يترك غرفته ويجلس معها في حجرة المعيشة ليؤنسها ويتحدث معها .

عزل نفسه عنها رغم أنها حاولت الاقتراب منه كثيرًا، وطلبت منه أن يفتح لها قلبه. كم كان قاسيًا في حكمه عليها بسبب خضوعها لوالده وصبرها الزائد عليه، وهو الآن يدرك أن خضوعها لم يكن ضعفًا ولكنه تضحية غالية هدفها المحافظة على تماسك الأسرة. كم كان تافها عندما ظنَّ أن حياته انتهت لأن سها تركته، وهاهو الآن يدرك المعنى الحقيقي لنهاية الحياة .

* * *

أحسَّ كريم بضوء الشمس يداعب عينيه ويحثه على الاستيقاظ.

نظر للساعة فوجدها تعدت العاشرة صباحًا. حاول أن يتحرك من الفراش فداهمه ألم شديد في ظهره ثبته في مكانه. تذكر أنه من المفترض أن يذهب لعمله. مد يده بصعوبة وأخذ التليفون واتصل بمديره وأخبره بالظرف المحزن الذي يمر به.

عزاه المدير وتعاطف معه وأخبره أنه سيعطيه أجازة لمدة ثلاثة أيام.

قضى كريم تلك الأيام الثلاثة في النوم. كان بمجرد أن يستيقظ من النوم يتذكر أنه مازال على قيد الحياة بينما والدته مدفونة في التراب، وسرعان ما يدب في

جسده نفس الألم العنيف، فيتناول قرص مسكن ثم يعود للفراش مرَّة آخرى ويدفن نفسه تحت الغطاء.

تولت عمته خلال هذه الفترة مسئولية المنزل فكانت تزورهم كل يوم وتعتني بشئون والده وتطبخ لهم الطعام، وقد حاولت مرارا وتكرارا أن تقنعه بأن يغادر حجرته ولكنه لم يستمع لها لأنه لم يكن يملك أي ذرة من الطاقة أو أي حافز للخروج. وبعد مرور الأيام الثلاثة تغيرت هيئته تمامًا، فبدا شكله أشبه بأهل الكهف بعد أن ترك ذقنه بلا حلاقة وازداد جسده ضألة، وغارت عينيه داخل وجهه، وبرزت عظام وجهه، وبدا ساقاه كأنهما عودان من القصب .

وبعد اليوم الرابع اتصل به المدير، وأخبره أنه إذا لم يأت غدا للسوبر ماركت سيفصله، فاضطر رغمًا عنه أن يخرج من شرنقته ويذهب لعمله .

* * *

-31-

ظلَّ الألم العارم الذي سيطر على كريم على نفس قوته وشدته وحدته رغم مرور أربعين يومًا على رحيل أمه. لقد اعتقد أن الحياة ستتوقف لموت أمه، ولكنه اكتشف أنه الوحيد الذي توقفت حياته، بينما عادت حياة كل أفراد أسرته كما كانت بسرعة .

عاد عمرو لسخريته ومزاحه ولامبالاته، وعاد والده ينتقد ويشكو ويأكل بشهية مفتوحة. حتى ريم التي كانت تتصل به يوميًّا وتبكي يوميًّا، وتقسم أنها ستعود الإسكندرية في أقرب فرصة ممكنة، اتصلت به من يومين لتخبره أنها لن تأتي بسبب رفض زوجها لسفرها، وإصراره على تأجيل العودة لِمصر لحين موعد الإجازة الصيفية. لم يومها لأنها فضلت زوجها وطفلها القادم على أهلها، ولكن عدم قدومها زاد من وطأة ألمه وجعله يشعر أنه وحيد تمامًا في مواجهة أحزانه .

* * *

كان كريم واقفًا أمام باب السوبر ماركت في حالة شرود، حتى مرَّ من أمامه رجلٌ طويلٌ وأصلع، يرتدي بدلة رمادية فاخرة. لفت دخول هذا الرجل للسوبر ماركت انتباه كريم، فأخذ يحدق في ملامحه .

ذكره مظهره الأنيق بخطيب سها صاحب السيارة الفورد.

كانت هذه هي أول منذ أن توفت أمه يفكر في سها. داهمه حنين مفاجئ لها، وتساءل عن ما تفعله الآن. إنها على الأغلب تزوجت من هذا الرجل الثري، وربما تقضي معه شهر العسل في أوروبا. هنيئًا لها بالرفاهية والثراء ولعنة الله على الفقر .

انتشله صوت زميله اسماعيل الكاشير من أفكاره. طلبَ منه أن يضع مشتريات الزبون صاحب البدلة الرمادية في الأكياس، لأن العامل لم يأت بعد .

رفض كريم المهمة، وقال لاسماعيل:

-ما تحطها إنت دي مش شغلتي .

تطلع له اسماعيل بغيظ وقال:

-المدير قالي أطلب منك إنك تساعدني، إيه يعني لما تعمل شغلانة حد تاني؟ يلا بقى حط الحاجة في الأكياس.

اقترب كريم من المشتريات الموضوعة فوق الطاولة، وأخذ يضعها بسرعة في الأكياس، وبينما كان يضع زجاجات اللبن في الكيس انفلتت إحدى الزجاجات من بين أصابعه واصطدمت ببدلة الرجل قبل أن تسقط على أرضية المحل وتنكسر ويتسرب منها اللبن .

انتفض الرجل وأخذ يحدق في البدلة بغضب، ثم صاح في كريم:

-إيه يا بجم ده مش تاخد بالك وانت بتحط اللبن انت أعمي ولا إيه؟

بدا الإحراج على كريم، واقترب من الزبون وأخذ يتأسف له عدة مرات، وعرض عليه أن ينظف له البدلة في حمام السوبر ماركت بنفسه، ولكن الزبون نظر له باستعلاء وقال:

-تنضف إيه انت مش عارف البدلة دي غالية قد إيه دي تساوي مرتبك في سنة، أنا مش عارف ليه بيشغلوا حمير زيك في المحلات .

خرج كريم عن طوره وصاح في الرجل:

-انت اللي حمار ومعندكش إحساس ولا دم، البدلة بتاعتك دي متستاهلش إنك تمرمط بكرامتي الأرض .

اندهش كريم من نفسه وهو يرد على الرجل. مواجهة الآخرين لم تكن أبدًا من طباعه. لقد اعتاد عندما يتعرض للإهانة أن يلوذ بالصمت خوفًا وخجلاً.

هذه هي المرّة الأولى التي يرد فيها على الإهانة بإهانة مثلها، والغريب أنه لم يخف من الرجل حتى عندما رأى الشرر يتطاير من عينيه وهو يكور قبضة يده اليمني ويقترب منه لكي يلكمه في وجهه.

حرّك رأسه بعيدًا عنه بسرعة فصاح الرجل فيه:

-انت مش عارف أنا مين، أنا لازم أعلمك الأدب.

تدخل زميله اسماعيل وأمسك بذارع الرجل، وطلب منه أن يهدىء، فأخذ الرجل يصيح مطالبا بحضور المدير .

وبالفعل وصل صياحه لمسامع المدير، فخرج من مكتبه وهو يتساءل عن ما جرى. أشار الرجل لبدلته المبللة باللبن، ثم أشار لكريم بأصابعه كأنه حشرة وقال للمدير:

-مش تكشفوا على عقول الناس اللي بتعينوهم علشان تتأكدوا انهم مش متخلفين عقليا، وكمان بعد لما كب اللبن على بدلتي قعد يشتمني. أنا اتشتم من حيوان زي ده. أصل هو مش عارف أنا مين .

دس الرجل يده في جيبه وأخرج كارتًا صغيرًا وأعطاه للمدير. اقشعر بدن المدير، وبدا عليه الخوف بعد أن قرأ المكتوب في الكارت .

انحنى وهو يسلم على الرجل، واعتذر له بشدة ثم رمق كريم بنظرة حادة وقال له:

-دي مش أول مرة تغلط يا كريم وأنا سامحتك المرة اللي فاتت...

وقبل أن يكمل جملته قام كريم بنزع كارنية المحل من على صدره، وقال للمدير ببرود:

-أنا عارف حضرتك هتقول إيه. أنا همشي من غير حاجة.

خرج كريم من باب السوبر ماركت بسرعة وسط دهشة المدير والزبون الغاضب وزملائه. وهكذا انتهت في دقائق قليلة علاقته بالسوبر ماركت الذي عمل فيه لمدة شهرين ونصف .

تنفس الصعداء بعد أن ابتعد عن المحل، وغمره شعور غريب بالتحرُّر، كأنه سجين خرج لتوه من وراء القضبان. شعر بالارتياح لأنه ترك هذا المكان الذي دفعه اليأس للعمل فيه، وكان يأخذ منه مرتب لا يكفيه حتى نصف الشهر .

لم يفكر في الرجوع من أجل الحصول على باقي مستحقاته، ولم يقلق على ما سيفعله بعد أن ترك الوظيفة، كما أنه لم يخف عندما فكَّر في رد فعل والده عندما يعرف بما حدث لأنه لن يكون أقسى مما تعرض له من ذلك الزبون المتغطرس .

نقص الخوف لم يكن نتيجة جرعة مفاجئة من الشجاعة سقطت عليه، وإنما نتيجة يأس ولامبالاة. لقد تغيَّر تكوينه النفسي بعد أن خسر كل شيء وابتعد عنه كل أحبائه وتعرض لكل الصدمات الممكنة..

و من خسر كل شيء لا يخاف من أي شيء.

لقد ماتت كل المشاعر داخله. مات خجله وخوفه من الناس حتى الوجع مات وتحول إلى خواء تام .

قال لنفسه سأخبر والدي بما حدث بالضبط وبشكل واضح، وإذا كان لا يريد أن ينفق عليَّ لن يهمني إن مت جوعًا، ولكني لن أعود لهذه النوعية من الوظائف مجددا .

بعد أن دخل الشقة وصل لمسامعه صوت عمته ووالده يتحدثان.

كان على وشك أن يدخل حجرته، ولكنه توقف عندما سمع عمته تقول لوالده بابتهاج:

-والله برافو عليك أحسن حاجة تعملها هي إنك تتجوز. انت محتاج واحدة تشيل همك بدالي، وترعاك وتونسك وتاخد بالها منك .

ردَّ عليها والده بحماس:

-بس المهم إني ألاقي عروسة كويسة ومتكونش طمعانة في فلوسي لأني دلوقتي بقيت باخد كمان معاش من فاطمة الله يرحمها غير معاشي.

-أنا بقول إننا نروح البلد وندور هناك على واحدة ست تكون غلبانة وطيبة .

ظلَّ كريم واقفا أمام حجرة نومه في حالة ذهول، وفجأة شعر أن هناك آلة حادة تخترق صدره. لقد كان مخطئًا عندما ظن أن لا شيء بعد اليوم يمكن أن يصدمه أو يؤلمه. يبدو أن الحياة لا تريد التوقف عن إلقاء المفاجأت القاسية على رأسه حتى تدفعه لهاوية أعمق .

كان كريم في البداية مندهشًا.. كيف جفت دموع والده ونسى والدته التي عاش معها أكثر من ربع قرن بهذه السرعة، بل ويريد إدخال سيدة آخرى لمنزلها؟

ولكنه بعد أن جلس مع نفسه وأخذ يفكر في قرار والده جيّدًا اختفت دهشته، وبدأ يشك أن أبيه ذرف دمعة صادقة على أمه .

كيف يحزن عليها وهو لم يحبها أصلا؟ إنه لم يكن يعاملها برفق، أو لم يكن يشكرها على أي شيء تفعله من أجله إلا نادرًا. لقد ظلَّ يوبخها ويبدي ندمه على الزواج منها لأنها زوجة فاشلة مقارنة بزوجات أقاربه القرويات.

إن الدموع التي ذرفها يوم وفاتها لم تكن دموع الزوج على رحيل زوجته، وإنما هي دموع السيد على الجارية التي رحلت وتركته بدون أحد ليخدمه، وهو الآن يريد أن يبحث عن خادمة جديدة .

* * *

انتظر كريم لصباح اليوم التالي ليخبر والده أنه ترك وظيفته رغما عنه بعد أن حدثت مشادة بينه وبين المدير، ووعده بأنه سيبحث عن عمل آخر .

رسم والده ابتسامته المستهزئة المعتادة على وجهه وقال له:

-أنا خلاص رميت طوبتك ومعادش يهمني إنك تشتغل، بس أنا مش هديلك مصروف أكثر من 300 جنية.

اعتقد كريم أن هذا المبلغ لن يفي باحتياجاته، ولذلك سارع بالبحث عن عمل جديد، ولكنه هذه المرَّة قرَّر أن يجعل بحثه مقتصرا على وظيفة محاسب.

كان كل مدير يقابله يسأله عن خبراته السابقة، وبمجرَّد يعرف أن خبرته الوحيدة هي حراسة سوبر ماركت ينظر له شزرا ويقول له:

-المفروض إنك تقدم على وظيفة في الأمن. إحنا عايزين واحد عنده خبرة في الحسابات .

أنفق كريم كل مصروفه في ركوب المواصلات، والذهاب لنفس المقابلات، وتلقي نفس الأسئلة، وتكرار نفس الردود .

وعندما قرَّر بعد أسبوعين من البحث المضني أن يأخذ فترة راحة من التقديم في الوظائف، اكتشف أن مصروفه غطى احتياجاته وفاض منه بعض الجنيهات، خصوصًا أنه لم يكن يخرج من المنزل إلا نادرًا. ولذلك قرَّر أن يعيش من المصروف وصرفَ نظر عن البحث عن عمل .

* * *

استطاع كريم بسهولة أن يكتشف السبب الحقيقي وراء سفر والده لمدة أسبوع لزيارته أقربائه في القرية. توقع أن يدخل عليه ومعه العروس الجديدة في أي لحظة بعد ما رأى جدته وخالته تدخلان حجرة نوم والدته وتخرجان ملابسها وأشيائها من الدولاب، وتقومان بوضعها في حقيبة كبيرة ويأخذوها معهما .

لم يفاجيء عندما خرج من حجرته في أحد الأيام ليجد سيدة بيضاء نحيفة، عيناها سوداوتين، ترتدي تاير أخضر مشجر بالزهور البيضاء، وتجلس في حجرة المعيشة .

ابتسمت له في خجل، فنظر لها بوجوم، وقبل أن تعرّفه عن نفسها ظهر والده وأشار ناحيتها في سعادة ثم قال له "سلم على طنط صباح" .

تعريفه لها بكلمة طنط أكد له أنها الزوجة الجديدة. رافقه والده لحجرته، وأخبره ببرود أنه عقد قرانه عليها اليوم في البلد. نظرة كريم الحزينة كانت كافية لإثارة أعصاب والده:

-انت كنت عايزني أقعد من غير جواز كل ده.

رسم كريم على وجهه ابتسامة ساخرة وقال:

-لا طبعا شهرين من غير جواز كتير على حضرتك.

-بلاش تريقة أنا راجل صاحب مرض ومحتاج واحدة تاخد بالها مني

-أنا عارف يا بابا مفيش مشكلة مبروك عليك الجواز .

* * *

-32-

كان كريم مستلقيا فوق فراشه كعادته عندما سمع صوت ضحكات رجل وسيدة تجلجل في أذنيه. خرج من الحجرة لكي يبحث عن مصدر تلك الضحكات الغريبة.

أطل برأسه من وراء الستارة التي تفصل حجرة المعيشة عن الردهة، فلم يصدق ما رأته عيناه. رأى والده يجلس بجوار صباح على الكرسي المواجة للتليفزيون ويقهقه بصوت عالٍ، بينما كانا يشاهدان سويًا عادل إمام يتحدث مع سعيد صالح في مسرحية مدرسة المشاغبين .

هذه هي أول مرَّة يرى والده يقهقه أو حتى يضحك من قلبه .

كان يظن أن والده يكره الضحك ويعتبره دليلاً على قلة الوقار والاحترام .

وحتى عندما كان يمن عليهم بابتسامة، فإن ابتسامته عادة ما تكون دليلاً على السخرية أو التهكم أو الازدراء، ثم إنه لا يحب عادل إمام ولا يحب مسرحية مدرسة المشاغبين، ويراها من أسباب انهيار التعليم، فكيف استطاعت صباح أن تجعله يشاهد المسرحية بل ويضحك عليها؟

ازداد حجم صدمته عندما رأى والده يضع يده فوق كتف صباح ويتطلع لها بابتسامة محب كأنه مراهق عاشق. لم تحتمل مشاعره التطلع لهذا المشهد لفترة أطول، فعاد لحجرته قبل أن يلاحظ والده وزوجته وجوده .

إنه لم يره ينظر لأمه بهذه الطريقة أبدًا.. المسكينة لم ينَلها منه سوى نظرات الأمر والنهي والردع، رغم أنها كانت مثالاً للزوجة المطيعة المخلصة .

ثم إن صباح ليست أجمل من أمه، فكيف ولماذا أحبها والده بهذه السرعة؟

هل أحضرت معها من القرية تعويذة سحرية، وألقتها عليه حتى تجعله أسير غرامها؟ أم أنه مصاب بأزمة منتصف العمر ويتوق للعودة لمرحلة الشباب؟

* * *

اتخذ كريم من حجرة نومه منفى اختياري، لأنه لم يتمكن من احتمال رؤية سيدة آخرى تنام على فراش أمه وتقف في مطبخها وتجلس على كرسيها وتستعمل أشيائها. كانت صباح تدخل عليه أحيانًا لتسأله إذا كان يريدها أن تحضر له الطعام في الغرفة أو تفعل أي شيء من أجله، فكان يردّ عليها بالرفض بكلمات معدودة. وعندما لم تجد منه استجابة تتركه في حاله ولا تعد تهتم بالتواصل معه .

أصبح يقضي كل يومه في حجرة النوم كأنه دب قطبي في حالة بيات شتوي .

بات لا يأكل إلا قليلاً، ولا يخرج من حجرته إلا للضرورة القصوى، وانخفضت درجة حرارة جسده وأصبح يشعر بالبرد طول الوقت رغم مجيء الربيع.

لكن لأنه لا يملك الفرو الذي يملكه الدب القطبي، اضطر أن يحصل على التدفئة بوضع عدة طبقات من الأغطية فوق جسده لتعطيه الدفء اللازم.

تولدت لديه كراهية للنور والشمس والهواء، فجعل نوافذ الحجرة مغلقة طول اليوم ونورها مطفئا حتى بالليل. كان بين فترات النوم يفتح عينيه ويشعر بالتقيظ رغمًا عنه، فيقوم لكي يشغِّل أحد ألبومات"بينك فلويد" ويحدق في الظلام، ثم تتابع الذكريات في ذهنه كأنها شريط سينمائي..

يرى نفسه وهو طفل يجري من أمه وهي تحمل طبق الأرز المخلوط بالخضار وتترجاه قائلة "اسمع كلامي وكل معلقة واحدة بس"

يراها وهي تجلس بجواره وتطلب منه أن يحسِّن خطه ويعيد كتابة الجملة بطريقة صحيحة. يراها وهي تقف في مدرسته وتشارك أولياء الأمور في إطلاق الزغاريد بعد حصوله على الشهادة الإعدادية بمجموع(85 في المئة).

يراها وهي تحول نفسها لحائط صد لتحميه من تلقى ضربات والده. .

يراها وهي تقترب منه وتحضنته بدون سبب وتطلب منه أن يجلس على حجرها كما كان يفعل وهو طفل، فيقول لها والخجل يرتسم على ملامحه "يا ماما أنا خلاص كبرت " .

كان نفس الفيلم يعاد أمامه كل يوم عدة مرَّات، وتختلط فيه الذكريات القريبة بالبعيدة، فتبدو كأنها قِصة غير مترابطة الأحداث .

تمنى أن يملك القدرة على إيقاف فيلم الذكريات لدقائق حتى يغير من المشاهد التي لا تعجبه ويقوم بإعادتها وتعديلها، فبدلا من أن يعذِّب أمه يسمع كلامها، وبدلا من أن يهرب منها يجري نحوها. كانت هناك ذكريات آخرى جميلة تطلّ أحيانًا في وسط عرض الفيلم كأنها فاصل إعلاني قصير .

يرى نفسه وهو منغمس في العزف على الجيتار وسط الجمهور في مقهى الروك، وسها تجلس على مقربة منه تصفق له وتشجعه .

ويرى نفسه وهو يجلس معها على الكورنيش ويستمتع بهواء البحر المنعش ويشاهد انكماش قرص الشمس تدريجيًّا وسقوطه في البحر .

كان يشعر أن بطل هذه الذكريات شخصًا آخر لا يمت له بصلة. كان من الصعب عليه أن يصدق أنه تذوق هذه اللحظات السعيدة بنفسه، لأنه من الصعب أن تتخيل شروق الشمس وأنت تعيش في الظلام طول الوقت.

* * *

لم يعد كريم يستطيع التمييز بين الليل والنهار، لأن يومه كان كله ليلاً، ولم يستطع التمييز بين أيام الأسبوع لأنه كان يقضيها كلها في نفس المكان .

ظنَّ أنه يمكن أن يقضي بقية حياته بهذه الطريقة، وأن انعزاله سيساعده على التكيف والتعايش مع ظروفه، ولكنه اكتشف أن الألأم لا يمكن مصادقتها ولا يمكن حتى تقبلها، فمهما حاول الإنسان أن يتحملها لا يمكنه أبدًا أن يستسيغها، ولا يمكن أن تخف وطأتها على نفسه. حتى الأقراص المسكِّنة تهدِّىء منها لفترة

قصيرة، ولكنها لا يمكن أن تداويها. وهذا ما جعله يدرك أن عليه اتخاذ طريقة آخرى للتعامل معها.

عندما فكر في طرق التعامل مع آلامه أدرك أن هناك طريقًا واحدًا للهروب النهائي منها، ولكنه طريق مظلم ولا يمكنه أن يتراجع عنه إذا قرَّر السير فيه .

لقد لاح له هذا الطريق من قبل وأغراه لكي يمشي فيه، ولكنه امتنع عن اتخاذه ليس خوفًا من الموت، ولكن خوفًا أن يُحسب عند الله كافرًا.

ولكن الآن لم يعد أمامه اختيار آخر سواه. إنه يشعر أنه بات مثل الملك في لعبة الشطرنج محاصر من جميع من الطابية والحصان والوزير بعد أن فقد كل القطع التي يمكن أن تساعده في الصمود وكسب المعركة.

لقد ماتت روحه بالفعل ولم يبقى إلا سوى موت جسده. أما العذاب الذي سيتعرض له في الأخرة فمن المؤكد أنه سيكون خفيفًا مقارنة بالعذاب الذي يعاني منه الآن .

لقد تحوَّل لكائنٍ بلا فائدة، كل وظيفته في الحياة هي أن يأكل ويشرب وينام ويقضي حاجته، وأصبح بالنسبة لأسرته شبحًا لا يعيرونه اهتمامًا، ولا يلاحظون وجوده في المنزل ولا في الحياة .

والده مشغول مع زوجته الجديدة، وأخوه خارج البيت طول اليوم مع أصدقائه، وأخته خارج البلد. أما أقاربه فلم يعد أحد منهم يهتم بالاتصال به إلا خاله وجدته.

عندما يعرفون بما فعله سيحزنون عليه لبضعة أيام كما حزنوا على أمه، ثم سيعودون للانغماس في دوامة حياتهم كأن شيئًا لم يكن. بينما سيرتاح هو من كونه عبئا عليهم وعلى نفسه. لقد تحولت حياته لمسلسل تراجيدي ممل، ولذلك ينبغي عليه أن ينهيه بأسرع ما يمكن بعد أن زادت عدد حلقاته وأصبحت أحداثه مكررة وبلا معنى .

* * *

- 33 -

قضت سها يوم الجمعة كله في المطبخ أمام الفرن تراقب التورتة التي أعددتها خصيصا لصلاح بعد أن أخبرتها والدته أنه يحب تورتة الفراولة، ويتمنى أن تعدها له عندما يزورها في أول أيام العيد.

شعرت برضا عن نفسها وهي تتأمل سطح التورتة الأبيض الذي زينته بقطع الفراولة الصغيرة بشكل جميل متناسق.

شعورها بالتعب لطول المدة التي قضتها في تزيين التورتة بالكريمة، وغسل الفراولة وتقطعها لنصفين ووضع الجيلي فوقها، تبخَّر تمامًا عندما رأت لمعان عينيّ صلاح وهو ينظر للتورتة .

قطعت له ولأمه مثلثًا كبيرًا من التورتة وقدمتها لهما بفخر.

شعرت بالسعادة وهي ترى صلاح يلتهم التورتة بشراهة وتلذذ، ولكنه فجأة توقف عن المضغ، وبدا أن الطعام وقف في حلقه. أخذ يكح عدة مرَّات ثم فتح فمه وأخرج منه عنق الفراولة الأخضر .

بعد أن شرب كوبًا من الماء نظر لسها بضيق وسألها:

-إيه ده؟

أما والدته وجّهَت لها نظرة حادة وصاحت:

-انتي اتعميتي ولا إيه؟ انتي عارفة إن العنق ده كان ممكن يقف في زوره ويموته.

أحسَّت سها بالضيق من نفسها، وأخذت تكرِّر اعتذارها لصلاح ولأمه لأنها لم تنتبه لوجود العنق ولم تنزعه .

أخذت حماتها تحدق في التورتة جيّدًا ثم قالت لها بتبرم:

-على فكرة التورتة دي مكتومة. المفروض إنها تبقى أعلى من كدة، وكمان السكر فيها مش كفاية. المفروض كنتي تحطي نص كوباية زيادة. انتي فاضلك كتير أوي لغاية لما تتعلمي إزاي تعملي حلويات. المفروض إنك تقضي ساعتين على الأقل كل يوم في المطبخ. انتي عارفة أقل تلميذة عندي في المدرسة تعرف تعمل تورتة أحسن من دي بكتير.

شعرت سها أن هناك إناءً ساخنًا يغلي داخل رأسها، فلم تستطع أن تمنع نفسها من الرد على حماتها:

-ما تجوزي ابنك واحدة من تلميذاتك في المدرسة أحسن .

نزلت تلك الكلمات كالصاعقة الكهربائية على رؤوس الجميع بما فيهم سها نفسها .

توجهت عيون الجميع نحوها في دهشة. ولكن صلاح تغلب على دهشته بسرعة ورشق في وجهها سهام نظراته الحادة وصاح:

-ايه اللي انتي قولتيه لماما ده؟

كان أمامها فرصة للتراجع والاعتذار، ولكنها أحسَّت أن انكارها سيكون خيانة لكرامتها، فنظرت لحماتها بضيق وقالت:

-أنا قلت الحقيقة مش ممكن تفضلي تهزأيني وتحرقي دمي وكل ده علشان حتة تورتة، مشاعر البني أدم أهم من الاكل .

توحشت ملامح صلاح وأمه وهما يردان عليها فقالت لها أمه:

-الحق عليا إني باوجهك وبعرفك غلطك بدل لما تشكريني تردي عليا بالطريقة دي؟!

بينما قال لها صلاح:

-انتي قليلة الادب وأهلك معرفوش يربوكي .

انتظرت سها أن يهم والديها بالدفاع عن نفسيهما، ولكنها رأتهما يحدقان لها في وجوم ونظرات عيونهم تقول لها"انتي السبب أديكي جبتي لنا الكلام " .

تكلَّم والدها أخيرًا بهدوء طالبًا من صلاح أن يمسك أعصابه وقال له:

-سها مش قصدها تزعلك يا حاجة. هي بس ساعات بتهلفط في الكلام.. اعتذري لحماتك يا سها وقومي بوسي راسها.

رفعت الحاجة عائشة رأسها لأعلى كأنها طاروس، ونظرت لسها بارتياب في انتظار رد فعلها.

لم تستطع سها أن تتظاهر أنها أخطأت في حق حماتها .

قامت من حجرة الصالون بسرعة وتوجهت لحجرتها وسط دهشة حماتها وصلاح ووالديها.

صاح والدها:

-انتي رايحة فين انتي مسمعتيش الكلام اللي أنا قولته؟

ردَّت عليه بصوت مختنق:

-أنا أسفة يا بابا مش هقدر .

أغلقت عليها باب الحجرة بالمفتاح. ثم جلست على الكرسي المواجه للمرآة، ووضعت رأسها بين يديها وأغمضت عينيها وضغطت على جفونها حتى تخرج منها الدموع المختبئة داخلها، ولكن الدموع ظلت متحجرة في مقلتيها.

هذه ليست أول مرَّة تسمع من حماتها انتقادات بخصوص اتقانها للطهي .

حماتها تعرف كل شيء عن فنون الطهي بحُكم عملها كموجهة اقتصاد منزلي، وقد اعتادت على أن تعاملها كأنها تلميذة عندها في المدرسة. وكانت سها تستمع

لنصائحها وانتقاداتها بصدر رحب، وتحاول تنفيذ تعليماتها على أمل أن تصبح في يوم من الأيام الطباخة الماهرة التي تريدها.

ورغم أنها تحسنت كثيرًا، وأصبحت تتقن الكثير من الأكلات التي لم تكن تعرف عنها شيئًا، إلا أن حماتها ظلت تبخل عليها في المدح عندما تنجح، وتغدق عليها في التوبيخ عندما تفشل .

ومع ذلك عودت نفسها على أن تبتلع أي إهانة تتعرض لها في صمت وتطرق برأسها وتكتم ألمها ثم تتظاهر أنها لم تتألم وتعِد حماتها بأن تحسن من نفسها..

فلماذا لم تستطع احتمال الإهانة اليوم رغم أنها احتملت أسوأ منها من قبل؟

أخذت تنظر لوجهها الشاحب وعينيها الذابلتين في المرأة، ثم تساءلت: مَن أنا حقا؟

لقد ظنت انها قتلت شخصيتها القديمة ودفنتها من شهور عديدة، وأنها تحولت إلى الفتاة المطيعة الوديعة التي يريدها أهلها وخطيبها.

لقد أقنعت نفسها أن الدور الذي عهد إليها بأدائه هو شخصيتها الحقيقية، وأنها وافقت على أن تكون حرم صلاح الميرغني بمحض إرادتها، فما الذي أعاد الجذوة القديمة للاشتعال بعد أن ظنت أنها خمدت للأبد؟

لقد وافقت على الارتباط بصلاح حتى لا يحرمها والدها من حريتها للأبد، ولكنها الآن تدرك أن العقاب الذي ظنت أنها تجنبته ستتعرض له في جميع الأحوال.

إنها وشك الدخول لقفص ذهبي يبدو جميلاً وواسعًا، ولكنه في الحقيقة أضيق من سجن أهلها، لأن حارس السجن الجديد أكثر تشددا وصرامة من الحارس القديم .

هذا الحارس هو الذي منعها من الذهاب للرحلة التي أقامتها الكلية للفيوم من شهر لأنه لا يريد لخطيبته أن تسافر إلى أي مكان بدونه، وهو الذي منعها من الذهاب لصديقتها نهلة لأنه لا يخاف أن يجلس معها أشقاء نهلة .

هذا الحارس لا يعمل بمفرده، وإنما يشاركه في الحراسة والتحكم والسيطرة عائلته بأكملها. فبعد أن كان مطلوبا منها أن تطيع والديها وجدتها وشقيقها، أصبح مطلوبا منها أن تطيع صلاح ووالديه وخالاته وعماته وكل قريباته، والويل لها لو أبدت أقل اعتراض أو احتجاج. يبدو أن حياتها ستظل سجنًا أبديًا لن تتحرر منه إلا عندما بالموت.

بعد دقائق سمعت صوت طرقات على الباب، وسمعت والدها يقول لها افتحي. بينما كان يحاول تحريك المقبض. سرت في بدنها قشعريرة وهي تسمعه يتوعدها

" مسيرك هتطلعي من الأوضة وساعتها هريبكي من أول وجديد"

* * *

-34-

استيقظ كريم في الصباح الباكر ثم توجه للحمام. وقف تحت الدش ودعك جسده جيّدًا بالصابون. وبعد أن انتهى من الاستحمام، وقف أمام مرآة الحمام ليحلق ذقنه، ثم قام بتشذيب شعره بالمقص.

عاد لحجرته ثم اخرج البدلة السوداء التي اشتراها مع أمه من سنوات عديدة من الدولاب وقام بارتدائها فبدا كالعريس في ليلة زفافه .

حدق لنفسه في المرآة للمرَّة الأخيرة، فرأى انعكاسه يحدق له بعينين فارغتين .

لم يشأ أن يغرس السكين داخل صدره أو يقفز من الشرفة. أراد أن يموت في هدوء كما عاش في هدوء. لم يتردد ولم يشعر بالألم ولا بالخوف وبالحزن ولا بالاشتياق لأي شخص ولا بالندم على أي شيء. كان قلبه خاويًا من كل شيء ومستعد تمامًا للرحيل النهائي .

أمسك بشريط الأقراص المسكنة الذي اشتراه بالأمس، ثم أخرج الأقراص من الشريط ووضعها فوق كف يده اليمني. جلس على مقدمة الفراش وقام بإلقائها في جوفه على جرعة واحدة كأنها حبات من الحلوى. شرب كمية كبيرة من الماء ثم استلقى على الفراش ونطق الشهادة. دعا الله أن يغفر له، ثم أغمض عينيه وأخذ نفسًا عميقًا كأنه غطَّاس على وشك النزول في أعماق المحيط .

* * *

تصور أنه سيغيب عن الوعي سريعًا ثم يأتي عزرائيل لكي يأخذ روحه في ثوان. ولكنه ظلَّ متقيظا رغم أنه كان مغمض العينين. داهمه فجأة وجعٌ شديدٌ في معدته كضربات السكين، ثم أحسَّ أن هناك كائنًا مجهولاً يطبق بيديه فوق رقبته ويمنع الاوكسجين من الوصول إلى رئتيه. لم يظن أن قبضة عزرائيل ستكون بهذه القوة والعنف. فتح عينيه وفمه رغمًا عنه كأنه سمكة على وشك الخروج من المياه ليلتقط الأوكسجين. تزايد الألم في معدته حتى أخذ يتلوى ويصرخ ويئن بصوت مكتوم .

لم يستطع تحمل الألم لمدة أطول. هرع من حجرته متوجها للحمام فوجده مغلقًا. أخذ يدق على الباب ويصيح بصوت ملهوف "افتح ياللي جوه".

سمع والده يتكلم من داخل الحمام بعصبية:

-مين اللي بيخبط فيه إيه؟

-أنا كريم يا بابا أرجوك اخرج بسرعة أنا محتاج أدخل الحمام ضروري.

انفتح الباب بسرعة ثم ظهر والده. حدَّق له باستغراب عندما رأه يرتدي بدلة والعرق يتصبب من وجهه الذي هربت منه الحياة وتقلص من الألم .

-أنت ليه لابس البدلة دي على الصبح، ومالك ليه عامل زي ما تكون طالع من القبر؟

أعجزه الألم الشديد عن الرد. أخذ يهز رأسه في ارتباك وأشار له لكي يخرج، ثم أغلق على نفسه الحمام ووقف أمام الحوض ووضع سبابته داخل حلقه.

بعد لحظات أخرج سنتدوتيش الجبن اللذين تناولهما ليلاً، وأخرج معه الأقراص التي ابتلعها. وبعد أن انتهى من التقيؤ، جلس على كرسي الحمام لكي يلتقط أنفاسه .

غسلَ وجهه وفمه جيّدًا، ثم خرج ليجد والده ينتظره على باب الحمام .

نظرَ له بعينين متسائلتين منتظرًا منه تفسيرًا للمشهد الغريب الذي رأه من دقائق. طأطأ كريم رأسه في الأرض ولم يتكلم. لم يكن عقله قادرًا على العمل بصورة طبيعية بعد الموقف المروِّع الذي مرَّ به. دخل حجرته فتبعه والده وهو يطالبه بالحديث. أخبره بأول سبب خطر على باله:

-أصل بطني واجعاني أوي، الظاهر إن جالي تسمم .

-تسمم من إيه هو إنت بتاكل أصلا؟ ده انت بقيت جلد على عضم.

برقت عيناه من دهشة.

فقال له والده:

-انت مستغرب ليه؟ أنا واخد بالي من كل حاجة. أنا كنت سايبك تحزن على أمك زي ما انت عايز بس انت زودتها اوي. المفروض تتكسف على دمك وتنزل تدور على شغل. أمك لو كانت عايشة مكانش هيبسطها منظرك وقعدتك في البيت مش هترجعها للحياة .

رفع كريم يده وأومأ لوالده لكي يتوقف "أرجوك يا بابا كفاية أنا مش ناقص"

نظر له والده باشمئزاز ثم خرج من الحجرة .

أحسَّ أن البدلة السوداء تثقل على جسده وتمنعه من التنفس بصورة طبيعية، فسارع بخلعها وارتدى البيجامة. استلقى على الفراش وغمره ارتياحٌ غريب كأنه خرج لتوه من حفرة عميقة، رغم أنه من المفترض أن يلوم نفسه لأنه فشل في أداء أسهل مهمة يقوم بها أي شخص يائس.

لو كان ضغط على نفسه واستطاع أن يتحمل ألم معدته وانقطاع التنفس عنه لدقائق آخرى لانتهى أمره وغادر الحياة، هل غريزة الخوف هي التي دفعته للهروب من الموت في آخر لحظة؟ أم أن غريزة الحياة لم تمت داخله كما تصور، ولكنها كانت نائمة واستيقظت في الوقت المناسب لكي تدافع عن نفسها وتجبره على

البقاء؟ إنه الآن مضطر أن يتحمل سجن الحياة بعد أن اكتشف أن أسوار السجن أعلى من أن يتخطاها، ولكن هل يمكنه أن يتخلص من آلامه أم سيضطر لاحتمالها حتى يقبض الله روحه. ربما الخلاص أقرب له مما يتصور ولكن انغماسه في أحزانه أعماه عن رؤيته.. ربما الخلاص لا يكمن في الهروب من الحياة بأكملها، ولكن الهروب من هذه الحجرة، من هذه الجدران الصماء، من هذا الفراش، من عقله المكتظ بالذكريات المؤلمة والأفكار الكئيبة. ربما الحلُّ هو أن يبني لنفسه حياة آخرى في عالم آخر، بعيدًا عن هذا العالم. أو ربما عليه أن ينسي الماضي والمستقبل لبعض الوقت ويركز على اللحظة الحالية.

أخرجته نغمة التليفون من التفكير. تساءل عن ما دعا تليفونه للرنين في هذا الوقت المبكِّر من الصباح بعد أيام طويلة من الصمت. ردَّ على المكالمة رغم أن رقم المتصل لم يكن مسجلاً عنده. سمع امرأة تتحدث معه بلهجة جادة متسائلة:

-حضرتك كريم الدسوقي؟

-أيوة يا فندم حضرتك مين؟

-أنا من مكتب المحاسب سمير حجازي، حضرتك عملت عندنا في المكتب مقابلة من شهر. أحب أبشرك إننا قبلناك، وياريت تشرفنا بكرة ومعاك كل ورقك علشان تستلم وظيفتك...

* * *

-35-

وجدت سها نفسها تقف فوق قمة جبل عال وكتل السحاب الأبيض تحدها من كل جانب، وأصوات الطيور تداعب أذنيها. تطلعت حولها فرأت نفسها محاطة بالبحر الذي بدا لها من فوق الجبل كسجادة زرقاء تزين سطحها الأمواج التي كانت تبدو من بعيد كخيوط بيضاء متحركة. كان قرص الشمس يقف شامخًا جليًا في كبد السماء، ويرسم داوئر ذهبية صغيرة تتراقص فوق سطح البحر .

وفجأة تورات الشمس وراء كتل من الغيوم التي تراكمت حتى لوَّنَت السماء باللون الأبيض، وهبَّت رياحٌ عاتية هزَّت السماء والبحر والجبل، وهزَّت معهم جسدها النحيل وأصابتها باختلال في التوازن. جاهدت خوفها حتى غلبته وصمدت أمام الرياح واستطاعت بصعوبة أن تثبت قدميها فوق الجبل .

سألت نفسها: كيف تمكنتُ من الصعود على قمة هذا الجبل وأنا أخاف من المرتفعات، وكيف السبيل للنزول منه؟

أخذت تجول بعينيها بين الجبل والبحر بحثًا عن أي شخصٍ عابر يمكنه أن يعاونها على النزول، فلم تجد أثرًا لأي بشر. أخذت تحدق في الجبل بحثًا عن طريق ممهد يمكّنها أن تنزل من خلاله، فلم تجد سوى منحنيات وتعرّجات في وسط الصخور والأحجار. حاولت أن تتحرك ببطء، فأحسَّت أن الصخرة التي تقف عليها تهتز تحت قدميها. كادت تنزلق وتسقط فتوقفت عن الحركة وجلست فوق القمة وتكورت حول نفسها وأخذ ترتعش كأنها مصابة بالحمى.

ظلَّت تسأل نفسها: هل سأتمكن من النزول، أم سأظل محبوسة فوق قمة هذا الجبل للابد؟ ليس من المعقول أن يكون هذا المكان خال من البشر تمامًا.. من

المؤكد أن هناك على الأقل إنسان واحد يعيش هنا. الحلُّ الوحيد هو أن أصرخ وأنادي، لعلَّ أحد يسمع صوتي فيهُبّ لنجدتي.

رفعت صوتها بقدر ما تستطيع وأخذت تصيح "الحقوني".

أحدث صوتها الرفيع أصداء قوية في الفضاء المفتوح، فبدا كما لو أن هناك عشرات الفتيات يصرخن معها في وقتٍ واحد، ولكن لم يظهر في الأفق أي شخص. أُجهِدت أحبالها الصوتية، وجفَّ حلقها من الصياح وفقدت الأمل في النجاة، فأخذت تبكي وتنتحب وأحسَّت أن نهايتها ستكون فوق هذا الجبل، وفجأة سمعت صوت رجل يهتف باسمها..

عندما تكرر النداء تأكدت أن من يناديها ليس شخصًا اخترعته أوهامها. نظرت حولها فلم تجد أحدًا، ولكنها ظلت تسمع صوته يناديها. ردت عليه متسائلة "من أنت؟" فقال لها بصوت مُطمئن "أنا كريم يا سها لا تخافي" .

انقلبت دقات الخوف في قلبها لدقات الفرحة، ولكنها تساءلت: كيف لم تستطع أن تميِّز صوته؟

نظرت لأسفل الجبل، فوجدته يقف على صخرة كبيرة ويشير لها بيديه. بدا حجمه صغيرًا بسبب المسافة الشاسعة التي تفصل بينها وبينه .

سألته:

-كيف أتيت إلى هنا؟

-سمعت صراخكِ فجئتُ لكي أنقذك.

-كيف استطعتَ الصعود إلى هذا الجبل؟

-أنتِ الوحيدة التي تستطيعين الإجابة على هذا السؤال، ولكني أستطيع مساعدتكِ لو أردتِ النزول. كل ما عليكِ، القفز من فوق الجبل، وأنا سأحملكِ قبل أن تسقطي على الأرض .

مدَّ ذراعيه لها وظلَّ يحثها على القفز، فنظرت له باندهاش وقالت له:

-أأنت مجنون، ألا ترى ارتفاع الجبل؟ لو قفزت من فوقه ستتهشم عظامي وأموت ولن تستطيع الإمساك بي.

-لا يوجد لدي طريقة آخرى لمساعدتك. صدقيني ولا تخافي. اغمضي عينيكِ واتركي نفسكِ للهواء واقفزي وسوف أتلقفكِ .

كان يتحدث عن عملية القفز من الجبل للأرض كأنها قفز على مرتبة اسفنجية.

سيطرَ الرعب عليها بعد أن قامت بقياس المسافة بين الجبل والأرض، فأخذت تهز رأسها وتقول لكريم:

-أنت لا تريد إنقاذي أنت تريد موتي.

ردَّ عليها ضاحكًا :

-إذا بقيتِ فوق سطح الجبل ستموتين حتمًا، ليس من الجوع والعطش فقط، ولكن من الخوف. ولكنك لو قفزتِ ستتخطين خوفكِ وستعيشين. اسمعي كلامي واقفزي .

لا يمكن أن أدعك تفلتين من بين يدي.

عندما فكّرت في كلامه جيّدًا وجدته منطقيًا. طالما نفذت منها كل الطرق لإنقاذ نفسها، فليس أمامها إلا أن تتخذ خطوة جنونية. صحيح أنها معرّضة للموت في حالة القفز، ولكنها ستموت حتمًا لو ظلَّت فوق الجبل للأبد. لابد أن تقفز وحتى لو فشلَ كريم في الإمساك بها، ستكون وفاتها سريعة، لكنها لو ظلت جالسة في مكانها هكذا ستموت ببطء .

نظرت لسرب من الحمام يحلّق نحو الأفق البعيد وأخذت تتأمل أجنحتهم وهم يجدفون في الهواء بسهولة وسرعة، فتخيلت أن الله استجاب لدعائها وحوَّل ذراعيها لجناحين. اقتربت من حافة الجبل وأغمضت عينيها، ثم تركت جسدها

للهواء وتخيلت أنها ستطير مثل الحمام. سمعت كريم يصفق لها ويصيح "برافو عليكي".

فتحت عينيها ورأت نفسها تقترب منه تدريجيًا، ورأت ذراعيه يتسعان شيئًا فشيئًا، ثم فجأة انطويا عليها وأمسكا بها. غمرتها فرحة النجاة، فاحتضنت كريم وهي تشكره، ثم سألته:

-كيف عرفت أني سأنجح في القفز؟

فارتسمت على وجهه ابتسامة واثقة وقال لها:

-لأني أعرف أنكِ قوية وشجاعة.

أخذت تفحص وجهه باندهاش وهو يحدثها. بدا لها شخصًا أكبر سنًا من كريم الذي تعرفه.. عيناه غائرتان، ووجهه مليء بالتجاعيد والبقع، وذقنه تعلوها لحية طويلة، وظهره مقّوسٌ ويداه ترتعشان. سألته:

-لماذا تبدو عجوزًا؟ هل أنت مريض؟

أطرق برأسه في حزن وقبل أن يجيب عليها، فتحت عينيها، فوجدت نفسها مستلقية على فراشها. أغمضت عينيها لعلها تستطيع أن تعود للحُلم وتحصل على الإجابة من كريم، ولكن جسدها أبى الاستسلام للنوم، فأحسَّت أنها رأت حُلمًا ناقصًا.

* * *

منذ أن استلم كريم وظيفته الجديدة في مكتب المحاسبة وهو يدفن نفسه يوميًّا تحت تل الأوراق والأرقام لساعات طويلة، ولا يخرج منها إلا بعد أن يتملك منه التعب والإنهاك. كان يفرح عندما يعطيه صاحب المكتب عملاً إضافيًا حتى يبقى في العمل طول اليوم ولا يعود لمنزله إلا من أجل النوم. أصبح يجد في الدفاتر

والعمليات الحسابية مخدرًا لألمه مقبول اجتماعيًا ومجزٍ ماديًا، كما أن حصوله على هذا العمل أعطاه ثقة في نفسه وأشعره أنه لأول مرَّة أصبح له قيمة في الحياة.

كان جالسا في المكتب يحتسي فنجان القهوة ويقوم بإعادة مراجعة للحسابات أمام الكمبيوتر، وفجأة انتابه صداعٌ شديد من فرط العمل والتركيز، فقرَّر أن يعود للمنزل .

وقبل أن يهم بالانصراف من المكتب رنَّ تليفونه المحمول. برقت عيناه من الدهشة عندما تطلع لشاشة التليفون.. أخذ يقرأ اسم المتصل عدة مرَّات، ثم فتح التليفون بسرعة وقال "ألو" بصوتٍ ملهوف. سمع صوت أنفاس متلاحقة. كرَّر كلمة " ألو" عدة مرَّات ثم قال "انتي سها؟"

انتظرها أن تخترق جدار الصمت وتتفوه بكلمة، ولكنه سمع صوت صفير ثم انتهت المكالمة. نظر للتليفون بذهول وسأل نفسه ما الذي دعاها لإجراء الاتصال إذا كانت لا تريد أن تتحدث؟ ربما لا تكون هي المتصلة.. ربما أختها الصغيرة أو إحدى قريباتها أرادت أن تلعب في تليفونها. ولكن لماذا يتصادف أنَّ من تلعب في تليفونها تضغط على رقمه بالذات دونا عن باقي الأرقام ولماذا لم تمسح رقمه من تليفونها حتى الان؟ لا، من المؤكد أنها المتصلة ولكن ما الذي منعها من الكلام؟

هل لا تدري شيئًا عن الحنين الجارف الذي داهمه عندما رأى رقمها، أم أنها تريد أن تصب على جراحه صودا كاوية؟

تعبَ من التفكير، فقرَّر أن يقطع الشك باليقين بأن يتصل بها ويواجهها، ولكن قبل أن يضغط على رقمها فوجيء بالتليفون يرن مجددا .

أمسكه بعصبية وفتحه بسرعة وقال بضيق:

-ألو، أرجوكي لو انتي سها ردي عليا.

ردَّت عليه أخيرًا بكلمة واحدة:

-كريم...

ثم أجشهت بالبكاء .

قامت سها من النوم والخوف على كريم يأكل قلبها. أحسَّت أن هذا الحُلم يحمل في طياته رسالة خفية موجهة لها، رغم أنها لم تكن تصدق أن الأحلام لها معنى. شعرت أن قلبها لن يطمئن إلا عندما تسمع صوته وتتأكد أنه بخير.

اضطرت أن تفتش طويلاً بين صفحات كتبها وكراساتها القديمة حتى عثرت على رقمه الذي محته من تليفونها يوم أن افترقا. سرت في بدنها نفس الفرحة القديمة وهي تضغط على رقمه. مرَّت عليها ثوان الاستماع لرنين التليفون كأنها يوم طويل. وأخيرًا ردَّ عليها .

حاولت أن تتكلم، ولكن صوتها احتبس في حنجرتها. تاهت منها الكلمات بعد أن اكتشفت أنها ورّطَتْ نفسها في موقفٍ محرج. لا يمكن أن تقول له لقد اتصلت بك بعد أن رأيتك عجوزًا في منامي. كما أنها لا تضمن كيف سيكون ردّ فعله بعد أن حطمت قلبه. ضغطت على زِر إنهاء المكالمة، وحمدت الله أنه مازال على قيد الحياة رغم أن صوته يبدو خاليًا من الحيوية. ثم عادت تسأل نفسها ما سبب تغيُّر نبرة صوته؟ هل حاول أن يقول لي في الحُلم أنه مريض؟ لم يكن من المفترض أن أنهي المكالمة قبل أتحدث معه وأطمئن على صحته. يجب أن أستجمع شجاعتي وأعاود الاتصال به حتى لو صدني أو عاملني ببرود .

لم تجد مفرًا من الكلام عندما سمعته يترجاها حتى ترد عليه. لم تعرف في البداية لماذا بكت فجأة وهي تهتف باسمه، ثم اكتشفت أنه ليس بكاء الفرحة لأن القدر منحها فرصة جديدة للتواصل معه، ولا بكاء الاشتياق له، ولا بكاء الحسرة على حالها وحاله.. إنه بكاء الندم..

أخبرها أنه بخير بصوتٍ منهك فسألته:

-هو صوتك ماله انت عيان؟

صمت للحظات ثم قال لها:

-التليفون مش هينفع علشان أشرح لك إيه اللي عندي لازم نتقابل.

اشتياقها لرؤيته وللأيام الجميلة التي جمعتهما جعلها توافق رغم علمها بصعوبة إتمام هذه المقابلة بعد أن انتقلت ملكيتها للسيد صلاح الميرغني. وجدت الحلَّ عند صديقتها نهلة التي اتصلت بصلاح وترجّته لكي يدعها ترافقها للمحلات حتى تساعدها في اختيار فستان زفافها. وبعد أن لفَّت مع نهلة وأمها على المحلات لمدة نصف ساعة وضعت يدها فوق فمها، وتظاهرت بأنها تشعر بألم في أسنانها، وتريد العودة للمنزل من أجل أن تتصل بالطبيب وتأخذ منه موعد.

* * *

جلست سها في عربة الترام تتحسَّس خاتم خطوبتها الذهبي بأصابع يدها اليسرى فداهمها خوف مفاجيء. قالت لنفسها ماذا لو تكررت الصدفة السيئة ورأني صلاح في المقهي؟ لا، لن أختبيء ولن أهرب بل سأقف أمامه وسأعترف بذنبي بكل شجاعة.. سأقول له أنا أعلم جيّدًا أن ما أفعله خيانة عظمى وخطيئة كبرى لا تغتفر، ولكن خطيئتي تعادل مثقال ذرة بجوار الذنوب التي ارتكبتها أنت وأهلي في حقي .

* * *

دخلت المقهى لتجد كريم يجلس أمام نفس الطاولة التي جمعتهما مع نهلة وهيثم من أربع سنوات. تبخّرت فرحتها برؤيته عندما رأت عظام وجهه البارزة وشعره المهوَّش وجسده الذي ازداد نحالة. هو أيضًا استغرب عندما رأها ترتدي جيبة سوداء طويلة وبلوزة خضراء فضفاضة بكُمٍّ طويل.

تطلع لوجهها الشاحب والدائرتين السوداوين المحيطتين بعينيها، وسألها:

-انتي شكلك اتغير كدة ليه؟

-أنا كنت برضه عايزة أسألك نفس السؤال، إيه اللي حصل لك؟

أطرق برأسه في حزن وهتف بصوت جريح " أمي ماتت ".

غطت فمها بأصابعها ثم ترقرقت الدموع في عينيها، وأدركت معني حُلمها. شعرت بأنها التي تسببت في وفاة أمه بشكلٍ غير مباشر لأن ابتعادها عنه تسبب في حزنه، ومن المؤكد أن حزنه انتقل لأمه مما أدى لوفاتها .

كرَّرت له أسفها وقالت:

-أنا عارفة إني سبب كل المصايب اللي حصلت في حياتك، بس اوعي تفتكر إنك بتعاني لوحدك. أنا بعاني زيك بالضبط ويمكن أكتر. بس أنا استاهل لأني غلطت في حقك وفي حق نفسي.

ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة وهو يقول لها:

-أرجوكي بلاش تلومي نفسك على حاجات مش ذنبك. أمي ماتت لأن أجلها انتهي، وأنا عارف إن اللي انتي عملتيه كان غصب عنك .

اندهشت من تسامحه السريع معها رغم أنه لم يعرف أسباب ما فعلته في حقه .

حاول كريم أن يخفف من قتامة الجلسة، فابتسم لسها وسألها ممازحًا:

-لسه نفسك تركبي مركب وتروحي بيها إيطاليا وفرنسا؟

ضحكت وردَّت على سؤاله بسؤالٍ مشابه:

-وإنت لسة نِفسك تبقى عازف جيتار؟

تغيَّر شكل ابتسامته وهو يقول لها:

-لا خلاص أنا بقيت محاسب.

-يا خسارة، لو كنا لسه مع بعض كنا حققنا كل أحلامنا .

مطَّ شفتيه في حسرة وتنهد:

-لو يا سها. لو.. خلاص فات المعياد.

-مين قالك إنه فات؟

حملق في وجهها وارتسمت على وجهه علامات الذهول، ثم سألها إذا كانت تلمّح إلى الشيء الذي يظن أنها تلمح له. فقالت له نعم بلا تردد .

لقد تعلمتْ أن إنكار الحقيقة ما هو إلا تضييع للوقت. إنها ما تزال تُحِبُّه وهو ما يزال يحبها. ولكن ما يربطها به أكبر من الحُبّ.. ما يربطها به حياة متشابهة وحُلم مشترك ومصير واحد. كلاهما ينتمي لعالم أكبر وأوسع من هذا العالم الضيق الكئيب الذي يعيشان فيه، ولكن لا أحد منهما يجرؤ على استكشاف العالم الأكبر بمفرده، لأنهما يعلمان أن العالم الكبير أحيانًا يكون مخيفًا وموحشًا.

وكلاهما يملك الشمعة التي ستضيء للآخر طريقه وطوق النجاة الذي يحميه من الغرق إذا جرفه التيار. إنهما في أمسِّ الحاجة لبعضهما، ولكن ماذا بعد؟ ما كانت سها تفعله بالأمس لا يمكن أن تفعله اليوم .

إنها لن ترضي باختلاس لحظات من الحُرية لأنها تريد حريتها كاملة.

إنها لا تريد أن تتصرف مثل المراهقين بعد أن بلغت سِن الرُشدِ .

ولن تجلس وتنتظر نزول معجزة من السماء تحررها وهي ترى موعد دخولها السجن الجديد يزداد اقترابًا كل دقيقة.

قالت لكريم:

-لازم نلاقي حل وبسرعة.

استغرق كريم في التفكير قليلاً ثم قال لها بتردد:

-مفيش إلا حل واحد.

* * *

- 36 -

لو جاء عرَّاف من شهرٍ واحدٍ، وأخبر كريم أنه سيعاود زيارة والد سها في محله لنعته بالخبل والجنون. ولكنه أصر على القيام بتلك الزيارة رغم أن سها حاولت إثنائه عنها، وأكدت له أن تغيير موقف والدها من رابع المستحيلات .

الذكرى المخزية لزيارته الأولى لم تُمحَ من ذاكرته حتى الآن، إلا أنه أصر على مقابلة والد سها لكي يثبت له أنه جدير بابنته، وأنه لم يعد ذلك المراهق الساذج الذي زاره العام الماضي. لقد طهرته الآلام التي تلاحقت عليه من الشوائب التي علقت في نفسه على مر السنين، وصهرته المعاناة وخلقت منه شخصًا جديدًا لا يخشى ظِله ولا يتعثر في كل كلمة ويعرف كيف يعبِّر عمَّا يريده .

دخل محل العيسوي للأدوات الكهربائية بخطوات بطيئة ولكنها واثقة. امتقع وجه محمود العيسوي عندما رأه، وبدلا من أن يردّ عليه السلام نظر له بتقزز، ثم سأله بطريقة عصبية:

-إزاي تتجرأ إنك تيجي هنا تاني؟

ردَّ عليه كريم بصوت هادىء:

-أنا جاي أتقدم لسها. أنا عارف انها مخطوبة، بس عارف إنها مجبرة على الخطوبة دي. أنا عارف إني مش غني زي خطيبها بس عارف إني اقدر أسعدها أكتر منه. أنا على فكرة اشتغلت محاسب وباخد مرتب 800 جنية في الشهر. المرتب مش كتير بس هيزيد مع الوقت. أنا ممكن أبان قدامك دلوقتي ولا حاجة بس أنا عندي أحلام كتيرة ولما سها تبقى معايا هقدر أحققها .

أراد محمود العيسوي أن يعبر لكريم عن إعجابه بجرأته وبثقته في نفسه، وبرومانسيته، وأراد أن يضحك على كلامه ويسخر منه وينعته بكل الشتائم المقذعة التي يعرفها، ويقذف به من المحل كأنه قطعة خردة بالية.

ولكنه بعد أن اختار في اختيار الرد المناسب عليه، قال له بصوت منخفض يخبئ وراءه بركان من الغضب:

-أنا ممكن أقتلك بس مش عايز، لأني شايفك أقل وأتفه من إني ادخل فيك السجن. بس لو جيت المحل هنا تاني حضَّر كفنك الأول.

أحسَّ كريم أن حياته بالفعل من الممكن أن تنتهي في هذه اللحظة لو أصرَّ على مجادلة والد سها، فلزم الصمت وخرج من المحل مطأطئ الرأس وهو يشعر بالانهزام .

لم تفاجئ سها عندما اتصل بها كريم ليخبرها أنه فشل في إقناع والدها بأنه الشخص المناسب لها. قال لها واليأس يفوح من صوته "كان عندك حق" .

أحسَّت أنه على وشك أن يودعها، فدق جرس الإنذار داخلها وأحسَّت أنها يجب أن تفعل أي شيئًا مجنونًا لكي تنقذ نفسها قبل أن يفوت الأوان. قفز إلى ذهنها الحُلم الذي رآته من أيام، فتضرج وجهها ولمعت عيناها، وقالت لكريم بانفعال:

-أنا لقيت الحلَّ.

* * *

لم تنزعج سها عندما سمعت صوت أبيها يدوي في الشقة هاتفًا باسمها. خرجت وهي تطأطئ برأسها متظاهرة بالخوف والارتباك.

كان الغضب يتراقص فوق وجه والدها وهو يسألها إذا كانت طلبت من الولد المجنون الذي كانت تعرفه أن يعاود التقدم لها مجدَّدا .

بدا عليها الامتعاض وهي ترد عليه:

-إزاي كريم يعمل كده هو اتجنن ولا إيه؟ أنا قطعت علاقتي بيه من يوم ما اتخطبت لصلاح، وحتى لو اتقدم لي أنا مش عايزاه. أنا عايزه صلاح وبحبه .

رفع محمود حاجبيه الكثيفين، واتسعت عيناه من الدهشة. لم يتصور أنه سيسمع ابنته وهي تعلن عن حُبِّها للشخص الذي فعل الأفاعيل من أجل أن يجعلها توافق على الارتباط به.

ردَّ على سها وفي عينيه نظرة تنم عن عدم التصديق:

-معقولة انتي بتحبي صلاح؟ أومال إزاي كنتي من أسبوعين بتترجيني علشان أسيبك تفسخي خطوبتك له؟

-علشان أمه، الست دي متسلطة ومتحكمة ومش بيعجبها العجب، لكن هو فيه صفات كتيرة كويسة، وكمان بيحبني وعلشان كده أنا هتحمل أمه علشان خاطره .

كانت فرحة محمود بتعقل سها ممزوجة بالقلق والشك. كان خائفًا أن يكون تعقلها حالة مؤقتة وستثور على صلاح أو أمه في أي لحظة كما فعلت من قبل، وتتشاجر معهم ثم تفسخ الخطوبة. ولكن مخاوفه تلاشت تمامًا عندما لاحظ أنها أصبحت أكثر لطفًا وهدوءًا مع صلاح، وأكثر صبرًا على أمه. وازداد اطمئنانا إلى أن زواجها سيتم عندما رأها متحمسة وسعيدة بعد أن انتهت من امتحاناتها للذهاب مع صلاح وأمه للمحلات من أجل اختيار مفروشات شقة الزوجية .

* * *

- 37 -

جلس«محمود العيسوي» يوم الخميس ظهرًا مع زوجته وأولاده في حجرة السفرة من أجل تناول طعام الغداء، المكوَّن من السمك المقلي والأرز الصيادية الأسمر وسلطة الطحينة. وبينما كانت سلوى تقشر السمك لروان أخذت تتحدث مع سها بابتهاج وحماس وفرحة عن المحلات التي تنوي أن تزورها معها غدًا في زنقة الستات ومحطة الرمل والمنشية، مع اقتراب موعد زفافها بعد أسبوعين .

وبعد أن انتهت من الحديث انتظرت من سها أن تؤكد على كلامها، أو تقترح عليها أي شيء، ولكنها وجدتها سها تتأمل طبق الأرز في صمتٍ كأنها تقوم على تجربة علمية بين حبات الأرز.

نادت عليها، ولكنها لم ترد. نظرَ لها والدها بسخرية ثم هزَّ كتفها بقوة وقال لها:

-ما تردي على أمك يا بنت.

ضحك تامر وروان على سها وهي ترتجف بعد أن استفاقت من الشرود الذي استولى عليها.

حدجتها والدتها بنظرة قلقة وسألتها:

-كنتي بتفكري في إيه؟

تطوع تامر بالرد بالنيابة عنها:

-في العريس طبعا.

لمعت عينا سها، ثم نظرت في الأرض وتضرج وجهها بحمرة الخجل، فابتسمت لها والدتها وقالت:

-يلا خلاص هانت قربتم تبقوا مع بعض. ربنا يوفقكم ويهدي سركم ويرزقكم بالذرية الصالحة.

تركت سها غدائها متعللة برغبتها في النوم. وقبل أن تغادر حجرة السفرة أخذت تحدق جيّدًا في ملامح كل فرد من أفراد أسرتها، ثم أطالت التطلع لأختها روان التي كانت تلتهم السمك بتلذذ. أطبقت على عينيها جيّدًا حتى لا تفر منها الدموع، ثم أدارت ظهرها لحجرة السفرة وتوجهت إلى حجرتها بخطوات سريعة.

* * *

كان صباح يوم الجمعة(25 يوليو 2008) في منزل محمود العيسوي غارقًا في الهدوء، ولكنه كان كالهدوء المخيف الذي يعم المدينة قبل أن يحتاجها إعصار لا يُبقي ولا يذري. كان محمود وأفراد أسرته يغضون في نومٍ عميق، وفجأة استيقظت سلوى على دقات الساعة الحادية عشرة صباحًا. تقلبت في الفراش ودعكت عينيها ثم غادرت الحجرة بخطوات متثاقلة.

وبعد أن خرجت من الحمام نادت على سها لكي تساعدها في تحضير طعام الإفطار، وانتظرتها أن تخرج من حجرة النوم ولكنها لم تخرج. تصورت أنها لم تسمعها فدفعت باب حجرتها ودخلتها.

رأت روان نائمة في فراشها، بينما وجدت فراش سها مرتّبًا ومنسّقًا كأنها لم تنم فيه، فاستولت عليها الدهشة. رأت خاتم خطوبتها الذهبي ملقى

على(الكومودينو) المجاور لفراشها، فظنت أنها خلعته لكي تغسل مواعين العشاء .

خرجت من الحجرة وتوجهت للمطبخ، فلم تجدها فأخذت تبحث عنها في كل أرجاء المنزل وهي تهتف باسمها. تسلل إليها القلق عندما لم تجد لها أثرًا في المنزل .

تأكدت أنها خرجت من المنزل عندما دخلت حجرتها لتفتش عن حقيبة يدها ولم تجدها.. يا تُرى ما السبب الذي دعاها للخروج مبكّرًا يوم الجمعة بدون استئذان؟

دبَّ الفزع في قلبها عندما اتصلت برقمها فتلقت رسالة "الرقم المطلوب غير متاح حاليا"

قالت لنفسها: هل هناك مكروهٌ وقع لابنتي؟ هل تعرضت لحادثة من حوادث الاختطاف التي أقرأ عنها يوميًّا في صفحة الحوادث؟ هل هي في مكانٍ ما تصيح وتبكي وتستعيث؟ هل تعرضت لأسوأ ما يمكن أن تتعرض له أي فتاة في الحياة؟ اهدئي يا سلوى ولا تستجيبي لشطحات خيالكِ. سها بخير وكل ما في الأمر أنها خرجت بدون إذن وتأخرت قليلاً، والآن ستجديها تفتح باب الشقة وتدخل عليكِ.

تمنَّت سلوى بشدة أن تكون هذه هي الحقيقة، ولذلك امتنعت عن إيقاظ زوجها وابنها، أو إخبار حماتها وإخوات زوجها بأي شيء، وقرَّرَت أن تظل جالسة في الصالة في انتظار وصول ابنتها. وخلال هذه الفترة كرَّرَت الاتصال بها عدة مرات، ولكنها ظلت تتلقى نفس الرسالة. مرَّ الوقت واقترب موعد صلاة الجمعة ولم تتحقق أمنية سلوى.

رأت زوجها يخرج من حجرة النوم ويلقي عليها تحيَّة الصباح وهو يتثاءب. كرهت أن تجعله يبدأ يومه بهذا الخبر، ولكنها لم تجد بُدًّا من إخباره أنَّ سها ليست في المنزل. تلقى محمود الخبر بابتسامة ساخرة كأنه استمع لنكتة سخيفة، ثم طرح على سلوى نفس الأسئلة التي طرحتها على نفسها:

-يعني إيه مش في البيت؟ وإيه اللي يخرجها في الوقت ده؟ وإزاي متاخدش إذننا وإزاي تليفونها مش بيرد؟

-والله علمي علمك، بس كل ده مش مشكلتنا أنا بس عايزاها ترجع لأني مش مطمنة عليها .

انتقل الخوف والقلق اللذان أصابا سلوى لمحمود سريعًا، فسارع بتغيير ملابسه ونزل لشقة أمه ليسألها عن سها لعلها تكون لمحتها وهي تنزل من العمارة.

تلقت عنايات سؤال ابنها وعلى وجهها علامات الصدمة، ثم أخبرته أنها لم ترها لأنها كانت نائمة كل هذا الوقت. لعن محمود النوم وسنينه، ثم لفَّ على كل شقق العمارة التي يسكن فيها أعمامه وزوجاتهم ليكرِّر نفس السؤال، فتطابقت إجابتهم مع إجابة والدته. ولكنهم أبدوا تعاطفًا كبيرًا معه، وعرضوا عليه المشاركة في البحث عنها.

خلال خمس دقائق امتلأ الشارع بأسرة محمود، فأخذ كلٌّ منهم يبحث عنها في المنطقة المحيطة بالعمارة، ويسأل عنها الجيران والبائعين وأصحاب المحلات، فتكررت نفس الإجابة من كل الناس "لم نراها ولا نعرف عنها أي شيء"

ظلَّ محمود يسأل نفسه: إذن كيف خرجت من العمارة بدون أن يراها أحد؟ هل ارتدت طاقية الإخفاء، أم أن كائنًا فضائيًا اختطفها واصطحبها معه

للكوكب الذي جاء منه؟ من المؤكد أن هناك شخص واحد رأها وهي تمشي في الشارع، ومن المؤكد أن هناك تفسيرًا منطقيًا لخروجها المبكر بدون إذن وتأخرها في العودة حتى الآن .

* * *

وصل «عبد المجيد متولي» في الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح يوم الجمعة لمحطة السكك الحديدية في سيدي جابر. جلس على أحد المقاعد في انتظار وصول القطار الذي يحمل أمه القادمة من القاهرة. انتابه الملل من الانتظار بعد أن تأخر القطار، فأخذ يسلي نفسه بالنظر للمسافرين حوله .

وفجأة.. جلست بجواره شابة جميلة فارعة الطول ترتدي نظارة شمس وتحمل حقيبة ملابس سوداء صغيرة على كتفها الأيمن وحقيبة يد صغيرة على كتفها الأيسر.

رأى شابًا في مثل عمرها يجلس بجوارها، ثم أمسك يدها وأخذا يتبادلان نظرات مُحِبَّة كأنهما خطيبان أو زوجان في شهر العسل .

عندما تطلع عبد المجيد في وجه تلك الحسناء ذات الشعر البني الطويل والبشرة البيضاء الناضرة، انتابه شعور غريب أنه رأها من قبل .

بدأ يفتش في ذاكرته الفوتوغرافية القوية على صورتها، ثم برقت عيناه وتذكَّر أنه حضر حفل خطوبتها على زميله المهندس صلاح الميرغني من سنة تقريبًا.

صوَّب عينيه ناحية يديها، فاندهش عندما لم يجد خاتم الخطوبة في إصبعها .

أراد عبد المجيد أن يتأكد من قوة ذاكرته، فمال برأسه ناحيتها وسألها بتردد:

-مش حضرتك برضه خطيبة المهندس صلاح الميرغني؟

قامت الفتاة مفزوعة من مكانها كأنها وجدت صرصارًا على كرسيها، وردت عليه بانفعال:

-لا مش أنا، أنا معرفش حد اسمه صلاح.

ثم أمسكت بيد الولد الذي كانت تجلس بجواره، وهرعا سويًّا بسرعة لكي يلحقا بالقطارالتوربيني المتّجِه للقاهرة...

ياسمين خليفة

مِصر2013

* * *

عزيزي القارىء

تقوم عملية القراءة على الوعي بالذات واللغة، ولا يتم ذلك دون ثقافة (قرائية) تحاول أن تساهم دار ليان للنشر فيها، في سبيل التقريب بين المؤلف والقارئ. لذلك لست متلقيًا للإبداع الأدبي والفني فحسب، ولا قارئًا لرموز لغوية ذات أبعاد إنسانية فقط، بل أنت (حلقة الوصل).

حلقة تكتمل من خلال قراءة الإبداع؛ لأن الإبداع-في نظرنا- هو المشاركة الفعلية والسامية بين كاتب يبحث عن الحياة من خلال الأحرف، وقارئ مطّلع ومتعدد الرؤى يهفو إلى فنيَّات اللغة ورسالتها الإنسانية. مع إيماننا بأن الكاتب الجيد هو قارئٌ نهم، والقارئ النهم مشروع كاتب جيد في المستقبل القريب، وهذا دورنا وننتظرك عزيزي القارئ لتحول رؤيتك إلى رؤية بين ضفتي كتاب من إنتاج ليان للنشر والتوزيع.

تنطلق رسالتنا إذًا، من خطوة المشاركة بين طرفي الإبداع وجناحيه: المؤلف وأنت.

ولا تكتمل عزيزي القارىء العمليةالإبداعية والقراءة الصحيحة للإنتاج الفكري-بأبعاده الفنية- دون طيفك كقارىء وأنفاسك كناقد وبحثك عن الإبداع كذوَّاق. ولسنا إلا خطوة الرقي الحضاري الأولى، التي تبحث عن الارتقاء بالإنسان العربي وفكره، وتطوير ملكات المبدع والقارئ عبر تشجيع

النصوص الرصينة، ولغتها السليمة الموروثة عن الأجداد والحاملة لأسمى الرسائل الإنسانية.

لنا، وإن فشلنا فعذرنا أننا من أنصار عشق البدايات ودعم أصحاب المواهب الشابة في الخطو نحو النشر في أولى أرهاصتهم الأدبية، ورؤيتنا أن دورنا الرئيسي ينصب على التمهيد المدفعي للكاتب في خطواته الأولى وإقامة العديد من الجسور الصحفية والأدبية والتعريفية بين الكاتب الشاب والوسط الثقافي والقراء ككل.

حلمنا الكبير هو الانتشار الكبير للمواهب الشابة في الأدب المصري والعربي، والباب مفتوح للجميع، وعلى من يرغب في النشر معنا مراسلتنا على النحو التالي:

fathy66666666@yahoo.com

layanpub@yahoo.com

layanpub@gmail.com

فتحي المزين: 056 01282288